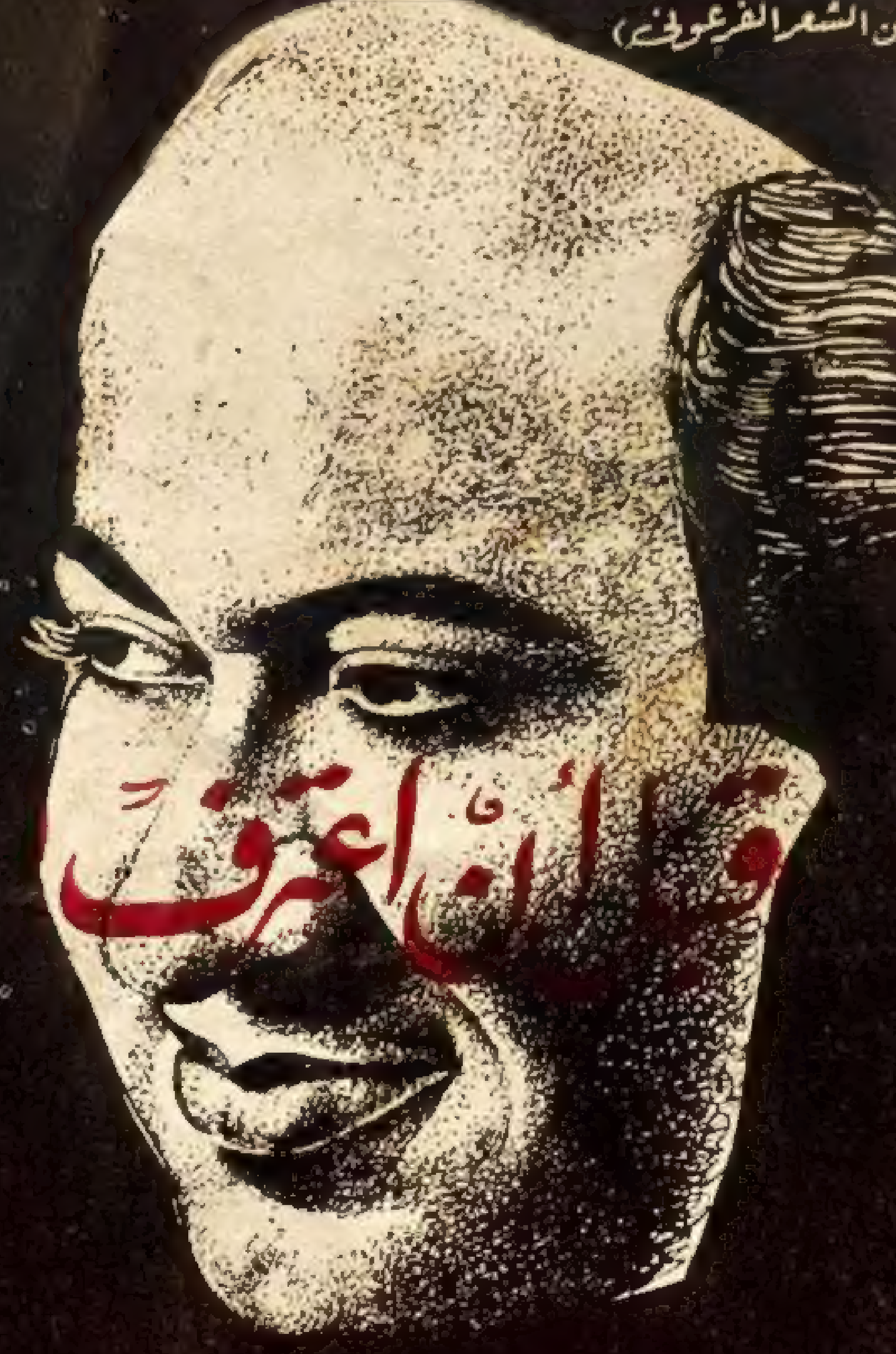
وعندما تجئ الى أختك
فهى تتمسح فى قدميك
آه .. يا أعظم الرجال
إن الصحة والحياة
عندها تعود الى ..
(من الشعر الفرعونى)



قبل أن أعترف

فتحى الرملى

وعندما تجيء إلى أحضانك
فهي تتمسح في قدميك
آه يا أعظم الرجال
إن الصحة والحياة
عندما تعـود إلى

« من الشعر الفرعوني »

قبل أن أعترف!

رواية

فتحي الرملي

فى ذكراك الثانية

إليك يا حبيبى . .

إليك يا غالى . .

إليك ياحبى العظيم ، وذلى العظيم ، على هذه الأرض . .

٢ / ٦ / ١٩٧٩ زوجتك

عبلة فهمى

تنويه

اعتذر بشكل خاص للسادة الذين وردت أسماؤهم فى هذا الكتاب ، إذا كان قد حدث تغيير فى ظروفهم أو أماكن عملهم .

فالمؤلف لم يعد يعيش بيننا . . ولم أستطع — شخصياً — أن أغير كلمة ، أو حرفاً . . من كتابه الذى انتهى منه قبل بضعة أعوام ، فمعـذرة !

جميع المراسلات الخاصة بالكتاب ترسل الى ص . ب رقم ٦٨٩ مصر

قبل أن أعرف

أعتقد أن الإنسان يقدم على ترجمة حياته ، أو كتابة سيرته الذاتية فى حالتين ، أن تكون تلك الحياة حافلة بالإنتصارات ، وزاخرة بالأمجاد التى يسعده أن يفاخر بها . . أو أن تكون حياته مليئة بالتعاسة ، يلازمها سوء الحظ وتصاحبها النكبات وتتوه بقايا الطرق المسدودة ، والفشل المتكرر العنيد يتشبث بها كأنه المرض الملتصق أو كأنه القدر المحزون . . وهذا النوع الأخير هو الذى دفعنى اليوم الى الكتابة فى موضوع أعرف مدى الحرج فيه . . إن المطلوب الآن منى هو أن أتجرد من ثيابى ، بل من شئ أكثر . . أن أتجرد مما أضفيته على نفسى — ككل الناس — من طلاء زائف . . ومما وضعته على وجهى من أقنعة ، من أجل أن أبدو فى « الشخصية » التى رسمتها لذاتى فى الحياة .

وعندى أن كل إنسان إنما هو فنان أصيل من هذه الناحية . . يظل يتأمل الناس والعالم من حوله ، ويخلق فى ذهنه — من مجموعهم — الصورة التى يجب أن يكون عليها ثم يظل يجرى عليها التعديلات التى يراها ، والرتوش اللازمة حتى ، يصبحها ، بعد أن تكون قد إستقرت فى نفسه مع الزمن ، وأصبحت هى النسخة « الأصلية » . وعندما يلتف حولها المعجبون بها يلتقطون منها نسخا . . يضيف إليها كل منهم ما شاء أن يضيفه من ملامح أخرى . . وهكذا تمضى بنا الحياة .

ولقد طالما قلدت كثيرين أعجبت بهم فى حياتى . . وطالما قلدنى كثيرون أيضاً فاعتبرت تقليدهم لى نوعا من المديح ، وضربا من التكريم يفعله المقلد فى غفلة من وعيه ، اذ أن النفس البشرية تهرب من مواجهة حقيقتها ، وكنت بدورى أحاول أن أبدو لأولئك المقلدين وكأنى لا أراهـم ، ولا ألتفت إلى محاولاتهم تلك حتى لا يضمرون لى ضغينة أو موجدة . . فالتقليد عملية تنطوى على سرقة ، سواء كانت عفوية أو مقصودة ، لكنها سرقة خفيفة مشروعة ومقبولة ،

فثلا إذا كنت أديبا فستكون ولاشك قارئا لعـــدد من الكتب وربما فتنك واحد من المؤلفين فى لفظ أو تعبير ، فإن لم تقم هنا بعملية السطو على بعض انتاجه عن قصد ، اختزن ما أعجبت به فى ركن من ذاكرتك .. وانتظر حتى يظهر فجأة دون أن تنتبه له ، ويجرى به قلمك على الرغم منك .

وما يقال عن اللغة ينطبق أيضاً على الفكرة التى تعجبنا ، فنقتبسها ، طبق الأصل أو نردد شبيهها ، إذا كنا نتهيب حرفية التقليد ، أو أنها تختلط أو تمتزج مع غيرها من أفكار شبيهة لها ، أو نماذج منها ، أو أن توحى لنا بالفكرة المضادة لها مثلا إذا لم تكن لدينا جرأة ، كبار المقلدين ، وأخشى أن أكون على الرغم منى - قد عبرت عن ذاتى بهذا الكلام ، وربما أكون قد استدرجت نفسى إلى الاعتراف من أول صفحة فى محضر التحقيق الذى أجريه الآن فالبعض منى يقوم بدور المحقق ، والبعض الآخر بدور المتهم .

لقد شرعت فى السطو على بعض الإنتاج الفكرى لوالدى .. ولشقيقى الأكبر مصطفى .. هممت بنقله ونشره فى الصحف باسمى ، فأنا أشطب هذا من تاريخى ليس لأن الجريمة بسيطة ولا طلبا للعفو باعتبارى كنت صغيرا أو طفلا فى العاشرة أى دون سن المسئولية وكذلك ليس أصراراً منى على حذف السابقة الأولى لصحيفة سوابقى ولكن لأن الجريمة لم تتم — لا لسبب خارج عن إرادتى بل أننى تراجعت عنها بدافع من ضميرى ورغبتى فى أن أبقى نظيفا مدى الحياة .

ومن يدرى فلعل هذا الازدواج فى الدور الذى أقوم به ، يجعلنى أشفق على الشخصيتين فى وقت معا ، فالمحقق يشفق على المتهم القادر أو العاجز .. المدرب على التخلص من مزنقات المحققين بالتغطية اللفظية وبالبراعة فى المناورة والقدرة على مواصلة الانكار .. هذا المتهم هنا — وهذا من غرائب الأشياء — يشفق على المحقق أيضاً ويقرر فى لحظة عطف أن يسهل عليه مهمته ويقرر الإعتراف

وهو لاينسى أيضا أن يطلب إلى قاضيه — أى القارىء — أن يقدر ظروف اعترافه ، ويعفيه نهائياً من مسئولية أخطائه .. كلا .. أنى لا أستسيغ هذا المبدأ فى الإعفاء الكامل ويكفينى .. ويرضينى أن يستعمل القارىء معى الرأفة .. وإن احكمكم .. أعذركم الناس .

• • • •

ولكنى أقف قبل ذلك برهة لكى أقول أن هذه السيرة الذاتية لم تكتب مرة واحدة وإنما نشرت من قبل كذكريات مبعثرة بين مجلة الاثنين ومسامرات الجيب والحوادث ، ونداء الوطن فى فصول متل ، تنكرت فى زى هـــؤلاء ، وبوخت البوليس ، كما كتبت فصولا منها فى المجلات العديدة التى كنت أعمل بها .. آخر ساعة ، وروز اليوسف ، والشعلة ، والمرية ، وفى المعارضة والبشير والمستقبل والتعاون ، والانذار وأخيراً فقد جمعتها وربطت بينها بقدر الامكان ، كما أننى استسمح القارىء إذا كنت قد تكلمت كثيراً عن نفسى وشخصى ، حتى لقد يقول البعض أننى ، نرجسى ، أى معجب بنفسى كما يقول علم النفس وانتى وصفت بعض أعمالى بالبطولة ، وقد تكون لنفس هذه الأعمال أوصاف أخرى أبعدما تكون عن البطولة عند بعض الناس . ولكنى أترك الحكم فى هذا القارىء .. فله أن يقرر هل كنت أسير فى خط واحد طول حياتى منذ الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة أم أننى رسمت لنفسى صورة اتضح فيها بعد أنها ليست لى ؟

والآن هل أبدا بسرد قصة هذه الحياة التى عشتها .. والله يعلم أننى صادق فى كل ما أكتبه .. ودقيق فى كل ما أرويه .. وهذا حسبى وهذا عزائى عما أكون قد أخطأت فيه على الرغم منى ؟ .

وأخيرا .. هل أنا رجل اجتماع وثورة وسياسة ، أم أننى رجل فن وشعر وخيال ؟ وهل كنت أصور رجل السياسة الثائر وأحاول تفكيكه من لاشىء .. بلا خامات وأدوات استعين بها ، فلا أجد سوى نفسى نموذجا أحاول أن ارسمه من جديد وبألوان مبتكرة لأعطى لنفسى ملامح ، السياسى الثائر ، الذى أريده

« مخلصاً » جديداً يحمل على كتفيه خطايا الناس ، ويمضى بها إلى حيث يكفر هذا الإثم ، ويحولها بالحب والتسامح إلى حياة أخرى أكرم وأجمل ، فيها الخلود وفيها السعادة الأبدية ؟ أم هل كانت بالفعل رجل اجتماع وسياسة ينظر إلى الفن كبعض أدواته وأكبر وسائله إلى تحقيق أهدافه ، والتمكين لأغراضه ؟

وربما كانت هذا أو ذاك ، انى لا اعرف على وجه التحديد .. وهل يعرف الإنسان نفسه ؟ .. لقد كانت تلك هى دعوة سقراط (اعرف نفسك) ولازلنا منذ خمسمائة سنة قبل الميلاد — ونحن نحاول .. وما العلم ، وما الفن ، وما الفلسفة إلا بعض ما نحاول ربطه وتجميعه فى ذلك السبيل .. ان نحاول معرفة نفوسنا ولا اظن أننا بعد ، نستطيع !

هذا ما اعترف به قبل ان ابدأ سيرتى الذاتية ، وليعذرنى القارىء اذا كشفت عن بعض الأشخاص الذين مروا فى حياتى ، حتى أجعلهم شهوداً احياناً على حقيقة اقوالى ، وليعذرنى ايضاً اذا اتعمدت اخفاء اسماء ، اخشى على اصحابها مسئولية معاونتهم فى جرائم ارتكبتها حتى لايضاروا أو يحرجوا ، لقد أغفلت اسماءهم ، كما أغفلت بعض القصص حفاظاً على اسماء اصحابها ، فليس من حقى ان انبش قبورهم ، او اهتك اسرارهم !

المتهم العمومى

كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ..

صبيا شديد الغرور ، لا أكاد أعترف بعمرى .. وأن لم أكن إدرك كثيراً أو قليلا من تلك المعارك العنيفة التى تدور رحاها على صفحات « الجهاد » و « الشعب » أو « الصريح » و « الكشكول » .

لكن اذنى كانت تلتقط من أفواه الناس على كل حال ما يكفى لأن أكون صورة للموقف .. فالكل إذ ذاك كان يشتغل بالسياسة .. عبد السلام المكوجى يتصيدنى كلما مررت عليه لأقرأ له خطبة الأستاذ توفيق دياب .. !

والاسطى دسوقى الحلاق لايتسلم رأسى مرة حتى يروى لى فى أسف كيف حاول صدقى باشا الإعتداء على الرئيس الجليل ! والشيخ رمضان المقرىء الكفيف لايكاد يتربع على « الكنبة » فى منزلنا حتى يحدثنا عن « الاستخارة » التى عملها ليلة أمس ، وتأكد بعدها أن دستور ٢٣ سوف يعود !

وكلما مرت الإيام كان التيار الشعبى الجارف يعبىء حماسى لأشياء لا أكاد أعرف عنها شيئا .. الأغلبية .. الدستور .. البرلمان ! على أن هذه المعانى — رغم حماسى لها — لم ترسب إذ ذاك فى أعماق نفسى ، ولم تمتد لها جذور فى وجدانى ، فلم أكن بعد قد فهمت شيئا أو قرأت حرفاً واحداً يشرح مضمون هذه الكلمات !

وفى مطلع عام ١٩٣٣ وقع لى حادث أطفأ شعلة الحماسة للوفد ، أو ما كان متبقيا منها فى قلبى بتعبير أدق !

ففى أحد أركان نادى الشبان المسلمين بالمنيا، وجدت «كومة» من جريدة «الصرخة» وقد صدر ذلك العدد من صفحة واحدة على صورة منشور يحمل رناتها الجامعة «مصر الفتاة» ودعوة حارة للشباب .. الجيل الجـديد الذى سيحقق ما فشل فيه الجيل القديم !

واستهوانى من الدعوة أسلوبها الملتهب، وملأنى حماسا لها ذلك النداء الآخر الذى يخفق بين سطورها .. النداء الذى يخاطبنى شخصيا بوصفى «أحد» أبناء الجيل !

ولم يلبث توزيع جريدة «الصرخة» أن اصبح جزءاً من برنامجى اليومى وكانت عملية التوزيع هذه تفيدنى حقاً، لا لأنها تعلمنى الصفاقة — وهى صفة لابد منها لمن يشتغل بالسياسة ! — بل وأيضاً لأنها بدأت تخرجنى من عزلتى .. من فتى خجول منطو على نفسه، إلى فتى جرىء يواجه الناس ببساطه .. ومن فتى قليل الكلام، قليل الاهتمام بالسياسة، إلى فتى مجادل «مزعج» إذا أبداً يتعصب لرأى من الآراء !

فى ذلك الوقت، عانيت كثيراً من محاولاتى العديدة لاطلاق شاربى حتى أقنع الناس جميعاً بتصدر هذه الدعوة الجديدة فى بلدى، وكانت أعز أمنياتى أن يصدق الناس وقتها أننى بلغت السادسة عشرة !

وفى الرابع والعشرين أو الخامسة والعشرين من عمرى، أو بتعبير أدق من سنة ١٩٤٤ إلى سنة ١٩٥٤، لا أكاد اعرف قضية سياسية واحدة قد خلت من اسمى !

قضايا الإرهاب وقضايا الشيوعية، وقضايا التآمر لقلب نظام الحكم بأية وسيلة وبدون وسيلة ! وقد أصبحت وجها مألوفا لدى أكثر رؤساء النيابة جميعاً، كانوا يعرفوننى شخصياً من كثرة ما حققوا معى وسألونى .. بل اننى أذكر

النائب العام الذى استدعانى يوما ليبلغنى شكوى حكومة النقراشى باشا منى، فبادرته بشكواى عند حكومة النقراشى باشا ! وقلت له يومها فى سخرية مريرة وأنا فى ثورة غضبى .. لعلى عينت عندكم فى وظيفة المتهم العمومى ؟ .. فابتسم وقال .. هذه فعلا أنسب تسمية لك .. قلت معقبا .. إذن أكتب لى مسوغات التعيين لتمهدوا الى بكل اتهام لاتجدون له متهما وأنا .. أكتب لكم إعترافاً كاملاً على .. ولنتفق مقدما على الأجر .. هـل يعجبكم المرتب الثابت ؟ .. أم تفضلون أن تدفعوا لى بالقطعة ؟ .

وابتسم سعادة النائب العام — محمود منصور باشا فى تلك الفترة — ولاذ بالصمت، بل وحاول مسح الإبتسامة التى كانت تستقر على شفتيه لزوم الوقار الذى يحتمه عليه المنصب !

وكان «البوليس السياسى» يسبق النيابة إلى إعتقالى، فهو المسئول عن تقديم «الوجوه الجديدة» إلى النيابة، بعد أن يفتش بيوتهم، ويخرج منها صفر اليدين، إلا من بعض كتب ومؤلفات، تغمر السوق !

هكذا اتهمت فى جميع القضايا بلا استثناء .. من أول القضايا الشيوعية «الخبز والحرية» و«الشيوعية الكبرى» و«الترويج للمبادىء الهدامة» ! إلى كثير من قضايا الإرهاب، وإلقاء القنابل بالجملة والقطاعى !

وفى مقدمتها قنبلة سينما مترو .. وقنبلة سينما ميامى ! كما اتهمت فى قضايا الاغتيالات، ومنها قضية الإعتـداء على سيارة الرئيس السابق مصطفى النحاس باشا، وفى تنظيم عصيان مدنى ! بتحريض العمال المتعطلين على الأكل فى المطاعم العامة دون أن تدفع ثمن الوجبات حتى جاءت النيابة وأفرجت عنا بلا كفالة ولا ضمان .. إلا أنهم وجهوا إلينا نصيحة بعدم الرجوع إلى هذه الجريمة، والتى لم يصدر بها تشريع إلا بعد أن نفذناها ! هل يحق هذا .. كلا .. لقد حاولوا

إتهامنا بالتمرد ، ومحـــاولة تكدير السلام ، ونشر الإشاعات الكاذبة . . الخ . . الخ . .

وسأحاول أن أكتب كل هذا ، وهو كثير في أقل حيز ممكن حتى لا أفوت على القارىء فرصة التجول معي في هذه السيرة الذاتية الطويلة ، والتي عشتها دون أجنى منها سوى هذا الكتاب ! .

والآن ، إليكم إعترافاتي بالتفصيل !

النسب الشريف

إسمي محمود فتحي ابن عبد الله فكري ابن محمد زكي ابن مصطفى محرم ابن محمد ابن السيد أحمد ابن السيد شمس الدين الرملي الحسيني . . وشهرتي « فتحي الرملي » و « الرملي » هو اسم جدنا الكبير ، وقد عرفت مما نشرته الدكتورة سعاد ماهر استاذة التاريخ الإسلامي في الجامعة ، أن جدنا المدفون في ضريحه الأثري في مسجده المعروف باسمه بشارع الرملي بميدان باب الشعرية ، هو الإمام شمس الدين الرملي من أكبر علماء عصره وكان استاذا للإمام الشعراني نفسه ، ومن هنا كان فخر والدي واعتزازه بالنسب الشريف إذ أن الإمام الرملي كان من احفاد شهيد كربلاء « الحسين » رضي الله عنه ابن الإمام علي ابن أبي طالب من السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان اعتزاز والدي لانتساب سلالتنا إلى الشجرة النبوية الشريفة يتجلى في شيئين ، الأول . . حرصه على استلام عشرة قروش من نقابة الإشراف هي كل ميراث حياتي . . والثاني . . اهتمام والدي باستخراج صورة لشجرة العائلة من واقع سجلات الإشراف لكي يضعها في اطار مذهب يعلقه في ابرز مكان بمنزلنا .

أذكر كل هذا وأنا استعرض شريط حياتي وابحث عن المنـــابع الأولى لاتجاهي في الحياة . . فقد كنت وأنا طفل اعجب وأتساءل من أين النبي الكريم هذا المال الذي ورثناه ، لقد كان صلى الله عليه وسلم فقيرا ، وكان عليه الصلاة والسلام يقـــول (رب احيني مسكينا وامتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين) .

لذلك بقيت صبيا وشابا أبحث عن سر هذه المبالغ الضخمة التي تركها النبي

والتى تحولت على مدى ألف وأربعمائة سنة إلى عشرة قروش توزع على ألوف وملايين المستحقين وكانت فى عهد نقيب الإشراف الأسبق السيد عمر مكرم تصل إلى سبعين ، بل وتسعين قرشاً .

ولم يرتح لى بال .. إلى أن كبرت ووجهت عنها سؤالا إلى المرحوم فضيلة الإمام مصطفى عبد الرازق ضمن حديث صحفى ، فقال رحمه الله ، أنه منذ عهد الصحابة ومن إليهم كان الأغنياء منهم يكتتبون بأموالهم ويوقفونها على أهل بيت رسول الله ، تكريماً للنبى العظيم فى ذريته وتأميناً لها من العوز والإملاق ..

وكان هذا الموضوع — موضوع المعوزين والمساكين — هو شغلى الشاغل وأنا بعد فى دور الطفولة ، وكان مادة خصبة تنطلق منها خيالاتى ، ولعل مما ساعد على إلتهاب وجدانى وإحساسى المرهف أننى منذ بدأت أعى ما حولى كانت ثمة قصة تلح على أذنى وتفرض نفسها على فرضاً . ذلك أن مأمور الضبطية هاجم بيتنا وفتشه فعثر على مجموعة من الخطابات بخط وتوقيع الثائر الوطنى الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله موجهة إلى والدى عضو الحزب الوطنى ... ولا أعرف تفصيلات ما حدث بعد ذلك إذ ذاك ولكن المهم أن والدى فصل من عمله وأدخل السجن فى حادث اغتيال بطرس غالى باشا بواسطة الوردانى ، وعندما برىء وخرج من سجنه لم يعد إلى عمله ، بل عين فى وظيفة معاون إدارة وكانت تقل كثيراً من وظيفته الأولى وذلك فقط رحمة بأولاده وكانوا كثيرين إذ كان أبى إلى جانب اهتماماته السياسية ونشاطاته الأدبية، مزواجاً كثير العيال[1] وكان فناناً أيضاً ، إذ كتب أول دراما فى تاريخنا الأدبى .. مسرحية مكتوبة بالسجع عنوانها ، العناد والقهر فى دخول الفرنسيس مصر ، ولعلها لا تزال فى بيتنا حتى الآن . وقد مثلتها فرقة فاطمة قدرى فى تلك الأيام البعيدة .

---

(١) انتقل منهم إلى رحمة الله ١٢ بنتاً وولداً ..

ولنعد إلى الحديث عن الوالد ... وكأنما كان رحمه الله يكفر عن ذنوبه فى سنواته الأخيرة قبل الوفاة كأغلب الناس ، ولعله أيضاً كان يودع دنياه بعد أن شبع منها أو يئس منها فأقبل على التصوف ، وأسرف فى زيارة الأضرحة ، وكنت أصحبه عادة فى بعض تلك الزيارات ، ولفت نظرى أنه كان يتردد كثيراً على مقام الإمام على زين العابدين ولاحظ مرة أننى أتبرم على هذه الزيارة التى عانيت منها طويلا بسبب وعورة الطريق وكثرة مطباته .. فقال لى وهو يربت على خدى ، أنه جدك ، فقلت يوما : كلما زرنا الحسين رضى الله عنه قلت لى أيضاً أنه جدى .. فضحك رحمه الله وقال ، وهذا أيضاً جدك ، ووجدنى لم أفهم .. فقال يقرب الموضوع إلى عقلى الصغير ، أنه على زين العابدين أحد أبناء الحسين ، وهو فرع من الشجرة النبوية الشريفة ويعتبرونه آخر إمام وسيط على ابن أبى طالب كرم الله وجهه زوج السيدة فاطمة الزهراء وكان على زين العابدين يختفى عن الناس والمريدين شهوراً وأسابيع ، ولا يظهر إلا للفقراء والمعوزين والمرضى وذوى العاهات .. يظهر لمن هم فى حاجة إلى مواساته لهم ، وعطفه عليهم ، يحضر لهم بالدواء الشافى أو الطعام الكافى حين تمر عليهم كلمة حب طيبة من كل أنحاء وحتى بعد إن مات ظلوا يرددون أنه حى ، وأنه يظهر لأحبائه المساكين ، كلما ادلهمت الخطوب وأحاطت بهم النكبات ، ويؤكدون أنه لن يلبث أن يعود ليجفف دموعهم ويجبر كسورهم .... ويعالج مرضاهم ، ويضمد جراحهم ، ويرحمهم من عذاب الجوع والحرمان والضعف .....

ورأى والدى قد انفعلت بهذه الصورة ، وتأثرت كثيراً بها ، فقال ليزيدنى انفعالا .... أنظر ماذا ترى حول ضريحه العظيم ؟ .. هاهم مئات المرضى والصرعى والمشوهين ، هؤلاء الفقراء الذين يصرخون من فرط آلامهم ، أو من فرط الوله ينتظرون عودة الإمام الغائب على زين العابدين وسألت أبى متعجباً ، أليس الإمام زين العابدين مدفوناً فى هذا الضريح لقد مات ، ولن يحضر بالطبع ...

ورد أبى وقد طفرت من عينه الدموع ، سيحضر يا إبنى فى شخص عشرات

بل مئات من الذين تأثروا بسيرته ، ويقومون منه بهذا الواجب ، ولا عجب فقد كان الإمام الثالث والأخير في المدرسة العلوية . . لا تنس يا فتحى . . وعدني أن تزوره ، ولو مرة في كل عام لتقدم بعض الهدايا لأولاء الفقراء الذين يلوذون ببركاته . . .

وطوتني دوامة الحياة وشغلتني عن وصية أبي ، ولكن الصورة التي أودعها بقيت تشغل خاطري وتملأ قلبي ، حتى إلتقيت يوماً بالفيلسوف الإسلامي المغفور له طنطاوى جوهرى ، وكنت أبحث معه أيام الشباب ساخراً ولا حضر مع شقيقي الأكبر مصطفى عرم بعض جلسات تحضير الأرواح التي يعقدها ، واسمع عن النظريات القديمة والحديثة في تناسخها ، فقال رحمه الله وإن الفرق الهيمية ، كانت أول من قال بالتناسخ والحلول ومن أشهر من قيل فيه الكثير من التناسخ على زين العابدين . .

وكنت قد نسيت الإسم الكبير — سامحني الله — فقلت له متعجلا ، لقد كان جدى ، ورويت له قصة أبي ، فسألني عنه وكان يعرفه ، فقلت ، لقد مات . . . واستطردت أحكي له كيف مات في المنيا بعد أن فقد ذاكرته تحت وطأة الشيخوخة وما مر به من أحداث ، جعلته يلجأ في أواخر أيامه إلى التصوف فلا يكاد يغادر صومعته التي تحصن بها واعتكف فيها عن الناس لا يغادرها إلا ليلا ، حتى جاء يوم اختفى فيه تماماً عن الأعين قبل وفاته بأسابيع . . كما اختفى شقيقه توفيق من قبل وكما اختفى أيضاً جد أجـــداده الإمام على زين العابدين . .

لذلك عشت طول عمرى أهتم بالقراءة والحديث عن التناسخ حتى بعد أن آمنت بالفلسفة المادية ، وتجردى عن الخرافات أيا كانت فلا علم لنا حتى الآن بالروح ، التي هي من أمر ربي ، فما بالك بتناسخها وانتقالها من وعاء إلى وعاء ، أو من جسد إلى جسد . .

المهم أني في انتظار ما يكشفه لنا علماء الميتافيزيقا . . وقد قرأت في بعض الصحف أن فريقا منهم في الإتحاد السوفييتي ، أوشكوا أن يصلوا إلى حقائق هامة في هذا السبيل لم يعلنوا عنها بعد ، فلن يطول بنا إذن الانتظار .

باختصار تلك هي ظروف « توريثي » وتلك كانت مـــدرسة الضغط التي تعلمت فيها طفلا ، وهذا لا أنسى أمي المرحومة السيدة « آمنة » بنت فضيلة الشيخ حسين سليمان ، مفتى الديار المصرية عن الصعيد ، كما كان الحال في ذلك الوقت وكانت شغوفة بالاطلاع ، وأذكر أنها كانت تحـــدثني عن أهم ما يصادفها في الكتب والصحف وكانت تقرأ للعائلة كلها فصولا من كتاب « صراخ البرىء » وهو كتاب قـــديم مزين بالرسوم التوضيحية يروى قصصا تاريخية حقيقية عن حوادث خطف المسلمين والمسيحيين هم وأولادهم بواسطة اليهود وذبحهم في عيد الفصح لعجن القرابين بدمائهم بعد تصفيتها من أجساد الضحايا . . إذ أن هذا كان بعضا من عقيدتهم الدينية كما جاء في التلمود .

وكان إهتمام أمي الثاني بقضية المؤامرة الكبرى في أواخر عهد الثورة المصرية سنة ١٩٢١ وهي المعروفة بقضية « شفيق منصور وأولاد عنايت » اقرأها من مجلة اللطائف المصورة التي كانت تصدر في ذلك الحين ثم تزيد عليها بعض قصص الثورة تحكيها من ذاكرتها كقصة تلك الحادثة المعروفة في محطة ديروط والتي ذبح فيها الثوار بعض الجنود الإنجليز ، وكانت أمي تحرص وهي ترويها على أن تذكر أن ابن عم لوالدى قد أعدم بسبب اشتراكه فيها وهو مأمور مركز . . ولم تكن أمي متوحشة ، بل كانت رحمها الله إنسانة طيبة ، تذوب رقة وحنانا ، وقد ورثت عنها الثورة والإنسانية معا ، أو كما قد يحكم القراء في نهاية كتابي هذا ! وأواصل حديثي فأقول أن هذه الجسور الثورية في سياق قد امتدت يوما بعد يوم ، فقد أردت الالتحاق بمدرسة الفنون والصنائع بالمنيا وكنت أعرف — مما شاع بين طلبتها — أن الترزى الذى يتولى تقديم الحلة الكاكي ، يتقاضى خمسين قرشا . . .

رشوة من كل طالب مستجد لحساب الطبيب حتى ينجح في الكشف، وأخذت المبلغ فعلاً مني لتسليمه لتومرجي الخاص، ولكني ثرت على هذا الوضع، أو قل خجلت ولم أدفع الرشوة، وسقطت في الكشف الطبي طبعاً.. وحولت أوراقي إلى مدرسة المنيا الثانوية حسب رغبتي، ولكن بعد أسبوعين بالضبط نودي على إسمي وأبلغت أن الوزارة لم توافق على طلب المجانية — إذ جاء متأخرا عن الموعد المحدد لتقديم الطلبات.. وطردت من المدرسة، ثم عرفت فيما بعد أن مكاني شغله أحد أبناء العمد! وحولت أوراقي مرة أخرى إلى مدرسة الأقباط الثانوية، إذا كانت شروطها أيسر ومصروفاتها أقل، وكان من بين الشروط السهلة أن المدرسة تلحق بالفرقة الثانية بدلا من الأولى بعد إمتحان أسهل من تلك الشروط نجحت في كل مواده فعلا ما عدا اللغات فحددوا لي موعداً بعد ثلاثة أيام لإعادة الإمتحان ونجحت في الإنجليزية ورسبت في الفرنسية فحددت لي المدرسة موعداً لإمتحان آخر في هذه اللغة باعتباره ملحقا ثانياً فرسبت أيضاً، وحدد لي موعد ثالث لأدخل ملحقا جديداً — إذ أن معاون المدرسة رحمه الله اقتنع في النهاية بأنني لا أملك رسوم الملحق الرابع، وعند ذلك فقط نجحت في ذلك الملحق الثالث! ويطول بي الحديث عن المعاناة التي كابدتها في خطواتي الأولى في التعليم الثانوي حتى وضعت مباحث المنيا حدا لبقائي هناك، إذ تعقبني رجالها وأنا دون السادسة عشرة واستضافوني لديهم أربعة أيام ثم أرسلوني لمقابلة مدير المنيا بالنيابة — المرحوم إبراهيم «بك» فهمي السيد — وانتهت المقابلة العاصفة بترحيلي إلى القاهرة.. وكان المضطهدون ينفون من القاهرة إلى الصعيد، أما أنا فقد نفيت من الصعيد إلى القاهرة!!

ولكن، ماهي قصة هذا النفي وحكايته بالضبط؟؟

في الرابعة عشر من عمري ظللت أتأمل عيشة الفقراء وكلما قرأت شيئا عن المظالم التي يرسفون فيها، رحت أفكر في الطريقة التي يمكن تخليصهم بها من الفقر الذي يعانونه وراودتني هذه الأفكار.. ففكرت أن أعمل بالتجارة لكي أجمع

ثروة كبيرة جدا، أقوم بعد ذلك بتوزيعها على الفقراء.. وتصادف في ذلك الحين أن قرأت مقالا عن الكاتب الروسي الكبير «تولستوي» وكيف فعل نفس الشيء من قبل، وكان كاتب المقال يسخر من الكاتب الروسي الكبير ويقول أنه لم ينقذ أحداً من الفقراء، وإنما كان كل ما فعله هو أنه أضاف إليهم واحدا هو تولستوي نفسه عندما فقد ثروته!

ثم قرأت بعض روايات «اللص الظريف» أرسين لوبين التي كانت منتشرة جداً وقتها وتأثرت بشخصية أرسين لوبين الخرافية التي تسرق من الأغنياء لتوزع ما تسرقه على الفقراء.. وتساءلت.. ولماذا لا أكون بدوري لصا شريفاً؟ وأحمد الله أنني عندما بدأت أفكر في التنفيذ وجدت إستحالة في تحولي إلى لص، وشريف!!

ثم مالبثت أن حلت محل اللص الشريف صورة أخرى هي صورة تحطيم الأشرار!! وكنت قد قرأت عن «الحسينية» معاقل الفتوات جهة العباسية والمعارك التي يخوضونها وضروب البسالة والقسوة التي يظهرونها وعندما قرأت عن فتوات الحسينية كنت كمن اكتشف الطبقة الثورية الجديدة! وكنت آنذاك أقضي الأجازة الصيفية عند أقارب لنا بالقاهرة، وفي لحظة حماس قررت ألا أضيع الأجازة سدى.. فذهبت إلى «الحسينية» واخترت مقهى يجلس عليه كثيرون وتأهبت لأجر حديث مع بعضهم ومصادقتهم، ثم عرض مشروعي بعد ذلك عليهم وإذا بأول صديق أحاول اصطياده يحاول هو أن يصطادني وقبل أن أفتح معه حديثي عن «عصابات الخلاص» كما كان في ذهني أن أسميها.. إذا به يحدثني عن تجمع يقوم به الفتوات لـ «فتح» دماغ أحد الخصوم ولعله

ومع الحسنية فى ذلك الوقت فيدين لنا أنصاره بالولاء ، وهى مغامرة — كما يقولون — لا يقوم بها إلا المجدعان . !

ثم استرسل « الصديق » فقال إن علينا بعد أن نفتح دماغ صاحبنا أن نركب إحدى البواخر المتجهة إلى أوروبا خلسة لنهرب من البوليس ، وفى فرنسا مثلا سوف نجد أى عمل لنعيش !

ولا أعرف ماذا كان يريد ذلك الرجل وهو أكبر منى سناً ، بل أذكر أن سنه كانت ضعف سنى . . ولعل الله أنقذنى منه ؛ إذ كان قد ختم حديثه السابق بأن طلب منى خمسة جنيهات فقط نستعين بها فى رحلتنا إلى باريس ولم أكن أملك هذه الجنيهات الخمسة و بالتالى لم أرحل ، ولم أعد إليه !

ولم يشغلنى هذا الحادث ، فقد كنت مشغولا بالفقراء وتخليصهم من فقرهم وقد خشيت أن يشغل برحيل مشروعى الأساسى ، ولا أجد فى فرنسا فقراء ، ولا أجد بها أيضاً ثورات ، فقلت أعزى نفسى : إن فقراء مصر أولى برعايتنا !

أرقام مخيفـــة

... هكذا إذن كنت مؤهلا للثورة والتمرد بحكم نشأتى ، وكأنى كنت على موعد مع تلك « الربطة » الضخمة من المنشورات التى عثرت عليها صدفة تحت أحد المقاعد فى نادى الشبان المسلمين بالمنيا ، ولفت نظرى إليها أنها كانت مرسلة من الأستاذ محمد صبيح ، وكان من بلدياتنا وهو صديق أخى حسين الذى يكبرنى بعشر سنين ، وكانت الربطة عبارة عن دعوة ملتهبة الأسلوب وموجهة إلى الجيل الجديد ، للكفاح عشر سنوات من أجل مجد مصر . .

وكان ذلك المنشور هو أول ما أصدرته جمعية مصر الفتاة لتعلن عن قيامها ، وهى امتداد لحركة مشروع القرش الذى كنت من متطوعيه ، وكنت من فورى بعمل للمنشورات ، وتوزيعها على المقاهى وبعد شهور قررت بدورى أن « أقلد » أخى حسين وأطبع منشوراً خاصاً بنا فى المنيا ، وقد أحسست منذ وزعت المنشور الأول وشكلت فرعاً لمصر الفتاة ، وما معه نفسى فوجدت أنى أصبحت مشغولا بلا عمل ، وكتبت المنشور الأول لنا بعنوان « أرقام مخيفة » وكانت الأرقام المقصودة ، والتى استخرجتها من بعض الصحف ، تتحدث عن عدد الأميين والمرضى ، والفقراء الذين لا يكن دخلهم الكفاف ولا يسد الرمق .

وخرجت لتوزيعه مع لفيف من أصدقائى طلبة المنيا ، ووجدنا رئيس المباحث — الشخصية المعروفة إذ ذاك فى البلد — وهو المرحوم اليوزباشى أبو زيد كمبد وان يجلس فى محل حلوانى فذهبت إليه فى زهو ، أو فى بلاهة ، ووضعت أمامه فى استخفاف نسخة من المنشور ، وما هى إلا برهة ، حتى وجدناه يجرى خلفنا ، ولا يكاد يقترب منا حتى يأمر بعض رجال الشرطة الذين تجمعوا على الأثر بالقبض علينا . . وأركبنا حنطوراً وذهب بنا إلى قسم البوليس حيث كان وكيل النيابة الأستاذ معروف محمد ينتظرنا ، وبدأ التحقيق فاعترفت

« بكل شيء . . . ونالعني المحقق في معنى المنشور والمقصود منه ؟ ورأى المحقق أن المتهمين أمامه مجموع من الصبية والفتيان لعل كبيرهم أكبرهم سناً ، وكان الرجل حكيماً فقرر الإفراج عنا في الحال . .

وخرجت وأنا في منتهى السعادة ، إذ ماذا يفعل الزعيم أحمد حسين — حفظه الله — أكثر من هذا ؟ . . كتابة منشورات ، والاعتراف بها بجرأة ، والدفاع عن نفسه بمنتهى الشجاعة ، وبطريقة في منتهى البراعة أيضاً إذ كان يجعل كل حركة يؤديها دستورياً فيزداد إعجابي به كمتهم قانوني ممتاز ولكن محضر التحقيق لم يكد يصل إلى مكتب النائب العام حتى رأى من خطورة المنشور ، إعادة التحقيق معنا بتهمة ترويج الشيوعية !

وعاد البوز باشي كدواني إلى بيوتنا يقبض علينا بالمنزل أمام النيابة مرة أخرى في قنا ، وقال وهو يفتح صفحة من قانون العقوبات ويقرأ منه المادة ١٧٤ التي تنص على أن كل من يروج علنا مبادىء من شأنها قلب نظام الحكم بالقوة والإرهاب والعنف يعاقب بالأشغال الشاقة . . . . الخ — إلى أن يصل إلى المادة التالية التي تنص على الحكم على رئيس هذه العصابة بالإعدام شنقاً . . . . وابتسمت متظاهراً بالاستخفاف ، ولكن الواقع إني أحسست أن المسائل أصبحت خطيرة ويجب أن يعمل لها حساب . . . وألف حساب !

وأعملت تفكيري بسرعة وتذكرت أن « حامد فكري » الطالب بمدرسة الزراعة وأحد المتهمين معنا من أهل مديرية قنا ، وأنه ابن أخ النائب العام في ذلك الوقت « يس باشا أحمد » فلماذا لا نستغل هذه القرابة في التخلص من ورطتنا ؟ ، ورتبت المسألة فطلبت إلى « حامد فكري » أن يتخلف من التحقيق فلا يحضر ، ثم يترك لنا الباقي . وفعلا سارت الأمور كما قدرنا لها فقد سألنا المحقق عنه وتركت غيري يقول أنه سافر فجأة إلى القاهرة ، ولما عاد وكيل النائب العام يسأل عن عنوانه ، تطوعت أنا فوراً بالجواب قائلا أنه سافر إلى عمه هناك ، وسألني وكيل النيابة وما اسم عمه وعنوانه ؟ قلت : أنه يس باشا أحمد

. . . النائب العام ولا نعرف عنوان بيته ! وتوقف القلم في يد الرجل لفرط المفاجأة ، ثم فكر قليلا — وظل يتأملني — ولعله أدرك أنه وجد عذراً أمام النيابة من حفظ الحق في الرتبة وأمر وكيل النيابة على الأوراق بعبارة فيها نوع من التشفي والتأنيب لمن أعادوا إليه التحقيق الأول ، ومؤدى العبارة أن المطلوب هو سؤال الأستاذ أحمد حسين في مصر عن هذا الحادث ، إذ أنا من أتباعه ، ولا شك أننا لا نعرف كيف نكتب منشوراً مثل هذا إلا أن يكون يتحرض من أحمد حسين أو أحد كبار رجال حزبه ، وليس من الصغار ذوى البنطلونات القصيرة !!

وقامت النيابة في القاهرة ، وفتشت بيوت زعماء الحزب ، وسئل بعضهم ووجهت إليهم تهمة الشيوعية أو الاشتراكية ، فقد كانت الاشتراكية في ذلك الحين تهمة ، فقد وصف منشوري بـ « الاشتراكية » ، كما اتهمني نفس الحزب أيضاً بتلك التهمة ، وهو يعلن في بيان رسمي تبرؤه من فعلتي ، مع رجاء وتحذير لشعب الحزب بألا تصدر أية منشورات إلا بعد الرجوع إلى قيادة الحزب.أما أنا.. فلم أعلم شيئاً مما حدث ، إلا يوم أصر « إبراهيم » بك عمي السيد ، على طردي من المدرسة — هكذا بلا سند من عرف أو قانون — فأخذني المختصون إلى البيت حيث جمعت ملابسي ، ومن هناك إلى المحطة ، حيث حجزت لي تذكرة سفر — بلا عودة — إلى القاهرة . والحق انني لم أعارض ولم أعترض ، لأني في تلك السن الصغيرة كنت استعذب الآلام ، وقد اعتبرت ان ترحيلي هو ذروة الدراما ، فها هو مدير الإقليم ينفيني ، كما نفى الخديو توفيق الزعيم جمال الدين الأفغاني من مصر إلى إيران .. ولعلي أيضاً في تلك السن كنت أربط بين سفر الأفغاني إلى إيران وتوليه الوزارة بعد أيام ...

ولكن ما أنا وصلت إلى القاهرة فلم أجد مجداً ولا وزارة ، بل وجدت توبيخاً مستمراً من أخي الأكبر الذي تولت عنده ، على هذا الأسلوب الطائش ... ومن أقاربي جميعاً الذين استنكروا اشتغالي بالسياسة دون الدراسة .. وحتى حزب مصر الفتاة ، ما كدت أدخله حتى وجدت إعلاناً في زحمة الإعلانات

يقول أن « المجاهد فتحى الرمل » قد أوقف عن نشاطه كعضو فى الحزب لمدة ثلاثة شهور عقاباً له لطبعه منشورات بدون إذن ولا تكليف . وتركت بيت أخى بل وهجرت أهلى جميعاً ، واستأجرت حجرة متواضعة فى حى السيدة زينب ولم أكن أقابل أحداً فى تلك الفترة ، ولكن حدث أن التقيت بأحد الأصدقاء صدفة ، فأبدى دهشته صائحاً « أنت خرجت من السجن » .

وفى ذلك اليوم عرفت أن البوليس كله يبحث عنى ، وأن منزلنا فى إيتاى البارود قد فتش كما فتشت عزبة أحد أقاربنا بمركز أبى المطامير ، وأن بيت أخى أيضاً فتش ، وضبطت فيه بعض الأوراق « الهامة » وأن أخى نفسه سئل فى النيابة عن هذه الأوراق الهامة ، وكان فى كل ذلك ما يفسر سؤال ذلك الصديق ، إذ كان قد استنتج مع أخى أننى قد اعتقلت فى أى مكان ، وأننى لا أزال رهن التحقيق ، إذ كانت قد وضعت فى ذلك الحين محاولة لاغتيال شخصيـــة سياسية كبيرة هى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت .

وروعنى ضميرى إذ كيف أكون سبباً فى إزعاج أبى وإخوتى ، وأهلى على هذا النحو ؟ ولم يكن لى من عزاء إلا أننى لم أكن أعلم ، وذهبت فى الحال إلى دار النيابة العامة فى باب الخلق كى أسلم نفسى ، ولكن البوليس الذى يحاصر المحكمة ظل يمنعنى من الدخول ، بل من الاقتراب من النيابة ، حتى عندما قلت له إننى « مطلوب هنا » وأخيراً جاء الفرج على يد أحد ضباط البوليس السياسى هو « حلمى شعير » الذى ما كاد يلاحظ المشادة التى دارت بينى وبين الشرطة حتى جاء يستطلع الأمر ، ولما عرف حقيقة الأزمة وسألنى عن إسمى اصطحبنى ودخل بى إلى النيابة ، ولم ينس أن يطلب إلى أن أذكر فى التحقيق أنه هو — اليوزباشى شعير — الذى ضبطنى فى الشارع وعرفنى واعتقلنى بنفسه !

وكانت ظروفى مع ذلك التحقيق بالغة السوء فأنا فى نظر المحقق هارب من وجه العدالة وأنا باعتـــرافى صديق للمتهم الأول فى القضية — عز الدين عبد القادر حفيد عرابى باشا — وأمام المحقق أيضاً تقرير من مباحث البوليس عن

ظروف طلاقى بتدقيق مفرط ، ضبطت بجوار مسكنى هناك ورسالة من أخى الأكبر يقول لى فيها بالحرف الواحد :

(ولقد مايدهشنى أن أسمع بما اعتزمته أخيراً . إن مجرد التفكير فى هذا هو طيش وهوس يدفعك إليه عقلك الذى هو فى طريق التخريج بعد . .) .

وقد قدم لى المحقق هذه الرسالة بعد أن وضع خطوطاً بالقلم الأحمر تحت هذه العبارة وطلب إلى تفسير المقصود منها ، ولما لم تسعفنى ذاكرتى قلت له — سل أخى فهو كاتبها وربما كان يذكر عنها مالا أذكره أنا . .

وطالت إقامتى فى السجن ، وكان زملائى فى الدور الثانى بسجن الاستئناف كثيرون ، أذكر منهم السادة فتحى رضوان الذى أصبح رئيس الحزب الوطنى الجديد . . والدكتور نور الدين طراف الذى أصبح وزيراً للصحة يوماً ، والأستاذ محمد صبيح سكرتيرا الحزب ، وحسين يوسف الذى أصبح فيما بعد رئيساً لجماعة شباب محمد ، والأستاذ إبراهيم طلعت الذى أصبح من أعضاء الهيئة الوفدية ، والمرحوم حادة الناحل المحامى الذى أصبح عضواً بارزاً فى الهيئة السعدية . . وقد لقبونى جميعاً بـ — فتحى الرمل الاشتراكى ، ولعل هذا الإسم يعود إلى أيام كنت أعمل سكرتيراً لتحرير جريدة « مصر الفتاة » وبدأت ألاحظ أن « دعوتنا » لا ترتكز على أساس فلسفى واضح ، فالأستاذ أحمد حسين يدعوا إلى القوة وإنشاء مصانع السلاح فى صفحة ، وفتحى رضوان — فى صفحة مقابلة — يدعو للمقاومة السلبية ! دعوتان متعارضتان على طول الخط ، ومع ذلك فالزعيم ونائبه ، لا يختلفان مطلقاً حول الفلسفتين ، وإن اختلفا لأسباب أخرى لا تمت إلى المبادىء والفلسفات بصلة !

وكان طبيعياً أن أحس بالحيرة والإرتباك والقلق إزاء الإتجاهين ولعل هذه

الهوة المذهبية بالذات هى التى بدأت تقتلع من نفوس شباب تلك الحركة الإيمان بها ، ولكن — ربما لأنهم لم يجدوا طريقاً ثالثاً يسلكونه — كانوا يعودون من سخطهم وحدتهم فى صورة تشيع لبعض زعماء الجمعية ، أو محاربة البعض الآخر !

وكنت أحد الذين وقعوا فى نفس الخطأ ، فقد خيل إلى ذات يوم أن انتخب زميلاً بعد مرور سوق بعض الهتكة . . وخطر لى أن أنظم الساخطين من الشباب الذين هم فى مثل سنى ، ويبدو أن الفريق الذى كنا نحاربه أحس بما نحمله من شعور ، فأخذ يحاربنا . . واتخذ من المنشور الذى وزعته فى المنيا وحقق معى فيه سبباً لاتهامنا بالإشتراكية !

وكانت الكلمة غريبة على أسماعنا ، ولم نكن نعرف من الاشتراكية كثيراً أو قليلاً ، وبالتالى فقد أصبحت النسبة شارة تميزنا ، وتلفت النظر إلى هذا التكتل الجديد !

لكن الاتهام كان له أثر أبعد مدى أيضاً من كل ذلك ، فقد أصبحت شغوفاً بدراسة هذه الاشتراكية التى يصفوننا بها ، فربما كنت إشتراكياً دون أن أعرف !

إننى أتساءل الآن وأنا أنظر عبر كل تلك السنوات إلى أول شبابى ، هل كان لهذا اللقب « دور » فى رسم خريطة حياتى ، وهل كان هو المسئول عن « الثائر » الذى أصبحته ، وعن اتجاهى لدراسة الاشتراكية دراسة عميقة جادة عقب خروجى من السجن ؟

ولكن ما هى هذه الجماعة التى أخرجت هذا العدد الكبير من الشباب الثائر ؟ ظهرت جماعة مصر الفتاة سنة ١٩٣٢ كالنبات الشيطانى من خلال مشروع القرش فوجدت أرضاً خصبة من جموع الشباب الذى يلتهب حماسة ورومانتية ، فاستطالت بسرعة كشجر اللبلاب قبل أن تمتد لها جذور عميقة ، وكان الشعب قد أصابه

الغثيان من طول الصراع المرير على كثرة معاركه وسياساته ، بين فريق يميل إلى الأتراك والامبراطورية العثمانية ، ولو بحجة الاستعانة بهم على الإنجليز ، وفريق ينافق الإنجليز والامبراطورية البريطانية ، ولو بحجة الاستعانة بهم لتحقيق السيادة المصرية والاستقلال !

وكانت « البورجوازية » المصرية قد إستردت على وميض النار الهادئة التى بقيت كامنة فى رماد الثورة العرابية بعد فشلها الظاهر سنة ١٨٨٢ ولم يظهر أوارها إلا بعد حركة زغلول باشا فى ثورة سنة ١٩١٩ ، ظهرت البورجوازية المصرية مع بخار تلك الثورة الجديدة وتحول نشاطها الفردى إلى نشاط جماعى ، فأنشىء بنك مصر وتعددت شركاته فى الإسكندرية وطنطا ومصر ، وانفتحت الطبقة الجديدة لصياغة فنية ، تبحث عن أساس تدعم به كيانها وتدق به الطريق أمام مستقبلها ، وجاءت حكومة صدقى باشا ليكفلها بالحماية الجمركية سنة ١٩٣٠ وبعد عامين أتاحت لها الظروف الملائمة جماعة مصر الفتاة فاحتضنتها منذ مولدها ، ولم يكن ذلك غريباً ومبادىء مصر الفتاة المنشورة تؤلف فى مجموعها دعماً جديداً للبورجوازية ، لا نشترى إلا من مصرى ولا نلبس إلا ما صنع فى مصر ، ولا نأكل إلا طعاماً مصرياً ، وكانت بالفعل دعوة مفيدة تسير فى نفس الاتجاه الذى تفرضه قوانين التطور التاريخى المادى ، وقد ساعد هذا على تحريك المجتمع وتغيير أساس تفكيره وزحزحة الفكر الإقطاعى إلى الوراء ليتقدم منه التفكير الصناعى ، فكانت مصر الفتاة فى الواقع طليعة البورجوازية المتقدمة حتى اصطدمت أثناء مسيرتها بقوى رجعية أعتى منها ، هى حزب الأحرار الدستوريين مثلاً . . فإن المرحوم محمد محمود باشا زعيم الإقطاعيين كان يحلم بالاستعانة بهم على هدم الوفد دون أن يعطيهم سوى بعض « الإكراميات » ليس بينها مقاعد فى الحكم ولا حتى مقاعد فى البرلمان وكان الوعى البورجوازى لا يزال هزيلاً ، فلا السعديين ولا الوفديين ولا السراى استطاعوا أن يحصروا هذه الطليعة ، أو يساندوها ، وبالعكس فقد ناصبوها العداء ، وظلوا على موقفهم منها ، يناوئونها ، ويتقاذفونها لتحقيق أهدافهم فقط ذات اليمين وذات اليسار ، ولم يحكموا توجيهها إلى الهدف كما فعلت الاحتكارات الرأسمالية فى أوروبا ، حين وجهت

مثل هذه الحركات إلى شبكة الشعوب المناضلة من أجل حريتها ، فقلبت موازين المباراة ، وبدل أن تنتهى بفوز أحد الفريقين . . . الاشتراكية أو الرأسمالية ، فازت الفاشية ، وعندى أن الفريقين أساءا اللعب فى مصر .

مثلا بالنسبة لمصر الفتاة . . . بقيت فترة طويلة جداً حركة غير مفهومة حتى بالنسبة لأعضائها أنفسهم . . تقرأ جريدتهم ، فترى أحمد حسين يدعو للعنف والوطنية المتعصبـــة مع ألفاظ القتل والدم والرصاص ، وتقرأ لوكيله فتحى رضوان فتراه يدعو للتسامح والحب والإنسانية ، وتقرأ لمحمد صبيح سكرتير الحزب فتجده عند زبانيه هنا . . . أنه لا يدعو للقومية المصرية ولا الفرعونية ، بل تراه يدعو للقومية العربية أو الإسلامية ، حتى وهو يتنقل بنشاطه الصحفى بين جرائد مصر الفتاة والرابطة العربية والمقطم وغيرها من الصحف والمجلات ، وتحس أنه يفعل ما يفعل بحرارة وحق . . . كل أصدقائه من العرب ، وكل معارفه من كبـــار المسلمين . . . ودعك من تناقض كل منهم مع نفسه ، فإن فتحى رضوان مثلا ، كان يمجد غاندى وحركته ثم يعود فيمتدح كلام موسولينى ويردد خطبه كالأغنية المفضلة ، وكان أعضاء الجماعة يطالعون هذه الآراء المتضاربة فيعجب البعض بهذا الاتجاه أو ذاك ، دون أن يستقروا على نظرية بالذات أو فلسفة بالتحديد . . . وربما لم يفكروا فى هذا وكان من نتيجة ذلك تلك النتيجة الشكلية ، أن يخرج الشباب ـ شباب مصر الفتاة ـ بلا « أيديولوجية » معينة بخلاف بعض الجماعات الدينية التى كانت تصب أعضائها فى قوالب واحدة ، كما كان الوفد أيضاً يصب أنصاره فى قوالب حزبية واحدة ، أما مصر الفتاة فلم تكن تربية كوادرها ، وتركتهم لاجتهاداتهم ، فلم يلبثوا أن انضم كل منهم إلى الحزب الأقرب إلى تفكيره أو إلى مطامعه ، وإذا كانت جماعة مصر الفتاة فى أول تكوينها كانت مدرسة للسخط تجمع كل المتمردين وتضم العناصر الأكثر ثورية من المراهقين والشباب فقد قضى زعماؤها على كل جهودهم السابقة ، حين أرادوا أن يضموا إليهم العناصر المتدينة التى كانت استوعبتهم إحدى الجماعات الدينية ، وأن يتخاصموا فى نفس الوقت من أجل العمل لحساب هتلر أو موسولينى بتغيير اسم حركتهم إلى « الحزب الوطنى الإسلامى »

فأثاروا زوبعة فى غير وقتها ولا محلها ، ثم عاد الحزب يصحح هذا الخطأ الأكبر بالعمل على وضع لافتة جديدة هى « الحزب الاشتراكى » . . . ولكن الغلطة أيضاً أنها كانت مجرد لافتة ، فلا دراسات عن الاشتراكية ولا تصليح للعقول التى ظلت فى حيرتها وتخبطها بين مختلف المبادىء والاتجاهات .

وبعد ، فلا عجب أن كنت أقف عند ذكرياتى لحزب مصر الفتاة ، وأطيل الوقوف ، فهو الحزب الذى احتضن ثوريتى الأولى ، ولكنه لم يدفعنى إلى الأحزاب إياها ، بل دفعنى إلى المبادىء الجديدة التى كانت قد بدأت تغزو العالم كله بعد الحرب العالمية ، فقد انتهى بى إلى اعتناق الاشتراكية العلمية سنة ١٩٤٠ . . ولم ألبث حتى نشرتها فى كل مصر ، وحتى جاء من يحاربها . . . صهيونيون ، وعملاء من كل صنف ولون ، بعضهم يحاول تمثيلها ، وبعضهم يحاول التضليل باسمها ، وأخطرهم من تاجر بعباراتها وعريشوه وجهها الحقيقى ، وأظلم وأتفههم شأناً هم من حاولوا مهاجمتى أو تلطيخ سمعتى أو دفنى حياً ، وقد بقى الوطن ، ودفن أعدائه فى « جحور » ؟ !

• • •

وأعود الآن إلى موضوعنا الأول مع مصر الفتاة ، أو مع السجن الذى دمته . . لقد خرجت من ذلك السجن ، وأنا جد متحرق لدراسة الاشتراكية دراسة عميقة جادة ، فقد قررت أن أهب نفسى للفقراء بقية العمر ، وكل هذه الشكلية من المبادىء التى التقيت بأصحابها فى السجن ممن كانوا أعضاء فى حزب مصر الفتاة ، لم تلفت نظرى إلى شىء جديد أضيفه إلى رسالتى والحياة كما تصورتها فى ذلك الحين .

ولم تكن المسألة سهلة ، فقد بحثت عبثاً عن كتاب واحد فى الاشتراكية ، وفتشت جميع المكتبات المعروفة بلا نتيجة ، وأخيراً جداً ، وبعد جهود مضنية ، عثرت على كتابين الأول للكاتب الماركسى العظيم المرحوم سلامة موسى ،

والثانى للكاتب الإجتماعى نقولا حداد وصحيح أننى تلقيت فيهما دروسى الأولى فى الاشتراكية إلا أن أكثرهما جدة كان مطبوعاً سنة ١٩٢١ ... ثم عثرت على كتاب آخر عنه الإشتراكية إنسانية . الاشتراكية تعوق التقدم الإنسانى ، وقرأته أيضاً بشغف رغم سخافته ، لكننى لم ألبث أن عرفت الطريق الصحيح إلى تلك الدراسة .. يوم جاءنى أحد زملائى ، وقال لى أن شخصاً ما يريد أن يقابلك !

وسألته : لماذا يريد ذلك الشخص أن يقابلنى ؟

فقال ببساطة : سمع أنك اشتراكى فأراد أن يتعرف بك !

وأسرعت إلى الرجل أقول له بكل صراحة ، إننى لا أعرف حرفاً واحداً عن الماركسية ! ولكنى أريد أن أعرف !!

فابتسم وقال : ما دامت هذه روحك فسوف تتعلم !

وافترقنا بعد أن حددنا موعداً لبدء الدراسة . كان ذلك فى أواخر عام ١٩٣٩ .

وكنت كلما تلقيت درساً فى الماركسية ، صور لى جهلى أننى قد أصبحت عالماً ! وما فرغت من دراسة ذلك ، الحد الأدنى ، من النظرية الماركسية ، كان يخيل إلى — لفرط سذاجتى فى ذلك الحين — إننا يجب أن نبادر فنعمل الثورة الاشتراكية .

لكننى عندما تقدمت فى دراستى ، وتجاوز وعيى فهم الخطوط الرئيسية النظرية ، إلى التعمق فى فلسفتها ، وبالتالى فيما تمتاز به من مرونة ، وعرفت أن الثورة الاشتراكية لا تعنى انقلاباً دموياً تنظمه عصابة من العمال ، ولكنها تعنى الثورة الفكرية .. تعنى التغير العميق الذى يطرأ على وعى الطبقات العاملة ، وأن الثورة فى النهاية لا تعنى إعلاناً مسلحاً لقلب نظام الحكم والاستيلاء عليه بالغصب والقهر ، بل هى تعنى تطوراً تاريخياً يظهر أوله ما يظهر فى آلات الإنتاج ،

ثم فى علاقة الطبقات إزاء الآلات ، ويصاحبه حتماً تطور مماثل فى أساليب الناس وطرائق تفكيرهم بل وأخلاقهم ، ينتهى حتماً بالثورة ، أو التغير .

وليس دور الماركسى أن يخلع النظام الرأسمالى نفسه ، لأن هذا النظام إنما يلعب دوراً هاماً فى التقدم ، وفى الزمن ، وهو بالذات النظام الذى يحمل من المتناقضات ، ثم يلد الطبقة العاملة .. وعلى ذلك تصبح رسالة الإشتراكى — غير الهدام — هى أن يحمل مصباح الفكر الجديد لينير للناس طريق التطور ، ويدفعهم بالحجة والمنطق إلى ذلك الطريق .

ومع ذلك فإن الإشتراكى فى مصر هو الذى يعرف أن أكبر جريمة يرتكبها هى أن يبشر بثورة خيالية لا زالت فى علم الغيب ، أو هى من ناحية ، تعتبر مرحلة متقدمة جداً لم تصل إليها بعد ، ولا يمكن أن تصل إليها دولة بمفردها مهما كانت مواردها وإمكانياتها وتعدادها ومساحتها ، ولذلك فإن الاتحاد السوفيتى — بعد ما يقرب من ٤٠ أو ٥٠ سنة من الثورة — لا يزال يعتبر نفسه اتحاداً اشتراكياً — وليس شيوعياً — لا أكثر ولا أقل !

ومن ناحية أخرى فهى حلقة تسبقها حلقات كثيرة ، فهنا فى مصر حيث كان الاستعمار يجثم على صفحة القنال منذ ٧٠ عاماً ، يكون من الغبى السياسى أو من الإجرام ، أن نشغل الشعب بحرب أهلية — بين العمال والرأسماليين مثلاً — عن قضيتهم الوطنية ، عن المعركة الأولى التى يجب أن تعبأ كل قوى الشعب لكسبها ، وأعنى بها معركة التحرر من الإستعمار .

هذه هى المعركة الوحيدة التى يجوز أن نحمل فيها السلاح ، بل التى لا يجوز إلا أن نحمل فيها السلاح ، فهو الوسيلة الوحيدة التى عرفتها الشعوب فى كفاحها من أجل التحرر والإنسانية .

وقد يحلو للبعض هنا أن يفتح باباً للمناقشة والجدل فيسأل مثلاً ..

الآن أن فريقاً من الرأسماليين تداخلت مصالحهم مع مصالح الإستعمار وارتبطت بها ارتباطاً وثيقاً ؟

فإذا قلت هذا البحث ونسى، عاد يتساءل قائلاً : كيف تقف منه إذن موقف المتفرج ؟

وجوابي على ذلك، أنني لا أدعو لمهادنة الحركة الشكورية عليهم ولكني أدعو لمقاومتهم كحركة يرصفهم وكلاء للإستعمار، لا بوصفهم طبقة رأسمالية، فإني لا أنكر أيضاً وجود الرأسمالية الوطنية . .

وبعد فإن ستالين في كتابه عن « المسألة الوطنية » يرى أن ملك أفغانستان الذي حارب الإستعمار في بلاده، كان أنفع لحركة التقدم من الإشتراكيين المزيفين الذين يتولون الحكم في إنجلترا، ويستعبدون شعوب المستعمرات .

وأحسست منذ تسلحت بوجهة نظر جديدة في الكون والمجتمع — تغيراً كيفياً في طريقة تفكيري، وأحسست في نفسي قدرة عجيبة على أن أجيد التحليل العلمي لكل ظاهرة وشعرت بأن كل ما فاته من حياتي إنما كان عبثاً وبدأت إنما أبدأ خطواتي في الحياة العامة من هذا الطريق الجديد . .

ووضعت أمامي هدفين . أولهما أن أنشئ « مدرسة جديدة للوطنية المادية في مصر . . الوطنية الواعية التي تتجسد في مطالب محددة وشعارات واضحة مفهومة فإن مصر لم تعرف من مدارس الوطنية سوى تلك الوطنية المثالية التي حمل لواءها مصطفى كامل وحاول فريد من بعده أن يتجه بها اتجاهاً واقعياً، فلم تواته الفرصة، واستشهد قبل أن يحقق هذه الرسالة . . أجل، لم تكن الوطنية المصرية في حاجة إلى مزيد من الشعارات الحماسية مثل « لو كانت عيني إنجليزية لقلعتها » بقدر ما كانت في حاجة إلى الوعي والإستنارة . . إلى شعارات يصعب معها تحويل الجماهير أو تضليلها مثل « الكفاح المسلح طريق الخلاص » .

وكان الهدف الثاني هو التبشير بالديموقراطية الشعبية لا الديموقراطية البورجوازية . . الديموقراطية الحقيقية لا الديموقراطية المزيفة . الديموقراطية الكاملة لا الديموقراطية المبتورة المشوهة .

كان الهدف الثاني هو الدعوة لحكم الشعب بمعناه الصحيح . . لا عن طريق نواب من الإقطاعيين الذين يسوقون « فلاحيهم » المساكين إلى الإدلاء بأصواتهم في الإنتخابات بما هو أفظع من القهر والإرغام .

وقد اتخذت — وقتها — من دار الكتب بباب الخلق مكاناً مختاراً وأحسست إنني كنت التحق بمدرسة، وإنني ارتأيت أن أدخل في ذلك الذي أقرأه امتحاناً آخر العام وقرأت مجموعة مجلة « روح العصر » الاشتراكية التي كانت تصدر في أول عهد صدقي باشا سنة ١٩٣٠ وكانت فيها آراء تمثل من الأصول الأولى للتفكير الإشتراكي في حياة واتجاهات « سان سيمون » وغيره وعشرات وعشرات الكتب الأخرى . وأصبحت دار الكتب شريكتي للدرس فانتظمت لمدة عامين في حلقة لدراسة المنطق الديالكتيكي والفلسفة والتفسير المادي التاريخ . . والقيمة والثمن والربح من كتاب رأس المال ، والتحقت في نفس ذلك العام بقسم الإجتماع بكلية الآداب ، وكان من زملائي إذ ذاك في القسم المخرج المرحوم حلمي حليم وشقيقه الزميل الصحفي أحمد حليم ، وإدوار كامل ودكتور مصطفى إسماعيل سويف ، وغيرهم . . ولكن البوليس السياسي إذ ذاك عز عليه أن ندرس فكتب إلى إدارة الجامعة خطاباً سرياً بضرورة طردنا حتى لا نسمم عقول الطلبة بمبادئنا الهدامة . وكان هذا هو الإسم الذي يطلق وقتها على الإشتراكية !

وخرجنا إلى عرض الطريق . فكرنا فيما عسانا نفعل واقترح المرحوم الفنان رمسيس يونان على زميله أنور كامل أن نصدر مجلة « التطور » على أن تكون مجلة أدبية فنية حرة ، تتسع لكل الآراء الجديدة . وتكون شبه لسان جماعة

الفن والحرية التى أسسها لفيف من الفنانين التشكيليين بينهم رمسيس وجورج حنين وكامل التلمسانى، والسيدة ولا العلايلى.

وقد روجت المجلة للمذهب الفنى فى السيريالزم والشعر .. ومن هنا .. دب الخلاف بيننا على قيمة المجلة من الناحية الشعبية، وذات يوم خطبت فى الجمعية ثائراً، وقلت .. من اليوم لن تكون جمعيتنا الفن والحرية، بل ستكون «الخبز والحرية».

وانضم لى فى الرأى أنور كامل نفسه وعبد العزيز هيكل (ابن عمة هيكل باشا) كما كان معروفاً بيننا .. وهو الآن موظف كبير فى هيئة اليونسكو العالمية، وصالح عرابى (الآن صحفى معروف بالسودان).

أسبوع لمحاربة الفاشية

ألفنا إذن أول جماعة تقدمية فى مصر باسم جماعة «الخبز والحرية»، فى أواخر عام ١٩٤١، واستأجرنا حجرتين فى عمارة المؤيد بشارع محمد على، وأخطرنا المحافظة بنبأ تشكيل الجمعية، وكان رد المحافظة على إخطارنا أن كلفت قسم الموسكى تعيين اثنين من رجال البوليس يمنعون أى إنسان من الدخول إلى مقر الجمعية خلاف الخمسة الذين وقعوا الإخطار!

وبقيت المشكلة أياما، ثم رأينا أن نجتمع لبحثها، فقلت لزملائى إنى أقدم اقتراحين لتنفيذهما معا .. هما تغيير إسم الجماعة، ومكانها، ثم افتتاح نشاطنا فى التجربة الجديدة بالهجوم على الفاشية .. إن «الفاشية» هى موضوع الساعة وكثير من المصريين يعطفون على ألمانيا وإيطاليا بحسن نية .. لمجرد أنهما تحاربان الانجليز أعداء الشعب المصرى، ولكن علينا أن نوضح الحقائق للناس ليعرفوا ما هى الفاشية، ومن ناحية أخرى فإن الحكومة المصرية ستجد نفسها محرجة فى مقاومة حركة تحارب الفاشية!

ووافق بقية الزملاء على اقتراحاتى ..

وألفنا جماعة «نحن أنفسنا»، وانتقلنا إلى الحجرة التى كانت تشغلها من قبل جماعة الفن والحرية بالعمارة رقم ٢٨ شارع شريف وأعلنا عن افتتاح أسبوع لمحاربة الفاشية، فإذا الصحف تهتم به اهتماما كبيراً، وإذا الصحف الإنجليزية المحلية بالذات تولى هذه الحركة كثيراً من عنايتها .. فقد اعتاد الإنجليز أن يجدوا كتاباً مأجورين كالأستاذ العقاد وغيره يحاربون الفاشية بالأجر أما أن تقوم بذلك حركة شعبية خالصة، فهذا مالم يحلموا به!

وحضر إلى مقر الجماعة ذات يوم أحد السعاة يحمل خطابا مغلقا ففضضته فإذا به

من صحفي مصري يعمل محرراً بالجيشيان ميل هو الأستاذ ج. خ. يقول فيه انه نشر لنا ربع صفحة من هـــذه الحركة وأنه يتطلب التعرف بي، فحددت له موعداً..

وقال الأستاذ ج عندما قابلنا انه أعجب بهذه الحركة وانه يريد المساهمة فيها فشكرته وقلت له: في استطاعتك تشجيعنا بالنشر ولو أن النشر بالصحف الإنجليزية لا يفيدنا كثيراً..

قال: بل أريد أن أساعدكم في ميادين أخرى غير الصحافة هل تسمحون لي أن أساعدكم مادياً مثلاً!

قلت له: إننا لا نحتاج إلى مال، لا لأن لدينا الكثير منه، بل لأننا أعددنا برنامجنا على أساس الا نحتاج إلى تكاليف لا نقدر عليها.

قال: أليست لديكم مطبوعات مثلاً؟

قلت: بالصدفة توجد معي أصول رسالة عنوانها «الفاشية تهدم نفسها» وسأقوم اليوم بطبعها.

قال وهو يتصفحها: إنها رائعة جداً.. كم ألفاً سوف تطبع منها؟

قلت: ألف نسخة!

قال مندهشاً: هذه الرسالة الرائعة يطبع منها ألف فقط؟.. أنها جديرة بأن تقرأ في جميع أنحاء العالم العربي لا في مصر فقط!

وخجلت حياء لهذا الإطراء بينما قال هو: إني استأذنك في طبعها على نفقتي وسوف اطبع لك منها كمية أكبر من هذا بكثير.

وفرحت بهذه الفرصة ولو أني خشيت في الوقت نفسه أن يتأخر الطبع، ولما صارحته بذلك قال:

غداً.. تأكد.. في المساء سوف تصلك تلك الرسالة مطبوعة!

واتفقنا على أن نلتقي مرة أخرى، وفي مساء اليوم التالي وقفت أمام مقر الجماعة عربة كارو تحمل عشرين ألف نسخة من الرسالة المذكورة، على أفخم أنواع الورق الأبيض الموجود إذ ذاك بالسوق!

وادركت في الحال أن المسألة غير طبيعية، وأن الأستاذ ج لا يمكن أن يكون قد دفع تكاليف هذه النسخ من جيبه.

وادركت أن هذا الرجل قد يكون محتالاً، يحاول الإيقاع بنشاطنا، وكانت مكاتب الدعاية الإنجليزية تدفع بسخاء في ذلك الوقت لكل من يقول أو يكتب كلمة ضد الألمان أو الطليان، أو في مصلحة الإنجليز بأي أسلوب.

ولم أكتف بقطع علاقتي بالرجل، بل حرصت على كشفه عن طريق المحاضرات الأسبوعية التي كنا نقيمها، فكنت في جميع أحاديثي أوضح، أن الدعوة ضد الفاشية في أذهاننا، لا تعني تأييدنا للإنجليز، وهم — كمستعمرين — لا يقلون في نظرنا خطراً عن الفاشية، بل ونعتبر حكومة تشرشل حكومة فاشية.

وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع، جاءني الأستاذ ج منزعجاً، وطلب الانفراد بي بعض الوقت، ثم قال: كيف تهاجم الإنجليز!.. أنت تناقض نفسك! كيف تزعم أنك تحارب الفاشية وفي نفس الوقت تهاجم الإنجليز؟

قلت بهدوء وسخرية: وما الذي يزعجك شخصياً من هذا.. هذه سياستنا ونحن أحرار في تكييفها كما نشاء.

قال : ولكنك أحرجتني جداً .. ألا تعرف أن رسالتك طبعت من أموال الدعاية البريطانية ؟

قلت : لو أنك قلت لى لما قبلت طبعها ..

قال : ولماذا ياعبيط .. إذا كنت شيوعياً كما سمعت عنك ، فالإتحاد السوفيتي يأخذ من الإنجليز دبابات وطائرات ليحارب بها الألمان ، مادام عدوكم واحد ، فأى عيب فى التعاون ؟

ولماذا لاتتبادلون المساعدات ؟ .. إن فلانا وفلانا يشتغلون فى الدعاية البريطانية لأنهم بهذا يتعاونون على مكافحة النازية ، وفلان وعلان هما من الشبان التقدميين المعروفين !

قلت : ياسيدى أرجوك .. أتركنى .. إنى أرفض هذا التعاون .

قال : — وهو يبذل محاولة أخيرة — مارأيك فى مائة جنيه كل شهر مساعدة لحركتكم من أموال الدعاية البريطانية دون أن يكون مطلوباً منكم أى شىء سوى أن تهاجموا الفاشية فقط وتتركوا بريطانيا ؟

ولم تحتمل أعصابى هذا الاستفزاز فقلت للأستاذ ح رأيى فى آبائه وأجداده وتركته يقول لى غاضبا : أنت تشتمنى ؟ .. أنت تهيننى ؟ .. سوف تدفع ثمن هذا الجنون فى أقرب وقت .

ومن اليوم التالى .. فى اليوم التالى مباشرة ، كان البوليس المصرى يحاصر الجمعية ويغلقها بالشمع الأحمر .

وعندما وقفت الأحكام العرفية فى وجه حريتنا بإغلاق نادينا ، رأيت

أن نتحايل على الطغيان فنتخذ من كل ناد وكل جماعة منبراً لنا ، وكانت الخطة تتلخص فيما يلى ..

كنا نلتقى كل صباح فى مقهى بلدى بأرض الفوالة بشارع رشدى ، وهناك كنت أستعرض فى جريدة الأهرام باب (محاضرات اليوم) وكان بابا ثابتا ، ثم نوزع أنفسنا ، عشرة أو خمسة عشر عضواً على الأندية والجمعيات التى تقدم هذه المحاضرات ، ثلاثة فى كل ركن ، ولايكاد المحاضر ينتهى من محاضرته حتى أقف أنا أطلب التعقيب على المحاضرة ، فإذا اعترض المسئولون أو اعتذروا عن السماح لى بالتعقيب إرتفعت أصوات زملائى المندسين فى الإجتماع يحتجون على هذا الاعتراض ويطالبون بسماعى ، ويتحمس معهم الحاضرون عادة فتضطر الجمعية إلى الموافقة على التعقيب ، وكنا عن طريق التعليق على المحاضرة الملقاة نحول الحديث دائماً إلى « الإشتراكية » ومما أذكره من هذه المحاولات على سبيل المثال ، أننا ذهبنا ذات يوم إلى نادى جبهة مصر ، برئاسة على ماهر باشا ، إذ كان الثائر الوطنى عبد الفتاح عنايت يلقى محاضرة وكانت — إذا لم تخنى الذاكرة — عن (كيف نستفيد بمجدنا القديم ؟) ، ووزعنا أنفسنا كالعادة وكنا حوالى خمسة أو ستة بين مقاعد الجمهور ، وما أن انتهت المحاضرة حتى طلبت التعليق ، وحاول المسئول فى الجمعية الإعتذار ، ولكن صيحات الزملاء تعالت .. أتركوه .. دعوه يتكلم .. يجب أن تكون هناك مناقشة حرة وهكذا لم يجدوا بداً — كما هى العادة فى كل الجمعيات — من دعوتى للكلام فوقفت وأسهبت فى الرد على الأستاذ عبد الفتاح عنايت الذى كان يطالب إلى كل عامل فى مصر أن يقوى روحه بالدين ، ويقوى عقله بالعلم والثقافة ، ويقوى بدنه بالتدريبات الرياضية .. فقلت ساخراً متهكما .. قولوا لى بالله كيف يقوى العامل روحه بالدين وهو يرى الفساد منتشرا .. والظلم عاما ، والحكام هم المفسدون والظالمون هم وكلاؤهم ومرؤوسوهم .. بل كيف يقتنع له ويحدد من هو الظالم ومن هو المفسد ؟ .. ثم قولوا لى كيف يقوى عقله بالاطلاع وهو

لا يجد فى جيبه قرشاً فائضاً من أجره الضئيل يشترى به الكتاب أو يدخل به الجامعة أو المعهد الذى يتيح له فرصة تقوية عقله .

ثم قولوا لى أخيراً كيف يقوم بالتدريبات الرياضية بعد أن يكون قد اشتغل بيديه وبعرقه طوال عشرة ساعات أو اثنى عشرة ساعة . وأين يزاول هذه التدريبات ، أفى الأزقة التى يسكنها وليس فيها نسمة هواء ، أم فى مسكنه الضيق حيث يحشر مع أولاده فى حجرة ضيقة واحدة .. أو حيث يسكن كل عشرين فى حجرة ، كما يحدث فى المحلة الكبرى وأحياء العمال .. وكيف يزاول هذه التدريبات ، وهو يعانى من سوء التغذية ، بل من الأنيميا ، والسل .. والبلهارسيا ، كما تثبت الإحصائيات الرسمية .. أم يزاولها وهو خلى ، خاو بطنه ، ؟.

وكانت هذه الحقائق الصارخة معروفة وملموسة فى ذلك العهد . ولذلك انتزعت التصفيق الحاد المتواصل . وما أن تكلمت عن الإشتراكية بعد ذلك كعلاج . وكمنهج للإصلاح . حتى عاد التصفيق والهتاف . وخرج المستمعون ورائى فى تلك الليلة لا يريدون تركى . وكان آخر من بقى معى شاب سكندرى لم يكن له عهد بالقاهرة بعد وهو الصحفى اللامع الأستاذ إبراهيم عامر .

وفى سنة ١٩١٢ جعلنا صدقى باشا فى أول قضية بتهمة الإشتراكية وهى التى عرفت إذ ذاك بقضية (المجد والحرية) . وقد حققها الأستاذ توفيق دقى رئيس النيابة العسكرية . وحضر الدفاع عنا فيها . الأستاذ المرحوم على الحديدى ، وفتحى رضوان . وعادل كامل . وآخرون من المحامين الشبان إذ ذاك . وظلت القضية تؤجل إلى دورة مقبلة عدة مرات إلى أن حكم فيها بالبراءة بعد عدة سنوات . وكنا متهمين بعشرات القضايا الجديدة فلم تنته لها .. ولم تكن الصحف الموضوعة تحت الرقابة تستطيع أن تنشر شيئاً عن هذه القضايا . لولا أن محرراً إذ ذاك بجريدة المقطم أراد أن يتحايل على النشر فكتب عدة سطور فى باب الجرائم العادية . فقال ، قبض أمس على فلان الفلانى المجرم الهارب من وجه العدالة وأرسل إلى السجن ، !

وفى سنة ١٩٤٢ ، كنت أتسابق مع زميلى أنور كامل وفوزى المصرى فى كتابة رسائل مبسطة فى المشكلات والأحداث والمبادىء ، فقبض على أنور كامل وعلى ، وحقق معنا فى هذه الرسائل ، وكان كتاب أنور بعنوان « لا طبقات » وكنت أنا متهما بنشر كتابين هما « أهداف الإشتراكية » . و « هل نعرف روسيا ؟ » .. وقد أمر المحقق الأستاذ إمام الخريبى (الآن المستشار بمجلس الدولة) بحبسنا ١٤ يوما تجددت حوالى أربعة أو خمسة مرات .

.. وكان هذا على أثر اكتشاف منشورات ضد الملك فاروق موضوعة على مكتبه بسراى عابدين ، وقد قبض على بعض الأصدقاء منهم الأستاذ موسى عبد الحفيظ (مدير الشركة الأهلية للإعلان حاليا) ، وبعض موظفى مكاتب الطيران منهم المرحوم إبراهيم العطار وكان مديراً للعلاقات العامة بشركة عثمان أحمد عثمان ، وشقيقه مختار .. الخ .. ولم يثبت عليهم شىء . ولكن أحد عملاء المباحث واسمه ليفى – وقد عرف فيما بعد أنه عميل صهيونى – كان قد قدم إلى المباحث تقريراً يؤكد أننى وأنور كامل قد حرضنا المتهمين السابقين على طبع هذه المنشورات .

واتهمت مع شقيقى الأكبر مصطفى بعد ذلك بشهور بطبع منشورات تدعو العمال إلى الإحتفال بعيد أول مايو وزعت خلال ليلة عيد أول مايو ، وضبطت بعضها مع الزميل المرحوم زكى أبو الخير (عامل مطبعة) ، وفتشت منازلنا . بواسطة الضابط الصاغ إمام إبراهيم (الآن لواء على المعاش) وشقيقى بواسطة القائمقام أحمد حمدى وكيل حكمدارية المحافظة ، وآخرين ، كانوا مكلفين بمراقبتنا وضبطنا ..

وكانت للمنشورات أهمية خاصة فى تلك الفترة ، فرأيت أن أتعلم بنفسى الجمع اليدوى للحروف وانضم لى آخرون ، وقررنا أن نلتحق كعمال بمطبعة دار النشر الحديثة (كانت فى مصف وبجوار مسرح الجمهورية الآن) . وطبعنا منشوراتنا السرية — أى بدل العمال الزرقاء — لولا أن تنبه لوجودنا — بواسطة

الجواسيس — المرحوم محمد مرسى حسين صاحب المطبعة ، بجاء على عمل ، وطردنا قبل أن تتعلم تماما وتنشىء مطبعة خاصة بنا نعمل عليها .

وانتقلنا إلى تجارب جديدة هى العمل بين الجماهير والطبقة العاملة ، داخل النقابات وخارجها : واخترت أنا نقابة عمال الطباعة إذ كانت قريبة إلى مهنتى وأعرف كثيرين من المشتغلين بها ، كما اخترت أيضا العمل مع شقيق مصطفى فى مجال إجتماعى آخر هو محاربة التدخين .. سواء تدخين السجاير أو « الجوزة » ، وطفت معه حوارى القاهرة وأزقتها نشرح للناس أضرار التدخين ، ولمسنا بأنفسنا كيف أن الكثيرين من يدخنون الحشيش بالذات مرضى مايفقدون القدرة على التمييز أو الحكم على الأمور العادية . وأنهم يصابون بالبله والعته ونقص الإدراك ، والضحك على كل شىء وعلى لاشىء على الإطلاق . ووجدنا بين المتعاطين مثقفين يشغلون مناصب رفيعة مع الأسف الشديد ، كما وجدت بين موزعى الحشيش بعض أعضاء فى المجالس النيابية يتحكمون فى أصوات الناخبين وآرائهم بفضل السيولة واليسر !

وانتقلت إلى عمال الطباعة .. وحين اسأل عنهم سنة ١٩٤١ ، فقيل لى انهم أصبحوا مشردين لا يجدون أعمالا ولايتقاضون معونات سواء من الحكومة او الاتحادات العمالية فتركت لهم موعداً نلتقى فيه لتدارس قضيتهم ، وحضروا فى الموعد المحدد فسألتهم أن يشرحوا لى المشكلة من بدايتها قالوا .. منذ أن أنقصت الصحف اليومية عدد صفحاتها إلى أربعة صفحات فقط ، وأنقصت المجلات الاسبوعية والشهرية صفحاتها إلى اقل من الربع وتصدروا أول ماتصدوا إلى أعداد الصناعات ، فقال لهم المسئولون هناك ..

تشاوروا مع غرفة المطابع ، وهناك أرادت الغرفة استغلالهم والضغط على الحكومة حتى تحقق بعض مطالب أصحاب دور الطباعة كتخفيض الحماية الجمركية عن الأحبار وإلغاء كميات والغاء قرار الإستيلاء على الورق اللازم لتشغيلهم ، وذهبوا إلى أصحاب الصحف ، فقالوا لهم عليكم بالحكومة حتى

تلغى الأمر العسكرى بتحديد الصفحات ، وقال لهم بعض الانتهازيين يجب أن تقيموا حفلة تكريم للوزير الفلانى حتى يستجيب إلى شكواكم وقال لهم موظفون فى مكتب العمل يجب تخفيض أجور العمال بمناسبة الحالة الحاضرة ، وقلت لهم بدورى (إن حل أزمتكم فى أيديكم طالبوا بتخفيض ساعات العمل إلى الربع ما دامت الصفحات قد خفضت إلى الربع أيضاً) وواصل بعضهم الكفاح فى ضوء التوجيه الأخير حتى تحقق لهم النصر ، بينما يئس البعض الآخر ، وتقاعدوا عن مطالبهم وراحوا يفكرون فى حلول انتهازية كإقامة حفلات ترفيهية باسم العمال المتعطلين وتوزيع تذاكرها على أهل الخير ، وسرعان ما انقلبت تلك الحفلات إلى أداة للنصب والإحتيال ، وانتهى أصحاب تلك الحفلات إلى أن أصبحوا لصوصاً وقوادين ومشردين ومتسولين .

وكان البعض منهم قد باع نفسه للقلم السياسى بالمحافظة فكشفهم العمال وقرروا إغتيالهم باعتبارهم خونة ، ولكنى اقترحت ضربهم علقة فقط بعد عدم فى (فلقة) أمام زملائهم جميعا حتى يستفيد العمال بهذا الدرس دون أن يتعرضوا لمسئولية القتل والإغتيال .

.. ونوع آخر من الاحتكاك بالجماهير ، وجهت إلى الدعوة إلى إجتماع حاشد فى مسرح الريحانى من لفيف من المشتغلين بالفن الذين تعطلوا أيضا عن العمل بسبب إغلاق المسارح الجادة بعد فتح الكباريهات والمراقص الخليعة لجنود الإنجليز ، وأتيت حتى زميلا لنا هو المناضل القديم الأستاذ موسى جاه يروى لنا ما شاهده فى ذلك الحفل . فقال ... كل الخطباء خمسة لم يعبروا معا كلهم ولو من بعيد ، بل ظلوا يتبارون فى ترشيح زعيم من بينهم ليتولى الحديث عنهم .... قال خطيبهم الأول (تريده شابا ... جريئا ... مقداما .. لا يخشى سوى الحق ... ولا يهاب سوى الضمير) وبعد أن ظل يصف نفسه بهذه العبارات التجريدية ختم خطابه بأن قال (وأنا مستعد للخدمة .) ووقف الثانى فقال (بل نريده رجلا كبيراً محنكا ، له إتزان ، وفيه وقار ، وعنده حكمة ، لاينطق عن الهوى ، ولا يسكت عن الضلال ، نريده

رجلا وليس طفلا . . . نريده عاقلا وليس متهورا . . . نريد شيخا جليلا ، ولا نريد عفريتا هزيلا ، وختم الخطيب الهمام كلامه ، وهو رجل كبير السن بقوله : ولا أريد أن أدلكم عليه . . . نعم ، أنا لا أزكى نفسى ، ولكنى أنصح لتزكيه من يشاء من زملائى النابهين الراشدين) .

ووقف ثالث الخطباء فقال (سمعتم حضراتكم تلك المناظرة المضحكة بين حماس الشباب وحكمة الشيوخ ولعلكم تساءلتم ما أهمية هذا كله فى موضوعكم وموضوع معنا كلكم ، إنكم أيها الإخوة فى حاجة إلى رجل وسط يجمع بين حماسة الشباب وحكمة الشيوخ ويمتاز بالشهرة الفنية العريضة التى تجعله محل التقدير والإعجاب حيثما ذهب لمقابلة حاكم أو عظيم ، وتجعله موضع تكريم واحترام . . . مجابا إذا طلب ، مسموعاً إذا قال) وقام الرابع ليخطب فقال (دعونا من كل هذه المزايدات والمناقصات ، ولا تلقوا بالا لمبر الماضى فيمن ترشحونه لزعامتكم . . . انتخبوا أبعدكم أثراً فى المهنة ، وأقدركم على حسن إدارة دفتكم بحكم ملازمته لكم ، ماثلا ، وممثلا ، ومخرجا ، ومدير مسرح ٢٥ عاما فى خدمة الفن . . . أيها الأصدقاء والتلاميذ الأوفياء)

واعتلى الخامس خشبة المسرح وقال :

يا للهول يا حضرات المحترمين . . . يا للكارثة التى حلت بنا ، ونحن نبحث عن الزعيم المجرى . . ورجل الساعة القديم ، وبيننا من قام بتمثيل أدوار الملوك والسلاطين ، ثم نخرج من هذا الاجتماع دون أن نجمع على اختياره أبا لنا ، وأمينا على حقوقنا ، وحريصا على مصالحنا . . . إنه الآن بينكم فى المسرح ، فماذا أنت فاعلون ؟

قال زميلى الفاضل . . . وخرجت من مسرح الريحانى وأنا أقول . عجبا ومع ذلك يشكو الريحانى من وجود أزمة نصوص .

منشورات وكتب

لم يكن أمامنا أى سبيل آخر سوى المطبوعات المختلفة نغرق بها البلد ، وإيمانا منا بأهمية التوعية ، وما أكثر ما أذكره فى هذا الصدد ، فقد كانت لنا مئات التجارب فى هذا الميدان . . كيف نطبعها بعيــداً عن البوليس ، وكيف نوزعها ، وكيف نحمى الموزعين والناشرين على السواء ، كتبا كانت أو منشورات صغيرة .

ولم نصل بالطبع إلى هذه الانتصارات التى حققناها إلا بتضحيات كثيرة قدمناها . . المنشورات مثلا كنا نطبعها فى مناسبات معروفة محدودة ، وكان البوليس يعرف عادة أننا لن ندع المناسبة الفلانية مثلا تمر دون أن نوزع فيها منشوراً . . ومع ذلك ، كنا نصدر المنشور فعلا ، ونقوم بتوزيعه ، فكيف كنا نستطيع ذلك ؟

كنا نطبع المنشور فى أربعة أو خمسة مطابع فى وقت واحد ، حتى إذا عثر البوليس عليه فى مطبعة أو اثنين أو ثلاثة . . لم يضبطه فى الرابعــة والخامسة كنا نطبع واحداً فى شبرا . . والثانى فى السيدة زينب ، والثالث فى عابدين ، والرابع فى مصر الجديدة ، والخامس فى المعادى أو حلوان ، بل إننا أحياناً كنا نطبع واحداً فى طنطا . . والثانى فى الزقازيق ، والثالث فى دمياط والرابع فى بنى سويف والخامس فى المنيا !

وكان الزميل الذى يكتب المنشور بخط يده ، غير الزميل الذى يتفق مــــع المطبعة ، غير الزميل الذى يذهب لكى يستلمه ، غير الزملاء الذين يوزعونه . . من باب الأمان !

ولما ضيق البوليس الخناق علينا إلى الحد الذى يعرض سلامة البعض للخطر كما يعرض المطبوع أيضاً للمصادرة ، اشترينا حوالى ستين كيلو من الحروف الجديدة ، وأودعناها إحدى الشقق فى منزل أحد العمال — زكى أبو الخير — بحارة الزير المعلق بحى عابدين ، وكنا نستعين فى جمعها وطبعها بماكينة صنعها بعض زملائنا من المهندسين والعمال بطريقة بدائية ، لكنها — على أى حال — كانت تعيننا رغم ثقلها الشديد ، وأشار الزميل المرحوم سيد قنديل علينا بعمل كليشيه على النسخة الأولى فقط فلما فعلنا ذلك أخذ الزميل الكليشيه وطبع منه عشرات الألوف على ماكينات خارجية ، بل لقد فوجئنا به يطبع لنا بعض المنشورات يوما فى إحدى المصالح الحكومية ، وعلى ورق منها !

وكانت هذه المنشورات تأتى كلها إلى بيتى وتوزع منه ، دون أن يفطن البوليس إلى مكانها فى أول الأمر ، فقد كنا نستخدم حلة كبيرة من حلل الغسيل من أيام أجدادنا — ونعبىء فيها المنشورات ونغطيها كالمعتاد ، ونضعها فى مكانها الطبيعى وسط عشرات الحلل الأخرى الأصغر حجما ، والموضوعة فارغة إستكمالا للديكور .

ويأتى البوليس ليفتش عبثاً ، ثم بدأنا نستعين بمائدة كبيرة ذات قلب فارغ يفتح ويغلق مثل بعض الصناديق والتى تستعمل كدواليب أيضاً .

وبدأ البوليس يتخذ من المقاهى القريبة من بيتنا فى أول شارع على الترابي — الآن عامر الشعب — مكانا له ، وكل من يضبط خارجا بالمنشورات يقبض عليه ، حتى بعد أن لجأنا إلى الحيلة فاستخدمنا صندوق بريد خاص فى مدخل البيت وكنا نخبىء فيه المنشورات حتى يأتى من يأخذها منه دون أن يصعد أو يقابل أحداً أو أخيراً ، إستعنا بحجرة ، فراغ ، على السطح ، وكان الزميل الذى عليه أن يتسلمها ، يصعد السلم ومعه مفتاح الحجرة ، فيأخذ الكمية المطلوبة ويخرج بها

ويلهى أن حجرة السطح هذه كان يستأجرها شاب أعزب مجهول من صاحب البيت ومن غير صاحب البيت أيضاً !

وكنت متمرساً فى الوقوف بين يدى النيابة لذلك كانت الأوامر صريحة للزملاء الذين يعهد إليهم بتوزيع المنشورات بأنهم إذا ضبطوا بها ، ولم يكن من سبيل إلا الإعتراف ، فعليهم أن يقولوا أنها من فلان الذى هو أنا !

وأنه يوزعها ثلاثة فى ، ثم يتوقف عن الكلام فيما عدا هذا ، فلا يناقش ما جاء بالمنشورات ، ولا يمكن المحقق من أن يستدرجه فى أى شىء سوى أن يحيله إلى مصدر المنشورات ، فلا يفتش إلا بيت واحد هو بيتى ، ولا يقبض على أحد إلا على أنا !

أما أنا فقد كانت إجاباتى لا تخرج عن الآتى .. حدث أن وكيل نيابة باب الشعرية سألنى ذات يوم ، وكان قد قبض على الزملاء على الصيق ، وعلى العدل وآخرين .. وهم يوزعون منشورات ، فقالوا إنهم أخذوها منى ، وجاء مأمور باب الشعرية القائمقام عبد الرحمن عبود فاحتفظنى ، وهو قريبى ! وقدمنى إلى النيابة ، فسألنى السيد وكيل النيابة إذ ذاك الأستاذ هارون أبو سحلى ، وكان شابا صغيراً ، سألنى :

— هل تؤمن بجياً بالذات ؟

قلت — بالطبع .. أنا أومن بالاشتراكية .

وانبسط وكيل النيابة جداً .. وفرك يديه فرحا بهذا ، الربون العبيط ، وقال :

— وأنا تعجبنى صراحتك فعلا ، فقل لى إذن .. وكيف تعمل على ترويج الدعوة للاشتراكية ؟

قلت : أنا لم أقل إنى أدعو للاشتراكية إنما قلت انى أومن بها ، وفرق كبير بين العقيدة — كما تعلم — التى هى حق مطلق كما يقول الدستور ، وبين الدعوة التى هى عمل إيجابى يمنعه القانون من مزاولته .

ونبه المحقق الى أننى أفهم حقوق القانونية بالضبط ولا أحاسب على أى كلام .

وبدا على أن أراه وقد بدا عليه الضيق من هـــذه الإجابة ، فقال أداعب آماله فى أننى يمكن أن اقع فى الفخ المنصوب لى نتيجة خيلاق ومجى الثرثرة والـكلام !

قلت — ومع ذلك فإننى مستعد أن أخرج على القانون وادعو لها فى الوقت المناسب .

وهنا الأستاذ هارون ورفع حاجبيه دهشة وقال وهو يتلفظ :

— آه . . وكيف تخرج على القانون فى الدعوة للإشتراكية وفى الوقت المناسب ؟

قلت فى برود : سلنى أولا ماهو الوقت المناسب ؟ .. إنه سيأتى حتما يوم تتحرر مصر من الإستعمار وتقول الحكومة أولا ان هذه القوانين لم يعد إليها حاجة . . يومها سنستخدم كل حقوقنا . وكل إمكانياتنا لانتزاع حرياتنا التى سلبنا الاستعمار البغيض أعمها ، وهو اختيار النظام الذى نعيش فى ظله .

ولما يئس منى وكيل النيابة أراد أن يستدرجنى فى ناحية أخرى ، فقال :

وكيف تحارب أو تكافح الإستعمار بالقوة كما تقول فى المنشور ؟

قلت : لن أقول لك فى هذه المرة ، بقوة اليقين أو الإيمان ، ولن أقول مستقبلا سنفعل ، بل سنشرع فوراً فى مكافحة الإستعمار وحربه بكل سلاح بالحديد والنار .. سنحطمهم .. سندمرهم . . سنقتل جنوده تقتيلا بلا رحمة وبلا أدنى شفقة أو اشفاق . . ما رأيك أنت ؟

ولم يصبر المحقق الشاب ، بل تناول القلم وسجل فى محضر التحقيق . . إستمرار حبسه أربعة أيام أخرى . . ولكن فى اليوم التالى أفرج عنى رئيس النيابة .

جاسوس شالى !

كنت أجلس إلى مكتبي بمجلة « العزيمة » صباح يوم من أيام ١٩٤١ ، حين دخل الساعي يحمل لي بطاقة باسم : حمدي عبد اللطيف المحامي لدى المحاكم المختلطة .

ولعله سمعني أقول « دعه يتفضل » ، إذ لم يلبث أن دفع الباب ودخل منه رجل بدين في الحلقة الرابعة من عمره ، تبدو عليه سيماء الوجاهة والأرستقراطية .

ولم يلجأ الزائر إلى المقدمات بل اقتحم الموضوع رأسا بأسلوب لبق ، ولهجة فصيحة وابتسامة لم تفارق شفتيه منذ دخل إلى أن خرج .

قال أنه سمع من صديق لا يريد أن يذكره الآن إن دار المجلة بها عدة غرف وأنها تستطيع أن تستغني عن بعضها وأنه يريد استئجار واحدة لتكون مقر جماعة اسمها « جماعة الباحثين عن العمل » .

وقبل أن أتكلم ، أخذ يرد على ما قد أثيره من اعتراضات كأنه يقرأ ما بنفسي قال .. لا تظن إننا سنعقد اجتماعات صاخبة تزعجكم ، ولا يدور بخلدك أن زوارنا لا ينقطعون لكثرتهم .. كلا .. إننا أشبه ما نكون بمكتب تخديم فقط ، المتعطل أن يحضر ويحرر استمارة بمؤهلاته لنتولى نحن البحث عن العمل الذي يناسبه .

ووقعت في « الفخ » الذي نصبه لي الرجل ، إذ سال لعابي لهذه الجمعية التي تتيح لي التعرف إلى عدد من الشبان أجندهم بدوري للحركة الشعبية ، فلم ألبث أن وعدت الرجل بإنهاء هذه المسألة حتما بعد إقناع صاحب الجريدة !

وفي اليوم التالي ، تم تأجير الحجرة بسهولة إذ كان الأجر الذي عرضه الرجل مغريا وكانت الجريدة تعاني أزمة مالية .

وبدأت الصداقة تتوطد بيني وبين حمدي عبد اللطيف ، إذ كان الرجل — في الظاهر — كثير الإشادة بأخلاقي ، كثير التعبير عن إعجابه بمقالاتي .. وكان في حضوري ، كثير التودد إلى أصدقائي ، لا ينفك يدعونا إلى ولائم وسهرات وحفلات سينما !

ثم تلقيت ذات يوم خطابا من مجهول يحذرني فيه من حمدي عبد اللطيف ويقول إنه جاسوس خطير !

ولم يكن من السهل أن أصدق ، أن الرجل في غنى عن التجسس بما ورثه عن آبائه من أموال وأطيان فهو يملك سيارة ويعيش مع أسرته في قصر ضخم بالزمالك ، وعهدنا بالجواسيس أن يكونوا من أولئك الذين تغريهم ظروفهم رجال البوليس باصطيادهم !

ومع ذلك فإنني لم ألاحظ على الرجل شيئا مريبا ، لا هو طلب الانضمام إلى حركتنا ، ولا هو حاول أن يهدمها .. إنه على العكس لا ينفك يعلن كراهيته للنازية ، وهجومه على الشيوعية بالذات وكان يقول لي أليست تقول إنك تحترم حرية الرأي .. هذا هو رأيي إذن !

لكن الاتهام عادة يثير الشك ، فلم أستطع أن أمنع نفسي من الارتياب فيه ، وكنت ذات مساء على موعد معه لنقضي سهرة من سهرات رمضان ، وطاب لنا أن نذهب إلى حي الحسين على الأقدام ، وقال لي الرجل ونحن نجتاز شارع الأزهر عند منتصف الليل .. هل لديك مانع من أن نقضي السهرة إلى الصباح ؟

قلت : كلا بالطبع ..

وشرد ذهنى فجأة ، فقد أثار هذا الاقتراح شكوكى بلا داع ، وخطر لى أن أجرب طريقة سيكولوجية الإيقاع به ، فقلت له بلهجة سريعة قاطعة : وهذه مناسبة طيبة لأقول لك شيئا .. هو أننى أعرف كل شىء عنك وعن مهنتك التى تخفيها وعن سر صداقتك لى .

وحدث ما كنت أتوقعه ، إذ انهار حمدى فجأة وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خجولة صفراء :

— صحيح .. من الذى قال لك ؟

ثم استطرد : ثق أنى لم أقصد إيذاءك ولم أتآمر عليك ، أو ألفق لك تهمة ؟ إن مهمتى قاصرة على شىء واحد هو أن أدرس شخصيتك ! كنت أريد أن أعرف أى نوع من الرجال أنت .. هذا هو كل ما يهم المخابرات البريطانية فى الوقت الحاضر !

وأدركت أن صاحبنا من رجال المخابرات . وتظاهرت بأنى كنت أعرف هذا من قبل ، وقلت له وأنا أبتسم فى هدوء : هه .. وما الذى خرجت به من دراساتك ؟

قال : من الدروس التى تلقيتها أن الرجل يعرف على حقيقته فى إحدى حالات ثلاثة .. عندما يجلس مع امرأة ! أو يشرب الخمر ! أو يلعب القمار !

وقد حاولت أن أغريك بكأس من الخمر فرفضت ، هل تذكر ؟ . وحاولت مرة ثانية أن أصطحبك معى إلى كباريه واتفقت مع راقصة على أن تجلس

معك ولكنك لم تحضر .. هل تذكر أيضا ؟ .. وأخيراً ، سألتك هل تلعب الورق أو حتى الطاولة فقلت لا .. لقد حيرتنى ، وأخيراً ، كنت ألاعبك القمار دون أن تشعر .. بل ظللت ألاعبك القمار إلى اليوم ..

وابتسمت وتذكرت أن حمدى كان يقابلنى كل صباح ليضع قرشاً فى قبضة يده ، ويسألنى :

ملك والا كتابة ؟ .. فإذا عرفت نوع القرش الذى معه أعطاه لى ، وإذا أخطأت ، طلب منى قرشاً !

وكنت أظن أنها نزوة صبيانية كتلك التى تبقى فى بعضنا من عهد الطفولة . فأضحك وألاعبه كما يشاء .. ولم يخطر لى مطلقاً أنه كان يدرسنى من خلال هذه العملية البسيطة ، ويريد أن يعرف هل أنا ميال للمغامرة ؟ .. وهل أسارع فى الرد ؟ .. وهل .. وهل .. من الصفات التى كان الإنجليز يريدون معرفتها !

ولاحظ حمدى أننى شردت بذهنى ، فقال : إسمع .. لقد انتهت مهمتى معك .. أقسم لك بشرفى ، ولم يعد لى عندك سوى الصداقة الشريفة فإذا كنت لا تثق فى أو ترتاب فى نواياى فأنا على استعداد للانسحاب فوراً وإذا رغبت أن تستمر معرفتى بك فإننى أكون سعيداً ، وأنا على استعداد أن أثبت لك إخلاصى بطريقة عملية .

قلت : وما هى هذه الطريقة العملية ؟

قال : سأدعوك لتناول الطعام على مائدتى غداً ، وسأقدم لك مفاجأة هامة ستعرف منها مدى إخلاصى وحبى !

ورفض النزول إلى تلبية الدعوة ، حيث قال لى محقق وهو يخرج بعض التقارير من حقيبة جلدية منفوخة :

— هذه هى التقارير المكتوبة عنك فى أرشيف المخابرات . . لقد أخذتها اليوم لأطلعك عليها ، وسأبدأ بأن أقرأ لك ماكتبته أنا عنك .

وفرغ من قراءة تقريره عنى ، ثم تناول آخر وقال : هل تذكر شخصا إسمه فلان ؟

قلت : سمعت هذا الإسم . . لكنى لم أعرف صاحبه شخصياً .

واستغرق حمدى فى الضحك وهو يقول : صحيح ؟ . . إنه يزعم أنه صديقك ، وأنه كان يسهر معك ، ويقول عنك كيت وكيت . .

وراح حمدى يقرأ لى بقية التقارير فكنت أجد بعضها يتضمن معلومات صحيحة عنى ، وأكثرها يتضمن أكاذيب .

قلت له : إن أكثر هذه المعلومات لا أساس لها من الصحة .

قال وهو يضحك : بينى وبينك ؛ إنها عملية استغلال لابتزاز الأموال وسأعترف لك ببعض ما ارتكبت شخصياً من النصب والإحتيال . . لقد كنت قبل الآن ضابطا فى المخابرات الفرنسية ، وكلفت بتوصيل مبلغ عشرة آلاف جنيه الزعيم عمر المختار الذى كان يقاوم الإيطاليين فى طرابلس إذ كان الفرنسيون يهتمون بتشجيع حركات المقاومة ضد الإيطاليين ، فلم أوصل لعمر المختار سوى نصف المبلغ فقط وأخذت الباقى لنفسى .

بل إننى سأعترف لك بما سيضحكنا كثيراً . هل تذكر يوم دعوتك

لتمضية ثلاثة أيام فى الإسكندرية . . هل تقابلنا فى الموعد الذى حددناه قلت لك إسبقنى إلى هناك لأننى سأتخلف يوما لسبب ما قلت ؟ . . هل تذكر هذه الحكاية ؟ . . بصراحة ، لقد قبضت من المخابرات مبلغاً بعد أن أوهمتهم إننى سمعت أنك ستسافر لعمل إتصالات خطيرة هناك ، وإننى لابد أن ألحق بك لمعرفة سرية هذه الإتصالات المزعومة .

سألته : وماذا قلت لهم بعد ذلك ؟

قال وهو يضحك : قلت إنك اتصلت بأحد بحارة السفن التى وصلت إلى الإسكندرية فى تلك الأيام ، واجتمعت به لأكثر من ٣ ساعات ؟!

نساء في حياتي !

وأنا إنسان ، بكل ضعف الإنسان ونقائصه ، لذلك كانت لي حياتي العاطفية أيضاً ، وعلى الرغم من أنني عرفت الجنس مبكراً قبل أن أصل إلى سن البلوغ وكانت لي علاقات متعددة مع الجنس الآخر ، إلا أن حياتي من هذه الناحية كانت سوية ، وأكثر الناس ، بل كلهم تقريباً ، لاتخلو حياتهم من المرأة ، بل وعندي أن من تكون حياته كلها بلا نساء ، لايكون رجلا كاملا ، ولايكون شخصا سويا !

عرفت أول إمرأة في حياتي وأنا دون السابعة من عمري ، وكانت هي في سن التخرج ... أي تقترب من العشرين تقريباً ، تسكن شقة في نفس المنزل الذي نقطنه ، وكنت أتردد عليها لكي ألعب معها ، وكنت ربما لم تلتقط أذناي سوى بعض أسماء وأشياء وكلمات لم أرها ، وكنت أتصورها كما يرسمها خيالي ، وقد ارتحت كثيراً حين طلبت إلى هذه الصديقة الكبيرة أن أصحبها إلى دورة المياه ، وأطعتها بادىء الأمر ، ولم أقترب منها ، ولكن فجأة نشط خيالي ، واشتد شوقي لرؤية تلك الأشياء التي حكيت أسمع عنها دون أن أراها ، ووجدتني أتلصص وأقترب من المكان الذي دخلته ، وأسترق النظر من خلال فتحة الباب الغير محكم ، ومن العجيب أن هذه الرقاعة قد أعجبت صديقتي وتحول سرورها في المناداة علي حتى اقتربت منها .

وتطورت المسائل بسرعة ، فأخذتني إلى حيث وضعت لي وسادة ، وراحت تعلمني ألف باء الجنس ، دون أن أفهم كلامها ، وكانت مرة تأخذني في حضنها ومرة تنبهه بأجزاء من جسمي وأنا أبكي وأصرخ من عنف ضماتها وقبلاتها .. وعندما هدأت بعض الشيء ، حذرتني من أخبار أي إنسان بما كنا نفعله .

وعجبت لسذاجتي — إذ ذاك طبعاً ! — وسألتها .. ولتشكر له ؟ ... وارتاحت القول ، وهددتني بالويل والثبور ... أي منع الشيكولاته والملبس وكل ما كانت تغدقه علي ، هذا علاوة على أنها سوف تعرض الأطفال عندي وتمنعهم من اللعب معي .

وعبثاً حاولت الصديقة الشابة أن تروضني على اعتياد هذا الوضع ، ولكن طفولتي جفلت منها ، وهربت فراراً من قسوتها ، واعتبرت تلك المحاولات إعتداءاً مؤلماً موجعاً لا قبل لي بإحتماله ، ولامعنى لإكراهي عليه ، ولعل هذا هو الذي يجعلني — حتى الآن — لا أحب المرأة الفاجرة غير المحتشمة ولا أطيق الجريئة غير الخجول .. فقد صادفت — بعد سنوات — في فترة من حياتي سيدة صغيرة وبينما كنت أنظر إليها بإشتهاء ، كانت هي أيضاً تبادلني نفس النظرة ، ولم تلبث أن كررت معي نفس الخطأ الذي أرتكبته الأولى ، عندما حاولت بجرأة ، أن تدعوني إليها ، وبمركانة جريئة أيضـــاً حاولت أن تروضني ، فأصبحت بنفس الغثيان ، وهربت منها !!

ومع أنني لم أكن ذلك الشاعر المتصوف الذي قال يخاطب ربه :

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت	يا عبادي أتقـــون !
وأنت جميـــل تحب الجمال	فكيف عبادك لايعشقون !

إلا أنني كنت أعبد الله في أروع أعماله أيضاً .. تلك النـــماذج الحية الرائعة من بنات حواء .. وكنت أرى في كل منهن لونا مختلفا من الجمـــال لا أراه في الأخريات ، فأتساءل .. إن الله سبحانه له في ذلك حكمة .. ترى ما هي هذه الحكمة ؟!

أهي قدرة الخالق على صنع مئات ، بل ملايين الملايين من النماذج للمرأة

دون أن يتكرر نفسه وتظل كل منهن كبصمة الأصبع لا تتشابه ، ولا تتكرر مهما ظن الذين لايفهمون الجمال ، أن المرأة فى النهاية نموذجاً واحـــداً لا أكثر ولا أقل !

إن الإنسان ليحار أمام كل ذلك الجمال ، كما وكيفا ، وقديماً قال أخناتون ، إن الله يطل من العيون الجميلة ، ولقد خبر أخناتون آلاف من العيون الجميلة فى وجوه الجوارى والمحظيات اللاتى كن يملأن قصر أبيه ، وكذلك كنت أنا مثل أخناتون — الفرعون المصرى القديم — أجد فى غرامى بالجمال الحى نوعا من العبادة أو نوعا من التصوف ، أو لعله نوعا من العشق الإلهى ؟ ؟

وأيا كان الرأى فى هذه الفلسفة ، فإنى لم أصل إلى ما وصل إليه شاعرنا الشعبى العبقرى للزهوب بيرم التونسى ، حين قال متفلسفا

تعرفنى ليه يارب وأنا عبدك	وتقل عندى واتعشق منك ومن عندك؟
أنا كنت فى الدنيا باتفرج على ملك	قال عنك صنعتى ، لكن هنا حكمى !

ولا أنكر إنى تفرجت بما فيه الكفاية ، بل وحتى فقدت ، الهيئة ، وصرت أتذوق كل نوع من الجمال — خصوصاً الحى ! — متأملا ، متمهلا ، فى تؤدة وفى استيعاب !

وأقسم إنى مازلت ، والحب ، فى حياتى إلا مترفعاً كبير النفس ما حاولت قط أن أصل إلى قلب إمرأة بالغـــدر ، أو الكذب ، أو الافتراء . . وكان الأصدقاء يقولون لى . . اكذب على النساء . . أخدع بنات حواء . . فالمرأة تحب من يخدعها . . ويكذب عليها . . ولاتنسى أن الكذب والخداع مباحان فى الحب والحرب !

ولكنى لم أستسغ أبداً هذا التبرير ، وكنت رجلا فاضلا مع كل من عرفته لا أقدم لهن نفسى مدعيا أو مبالغا ، أو على غير حقيقتى . . ولم أقدم فى حياتى للمرأة التى تروقنى وعداً إلا إذا كنت أعلم أننى أستطيع تنفيذه .

ومع ذلك ، وربما من أجل ذلك ، كانت علاقاتى فى شبابى الباكر كثيرة ، ولكنها لم تترك بصمات على سمعتى ربما لأنها لم تخلف أثراً سيئاً واحداً . . لم أترك فى نفس إمرأة أو حياتها جراحاً لاتندمل ، بل — ولست مغروراً — تركت دائماً ذكريات ، وقصصا جميلة لاتنسى !

لذلك ، كانت صدمتى قاسية ، عندما حاولت إحـــداهن أن تتهمنى بما لا يتفق وطبيعتى وأخلاقى ولكن الله نجانى من زيجة كادت تضم إلى صحيفة سوابقى ، فى الزواج !

لقد جاءتنى تلك الإنسانة ذات يوم ، وطلبت إلى أصحح وضعا — كنت واثقا أنه لايد لى فيه — وأن أستدعى مأذون الحى فوراً . . ولم أناقشها . لقد كنت أعرف أنها تتوبكل تأكيد أننى لست المتهم وإنما أنا ضحية ونظرت إلى عينيها فوجدت ذلك الذل والانكسار الذى يظهر واضحاً فى عينى ، وإدماءة ، تريد أن تتزوج حالا لتغسل عاراً يوشك أن يلحق بها ، وقررت إلا أجرحها ولكنى قررت فى نفس الوقت إلا أتورط . . فقلت لها . . فليكن . . نستدعى المأذون كما تطلبين . ولكنى أصارحك منذ الآن بأن هذا الزواج لن يدوم لأكثر من أسبوع . . إنه مجرد ورقة تعطيك وضعا قانونياً . . فضلا عن شىء آخر . . فلعلك تعرفين بالطبع إننى إنسان فقير لا أملك قرشا يوماً . . وبالتالى فإن طفلك لن يحصل منى على ثروة . . بل إنه — فى هذه الصفقة — سيرث مشروعا !

وبكت الفتاة وقالت : هل معنى كلامك إنك تظن أننى جشعة أصب عليك ؟!

ولم أرد ، فقد شعرت إننى أوشك أن أخطىء . .

وجمعت تلك ، الإساءة ، بربها الأسود . ونهضت وهى تقـــول بصوت خافت : إننى أشكرك على أى حال . . فقد كنت صادقاً على . .

ومدت يدها وصافحتنى ، ولم أرها بعد ذلك أبداً !

... وتزوجت !

أدى القبض على عدة مرات ، إلى جو ، تفاهم حاد مع عائلتى رغم تعاطفها معى ، ولكن ، بجدلة ، العائلات . وإهدار كرامتها لم يمكن بالشىء الذى يحتمل ، وهكذا استأجرت مع أصدقاء من الفنانين حجرتين متواضعتين فى درب اللبانة بالقلعة . حيث الحى المعروف بحى الفنانين وفرشتهما بالحصير ، وأعددت لهما مقاعد من الجريد وسعف النخيل ، واخذت عينى أفكر فى مشروعاتى القادمة .

وبينما أنا أخطط للمستقبـــل ، اقتحمت حياتى ألوان من النسوة أشباه الساقطات ، شغلن الفراغ المروع الذى كنت أعيش فيه . واستنفدن من شبابى وحيويتى فترة كان يمكن أن تكون أنضج وأحلى وأكثر ازدهاراً من كل ما فات .

وقد صحوت فجأة وانتبهت إلى الوحل الذى كدت أغرق فيه ووجدت نفسى أبحث عن الشاطئ الحقيقى السليم . وحقيقة أننى كنت أجد فى تلك الحياة الكريهة البغيضة متعة رخيصة ولذات عابرة ، ولكنى عندما نظرت حولى ، لم أجد واحدة من عرفتهن تصلح لى أو أصلح لها . . ثم تذكرت واحدة كانت إبنة وزير سابق وكانت دائماً تنظر لى كمعجبة بواحد تعتقده من أصحاب الرسالات ، ولكن البون كان شاسعاً بين مستواى العادى ، ومستواها . . فابتعدت عنها مسرعاً . ثم تذكرت واحدة من قريباتى . . كان أهلها ينظرون إلى باعتبارى أتطلع إلى أعلى مما أستحق . وبدورها أيضاً ، فلذت منها بالفرار ، فأنا أكره نظرة الإشفاق ، حتى ولو كانت من أجمل امرأة .

ثم فكرت فى فتاة ثالثة . كنت قد تعرفت بأسرتها عن طريق صديق كان متزوجاً من أختها الكبرى . وكالعادة . كان لزوج الأخت مجهوداً فى البحث عن عريس للأخت الصغرى . . ولما أن سافر الصديق فى مهمة طويلة كموظف

بالقتل الكبير. وكنت بدورى — فى الوقت نفسه — مطارداً من البوليس، متنكراً فى ثياب أخرى، وكان ذلك الصديق قد استحلفنى أن أقضى الفترة كلها فى بيت أسرته مدة غيابه. وقبلت تحت إلحاحه. وقد كلفتنى هذه الثقة التى وضعها فى صديقى أن أحافظ عليها وأكون جديراً بحسن ظنه، وبالرغم من أن أهلها — أخت زوج صديقى — كانوا يتعجلون زواجها منى بالذات — ولا أدرى لماذا؟ — ولكنى أعتقد أنه صديقى الذى زين لهم هذا بإحاطاته مشجعة من أخلاق وربما من إرادتى أيضاً! إلا أننى رغم إعزازى للفتاة ولأسرتها، ولصديقى أيضاً، كنت لا أفكر فى الزواج.

ثم حدث أن قبض على وأرسلت إلى سجن الأجانب. فكانت تلك الفتاة التى أحبتنى حباً جارفاً تزورنى فى السجن. بل كانت هى الشخص الوحيد الذى يزورنى فى تلك الفترة، وقد أثر هذا على وجدانى كثيراً. فقلت لصديق بعد خروجى من السجن، لقد كنت عند حسن ظنك، وبالرغم من أننى أحببت فلانة، بقدر ما أحبتنى. إلا أنها لا تعرف هذا حتى الآن. ولا داعى لأن تقول لها شيئاً فلست أنوى الزواج فى الوقت الحاضر..

ورأيت فى وجهه تعبيراً ارتحت إليه فقد ازداد إعجاباً بصراحتى وإن كان أصيب بخيبة شديدة فى أمله لفشل مشروعه فى تزويجى من أخت زوجته.. ومرت الأيام تباعاً.. وعدت أذكرها وأنا ألتمس الخلاص من حالة الفراغ العاطفى الذى عشت فيه ببيت الفنانين.. ولا أدرى حقيقة ما هو ذلك الشىء الذى ينادى القلوب المتآلفة. إذ لم ألبث أن تلقيت رسالة منها. تقول فيها أنها ستصل إلى القاهرة — وكانت إذ ذاك فى بلدتها من أعمال دمشق — وحددت لى موعداً للقائها أمام تمثال نهضة مصر. فهرعت إليها، ودعوتها لتناول الغداء فى مطعم البسفور. وقلت لها على الغداء، هكذا فجأة بلا مقدمات: لقد استقر رأيى على أن أتزوجك اليوم.. بل الآن.. بعد الغداء. لن نقيم حفلة ولن نفعل شيئاً، بل سنعقد قراننا أولا.. ثم نفعل بعدها ما تقترحين.

قالت وهى تبتسم: وأهلى.. هل نسيتهم؟.. ألا نستأذنهم؟

قلت: نستأذنهم فى ماذا!.. وهل يستأذن الإنسان فى مصيره.. فى حياته؟

وشعرت أن ابتساماتها تتسع، وغرابتها تزداد، فقلت لها فى حسم: أنا لم أعرض عليك هذا المشروع قبل اليوم، ولن أعود لأكرر العرض بعد اليوم! فكرى فى الحال، وأرى أن تعكسى الآية، فتفكرى فى نفسك أولا إذا كنت راضية مطمئنة، بل سعيدة بهذه الفرصة، ثم يمكنك بعد ذلك أن تفكرى فى الناس.. أختك وأمك مثلا.. يمكننا أن نقيم لهم حفلة نقدم فيها دبلتى خطوبة. ثم وبالتدريج، نصارحهم بعقد قراننا.. نحن لن نفعل شيئاً معيباً.. وكلانا تجاوز العشرين من عمره وأصبح حراً فى رسم خريطة حياته، ونحن على كل حال لن نتجاوز المباح والمشروع.

قالت ونحن ننطلق إلى المأذون: أنا موافقة وأقسم لك.. ولكن ألا نؤجل هذا المشروع ولو لبضعة أسابيع؟

وأدركت بإحساسى ما يدور بنفسها فقلت أهون عليها الأمر: أعرف أنك لست على استعداد أنا بدورى فى حاجة إلى بعض الثياب، ولكن ما دمنا سنعقد قراننا الآن سراً ولن يتجاوز الأمر عقد القران، فلا داعى للعجلة إذن فى مسألة الثياب!

وقالت، وقد رأتنى أحيى بعض الأصدقاء فى الطريق: وهؤلاء المعارف الذين سهروا معا فى الطرقات! قلت لها: فى خلال أسبوع واحد سأشترى لى بنطلوناً رخيصاً، وأشترى لك فستاناً بسيطاً، ثم نعلن خطوبتنا فى حفل أبسط من الفستان وأرخص من البنطلون.. ما رأيك فى أننا سنقدم لكل مدعو «كاساتا» اشتريناها من محل «تاكى» بجوار سينما مترو؟

قالت: إذن فستكون الحفلة باردة!

قلت: تكفينا حرارة الحب، وسخونة المناسبة اللذيذة..

وأقيمت الحفلة فى بيت الفنانين ، وفى حجرة الفنان المرحوم رمسيس يونان ، وكان من المدعوين الذين حضروا إذ ذاك ، ولازلت أذكرهم حتى الآن ، الكاتب المعروف إحسان عبد القدوس ، والأستاذ الإنسان المرحوم أبو بكر حمدى ، والمخرج كامل التلمسانى ، والقصاص الفنان البير قصيرى.. وآخرين !

وتزوجنا . . وأقمنا بعد ذلك فى ملحق صغير ببيت الأسرة كانوا يعدونه فى بيوت زمان لتشوير الملابس ، فلا يكاد أن يكون حجرة بالمعنى المفهوم ، وكنا نستقبل فيه ضيوفنا — وما كان أكثرهم — وكنا قد أجدنا التكيف على أنفسنا ، واتخذنا من عدم وجود كراسى أو دواليب أو تسريحات أو سفرة أو مكتب .. كما قد اتخذنا من الفقر عموماً مادة للنكات والقفشات ، نضحك بها على أنفسنا ونسلى ضيوفنا أيضاً ، وفى خلال ذلك ، كنا نستكمل تأثيث بيت الزوجية ، قطعة بعد قطعة ، وكرسيا بعد كرسى ..

وعلى الرغم من أننا كنا قد اتفقنا على تنظيم عملية النسل ، وقد نجحنا فعلا فى السنة الأولى . إلا أننى فوجئت فى السنة الثانية بزوجتى وهى تقول إنها حامل ، بحجة إنها نسيت أن تتخذ الإحتياطات الواجبة ، خصوصاً ولم تكن حبوب منع الحمل قد اكتشفت بعد ! وسواء كان ذلك صحيحاً ، أو كان بسبب تهاون متعمد بناء على نصائح مستشارى زوجتى من العمات والخالات والجارات وأولهم حماتى طبعاً !

وقد انضممت إلى المجموعة بعض الخالات فى الأسرة . . إذ أذكر أننى سمعت بأذنى ذات يوم تحذيرا من أحدهن لصديقة ، من إهمالها فى تطويق ربع « دستة » من الأطفال على الأقل !

وقــد جاء أولادى الثلاثة تباعا .. وذهبت إرادتى هبـاء ، أمام

إصرار مجموعة المستشارين الخاصة بزوجتى !

ولم انتبه تماما إلا حين جاءت إحدى مستشارات زوجتى وهمست فى أذنى : مبروك .. الست حترضع بعد يومين ثلاثة بالأكثر .

وأفقت ساعتها إلى المصيبة التى توشك أن تحل ! فطالما حذرت إمرأتى من الاستعجال لظروفنا الصعبة . وبينما أنا أنتقل كل يوم من معتقل إلى سجن من الذى سيهتم بالمولود ؟ .. من الذى يعنى به ؟ .. هل نترك كفاحنا ورسالتنا لننقطع لتربية الأولاد ؟ .. لقد إحترمت بعض الأديان المسيحية بالرهبنة خلق طبقة تتفرغ لرسالتها الدينية ، بعيداً عن زخـرف الدنيا ومباهجها ، ومنها البنون ، فالأطفال مخلوقات صغيرة ضعيفة لايملك الإنسان إلا أن يحبهـا ، ولايملك إلا أن يرعاها ما استطاع ، فما بالك إذا كان الطفل من صلبه أو فلذة كبده ومن حشاه ؟!

وجلست حائرا لا أدرى هل أركز غيظى فى مستشارى زوجتى الجهلة .. أم فى زوجتى المتعلمة المثقفة التى لم تستطع أن تتخلص من غريزة الأمومة حتى مع ظروفنا الصعبة ؟

وجاء من يسألنى .. هيه .. ونويت تسميه أيه ؟

هذه إذن هى أول مسئولية للأب فى هذه الدنيا وما أسهل أن تمر فى حياة الناس ، وما أصعب أن تمر فى حياة رجل يقدس المسئولية إلى حد أنه يشبهها الفرط تفكيره فى !

ورحت أسأل نفسى : ماذا أسميه !

وأخذت أستعرض جميع الأسماء ، وأبحث عن أحلاها وأفضلها ، بعض

الناس يفضلون الأسماء التى تدل على معان مثل مخلص .. ورءوف وحنان وكريم وكريمة .. وشرف وشريفة وصبيح وسامح وسعيدة ، ومصلح وهانى ومنية .. وبعضهم يفضل أسماء أخرى منحوتة من الزهور والشجر وغيرها .. بل هناك بالفعل أسماء صبر ومسك وورد وفل وياسمين ونرجس وكاميليا وروائح وأريج .. الخ .. وهناك من يفضل أخذ الأسماء من الحيوانات مثل أسد ونمر وفهد وقط ونسناس وقرد وكلب !

ولا ننسى الذين يأخذون أسماءهم من الكواكب مثل شمس وقمر وكوكب ونجمة وزهراء .. لغاية زحل ! أما الذين يحبون أسماء الملوك والعظماء فيطلقون على أولادهم إسم ملك .. ووليم .. وريتشارد .. ومن المتدينين من يسمى محمد وأبو بكر وعثمان وعلى وسائر الخلفاء الراشدين .. ومن الثوار من يسمى إبنه لينين ..

ووقفت عند كلمة لينين .. ووجدت أنها تصلح من نواحى كثيرة .. فهى اسم لثائر عالمى لم يعرفه التاريخ .. ولم يعرف نظيراً له ، ومن الناحية الوطنية هو تخليد لأكبر صديق للشرق العربى عرض على سعد زغلول معاونة الثورة المصرية بالمال والسلاح ، وعهد إلى سكرتيره أن يتفرغ لدراسة المسألة المصرية ، فلم يلبث أن أخرج أروع مؤلفاته وأعمقها دراسة .. كتاب كان المرجع الأول والأخير لكل من أراد أن يعود إلى الصراع بين الاستعماريين الفرنسى والإنجليزى ، ! وكيف نهبا مصرا ، وكانا يستحلبانها .. إنه كتاب « خراب مصر » !

وعلمت أن لينين الذى ألغى الإمتيازات التى كانت لبلاده فى شرقنا العربى ، وتنازلت روسيا فى عهده بمحض اختيارها عن منطقة أرارات .. وهو الذى رفع الإضطهاد عن مسلمى روسيا القيصرية ، وفتح لهم المساجد والمكتبات الإسلامية وأعاد طبع قرآنهم الذى بذل جمال الدين الأفغانى المحاولات فى سبيل إقناع القيصر الثانى بطبعه دون جدوى ..

ووجدتنى أصر على أن أسمى ابنى بهذا الإسم تكريما لخدماته فى سبيل مصر والشرق والإسلام .. وكنت قد فكرت قبلها لطول حيرتى فى أن أنتخب الأسماء المرشحة وأضعها فى جراب ثم أسحب ورقة منها تكون هى الإسم الذى يمنحه الحظ لإبنى .. ولكنى عدت فاستسخفت الفكرة ، وقلت فليكن له الإسم الذى أختاره أنا .. فهذا حظه أيضاً ، وقد كان حظه هو الذى جعلنى أنتخب له هذا الإسم .

وقد ولد ابنى فى ظروف جعلته يكره السياسة ، ويغضب على الثورة منها ، فهو لم يجد من ورائها سوى شقائنا وكل آلامنا ودموعنا ، ولعل أنفس ما كل العطر إذا وجدت لينين الحديث يتجه إلى الفن وهى رسالة على كل حال تخاطب المشاعر والوجدان بلغة راقية . وإن كان بذلك يختلف اختلافا جذريا عن لينين القديم .. الرجل صاحب كل تلك القيم الإنسانية العظيمة .

إشتغلت دادة .. ومرضعة !

فدوت إذا ، أبا لينين ، على الرغم من كل ما بذلته من نصائح مع أمه لعدم إنجاب أطفال ، إلا في ظروف تكون فيها أسعد حالا ، لكنها لم تكن تؤمن بتنظيم النسل ، فقد تقاعست عن إنقاذ الكثير مما فكرنا فيه معا إنقاذا لنا بل إنها استعدت — بعد إنجاب لينين — وفى الحال ، لانجاب البنت التالية له واتفقنا على تسميتها « جهاد » !

وكان القدر يغريها بتلك البنت الخالدة . جاءت جهاد ولدا . . بل وكان من يومه رجلا أجش الصوت ، طويل القامة ، حاد الملامح ، واضح العبارات إذا تكلم فكأنه يأمرك أو يعنفك . شخصيته صارمة حازمة رغم ما فيه من وداعة ، وطيبة ، وحسن طباع !

لم يخرج كما تصورنا ، أو تصورته أمه . بنتا . . . بل جاء أبعد الناس عن صفات الأنثى . . . الناعمة . . المستحية . . ثم جاءنا « عادل » أميل إلى الأنانية وقد ورث عن أبيه التمرد ، وعن جيله الغرور !

وحدث أن تلقينا دعوة للاشتراك فى المؤتمر النسائى الديموقراطى العالمى وسمعت أن الهيئات النسائية الرجعية تنوى مقاطعته ، بل ومهاجمته وفكرت فى أن تحضره زوجتى سعاد ، ولكن بأية صفة ؟

إن السيدة سعاد عاملة ، وقد تكون سكرتيرة أو زوجة متفرغة ، لكنها على أى حال لاتخرج من كونها عاملة من العاملات ، فلماذا لاتمثلهن فى المؤتمر ؟

فلتجمع التركيلات ، ما دامت ليست عضواً فى هيئة نسائية ، ولتذهب بهذه التركيلات إلى المؤتمر ، فإن هذا يكون أكرم ، وأصح تمثيلا . .

وسافرت زوجتى إلى فرنسا ، وتركت لى « لينين » وهو فى الشهر الأول من عمره ، وجئت له بمرضعة ، ولكن بعد أسبوعين ، لاحظت أن للمرضعة قذارة وأن عينى الطفل ملتهبتان دائماً . . ثم وجدت الصديد قد زحف إلى جفنيه فأخذته إلى الطبيب الذى قرر أنه أصيب بميكروب « الجونوكوك » وأن هذا الصديد يخشى أن يغشى بسحابة على عين الطفل ، ويلزم أن تغسل له عينه عدة مرات فى الصباح ومثلها طوال الليل . . كما استقر رأيى مع الطبيب على إبعاد تلك المرضعة عندما اعترفت بأن ابنتها مريضة ، وأن « لينين » أخذ العدوى منها حيث كانت ابنتها تنام على صدرها فى نفس الموضع الذى ينام فيه ولدى ! وزادت مسئولياتى . إذ اشتغلت دادة ، ومرضعة معا ، فكنت طول الليل أسهر على رضاعته من اللبن الصناعى . ثم أغسل له عينيه ، وأضع له القطرة مرات عدة حسب أمر الطبيب ، تناوبنى جدته العجوز — أمى — هذا إذا كانت تستطيع ومعها !

وحان موعد عودة أمه ووصلتنى منها برقية تقول فيها أنها سعيدة ولا ينقصها سواى ، أنا ولينين . !

وجاءت أخيراً ، وفى اليوم التالى مباشرة هاجمتنا النيابة ، وعثرت على البرقية وكانت مأساة ، أو لعلها كانت ملهاة من الطراز الأول ، فقد كان ثمة وكيل نيابة فى الفترة التى هاجمتنا فى تلك الليلة ، أصر على أن يأخذ الطفل لزوم التحقيق فى البرقية ! ويضعه فى احراز ، ويختمه بالشمع الأحمر ، إلى أن ينتهى التحقيق فأكتب طلباً على ورقة دمغة لاستلام ابنى هذا إذا لم يكن ثمة مانع قانونى آخر يحول دون استلامى إياه !

الشلة تدخل الانتخابات

كنت فى ذلك الوقت شاباً صغيراً .. صغيراً فى كل شىء ، فأنا من ناحية لم أتجاوز الثانية والعشرين من عمرى عضواً صحفياً .. أشتغل فى أربع أو خمس جرائد ، حتى أعول نفسى ، وأسرتى ، وأعول بعض أصحابى الذين كانوا أشد منى فقراً ومسغبة .. كنا نتقاسم « السندوتش » كما نتقاسم فنجان الشاى ، ولكننا نجلس فى نهاية الأمر سعداء ، نفكر فى مستقبل بلدنا ، ونحلم بأننا سوف نقبله من عثرته يوم تتحقق أحلامنا ونزيح من طريق الوطن أولئك الزعماء الفاسدين والساسة الانتهازيين .

ونطلق خيالاتنا البريئة — بلا خمر ولا حشيش — فتطير بنا إلى حيث نحلق فى الأجواء العليا .. ونرى المجتمعات التى نتوى صنعها بأيدينا .. نعم .. كان يلذ لنا أن نرى تلك المجتمعات بلا متاعب . وبلا حروب وبلا صراع .. لا يعيش فيها سوى طبقة عامة من الملائكة ومثقفين من القديسين . وزعماء من الأنبياء المعصومين .. وكانت خيالاتنا تسبح بعيداً عن الواقع المــؤلم والمستقبل القريب المظلم ولكننا كنا نتعجل ذلك كله ونتعجل التطور . ونحاول دفع عجلته إلى أقصى قوة عودانا إلى الأمام !

لذلك ما إن إجتمعت شلتنا فى قهوة الخراجة بعطوف بعد التحول المتفرع من سليمان باشا — ولم تكن أكثر من شلة ! — حتى دار الحــديث عن السياسة المحلية . ولا أدرى كيف تدرجنا منه إلى الإنتخابات . وعض كل منا على شفته ، وتحسر على أن أحداً منا لم يبلغ الثلاثين من عمره ، حتى أصبح فى إمكانه أن يرشح نفسه فى أول انتخابات قادمة فقد خيل إلينا أن الناخبين سوف يستجيبون لدعوتنا ويثقون ببساطة فى حسن نوايانا نحوهم .. نقول لهم مثلاً نحن الفقــراء مثلكم فيصدقون ! ونقول .. نحن أصحاب مبادىء ولسنا

إنتهازيين .. فيؤمنون .. ونقول طالعوا برامجنا التى أعددناها لكم فيوافقون ويؤمنون ثم يصفقون ويهللون !

ولم نكن نعرف إذ ذاك أن الظروف ستحقق لنا طرفاً من أحلامنا المتحمسة بعد ذلك ما شاءت .. ففى أواخر سنة ١٩٤٤ أعلنت وزارة أحمد ماهر التى كانت قد تولت الحكم فى أكتوبر من ذلك العام ، أنها ستجرى انتخابات جديدة فى يوم ٨ يناير من العام الجديد .

وهرعت إلى زملائى أحمل إليهم النبأ وأسألهم عما سوف يفعلون . فرأيتهم جميعاً يستبعدون الفكرة من أساسها .. فليس فى أيدينا مال ، وليست لدينا تذاكر انتخابية ، وليس فينا واحد يبلغ السن القانونية للترشيح .. وجلسنا إلى آخر الليل وأنا أحاول إقناعهم وأذلل كل عقبة . فقلت أن المال نستطيع أن ندبره ولو عن طريق فتح اكتتاب شعبى من الناخبين ، والتذاكر الإنتخابية نحصل عليها فى ديسمبر قبل الإنتخابات وشهر ديسمبر قريب .. والسن القانونية ليس لها أهمية ما دمنا لن نستهدف النجاح الحقيقى فى تلك المرة ، إذ لن يكون لنا سوى هدف وحيد .. هو أن نمارس التجربة ، ونرى ما يكون عليه استقبالنا عند الجمهور وإلى أى مدى تنجح طريقتنا فى تعليم الناس نوعاً جديداً ، نظيفاً ، من المعارك الإنتخابية !

ولم أيأس من كلام الزملاء بل رحت أحاسبهم فى سرى .. كيف يتصورون أن مبادئنا الجديدة لا تقوى على هذه التحديات البسيطة ؟ .. وقررت فى لحظة حماسة للإنتخابات أن أخوضها بنفسى ، وكما كنت فى أول منشور لى .. وبلا لقب ، ولا مال ، ولا عصبية ، ولا حزب من الأحزاب ، ! وكنت بالفعل أشعر بفقرى ، وصغر سنى ، وضآلة شأنى فى المجتمع ، ولكن إيمانى الجديد بالإشتراكية كان يملأنى اعتزازاً وثقة ، وأنا أحمد على مبادىء أقوى من أن يقف أمامها خصومى ، وأن هذه المبادىء جاهاً يعلو على كل جاه ، وسلطاناً أقوى من كل نفوذ وسلطان .. لذلك كنت أكاد أختال وأنا أسير فى الدائرة متخايلاً

على بقية منافسى السمة ، ورغم اقتراب موعد إقفال باب الترشيح ، كنت لا أزال أفكر من أين آتى بقيمة التأمين ، وكان إذ ذاك مائة وخمسون جنيها كاملة — وهو مبلغ ضخم — وأيقنت أن المشرع الرأسمالى أو الإقطاعى قد اشترطه لكى يسد الباب فى وجه من يفكر فى ترشيح نفسه من الشعب ، وهى مسألة حساسة عندى ، فقررت أن يكون أول ما أعلنه للناس ، الفقراء بالذات ، هو كيف يدخلون الإنتخابات رغم الأنوف ! وكتبت رسالة طبعتها على ماكينة الرونيو ، ناشدت فيها العمال الذين أعرفهم أن يمدونى بمساعدات مالية — هذا إذا راقت لهم فكرة ترشيحى على المبادىء الإشتراكية — وأرسلت نسخا منها إلى ثلاث أو أربعة جهات ، الأولى إلى بعض طلاب الجامعة الذين كنت أعرف بعضهم ، والثانية إلى نقابة عمال الطباعة وكانوا يعتبروننى مستشاراً وزميلا لهم ، وكانوا إذ ذاك يسكنون فى دار المجلس الأعلى للعمال بشارع جامع شركس .. كما أرسلتها إلى بعض زعماء عمال النسيج فى شبرا الخيمة كالمرحوم الزميل فضالى عبد الجواد الذى كان أول من تلقيت رده مدعما ببعض المال الذى أكتب له به زملاؤه فاقتسمه معى . إذ خصنى ببعضه وقال معتذراً أنه دفعة أولى ، وسرعان ما ألحق به فعلا مبلغا آخر .. كما وصلنى بعض المال من عمال الطباعة المتعطلين فى ذلك الحين ، أما طلبة الجامعة فقد أرسلوا إلى خمسين جنيها دفعة أولى مع وعد بأن تتلوها دفعات . وزارنى المرحوم الإنسان أبو بكر حمدى سيف النصر (نجل حمدى باشا سيف النصر ، وزير الحربية الوفدى) ، وقال إنه سمع بما اعتزمته من دخول الإنتخابات وأنه يتعهد لى أمام ضميره بأن يجمع لحسابى اكتتابات من الأغنياء تغطى مبلغ التأمين ، أما نقود العمال والطلبة فعلى أن أدخرها لنفقات المعركة الإنتخابية إذ أنها — الإنتخابات — ستحتاج إلى كثير .. وغاب عنى أبو بكر أياما .. وانتابنى خلالها اليأس والقلق .. فرحت اقترض بقية المبلغ من أقاربى وأخوتى ، حتى إننى رهنت مصوغات زوجة أخى حسين .. وبقى جنيه واحد على تكملة المبلغ ، فذهبت إلى صديق الأستاذ لطف الله سليمان مدير المبيعات وقتها بمكتبة النهضة فاقترضته أيضا ، كما اقترضت عشرة قروش أجرة التاكسى الذى أرسلنى إلى مبنى المحافظة حتى

ألحق بالكاد خزينتها قبل أن تغلق ، وهناك دفعت المبلغ وقفلت راجعاً إلى البيت وأنا أفكر فى غياب الصديق أبو بكر وأقول لعله لم يستطع جمع المبلغ كله .. ثم أعود فأرد على نفسى معاتبا .. ولكن لماذا لم يقل لى بالصراحة ؟ .. لماذا كاد يضيع على فرصتى الأخيرة ؟.. وقطعت سلسلة أفكارى عندما وصلت إلى البيت ووجدت المرحوم أبو بكر واقفاً منتحيا ومعه المبلغ كله ، وفوقه خمسة جنيهات ، وكانى — عندما رأيته — مخبوت من المفاجأة ، فقد كنت فى زحمة الجرى من أجل جمع مبلغ التأمين قد نسيت ما حولى ، والآن ، وفجأة ، أحسست بالمسئولية ، وتهيبتها .. ووجدتنى التفت إلى صديق الحبيب وأسأله .. هل هؤلاء الناس الذين دفعوا لك يعرفون نصيبى الضئيل جداً من تأييد الناخبين فى الدائرة ؟ .. هل يعلمون مقدما أنهم يقامرون بنقودهم فى لعبة خاسرة بنسبة ٩٠ ٪ تقريبا ؟ .. إنى غير معروف فى الدائرة ، وليست لى عائلة ولا عصبية ، ولا أحكم من طريق عمل أديره فى أصوات الناخبين ولا .. وقاطعنى الصديق أبو بكر ، رحمة الله عليه ، وقال : — هون عليك .. أنهم يعرفون كل شىء ، وهذه الظروف بالذات هى التى جعلتهم يدفعون بل ويتبارون فى الدفع .

وضحك وهو يلتقط أنفاسه ويقول مستطردا ، أنهم زوار الصالونات .. ألم تسمع عنهم ؟ .. إنهم حفنة ممن قرأوا عن الإشتراكية فسحرتهم ودرسوا فائض القيمة والثمن والربح فأحسوا أنهم أنذل طبقة ، الطبقة المستغلة التى تمتص دماء الفلاحين والعمال ، وهم الآن يحسون بلذة فائقة إذ يتبرعون بهذه المبالغ البسيطة التى لا تكاد تكلف شىء .. ولا لتغطية واحدة من سهراتهم المجنونة ، دون أن يتحملوا أية تضحيات ..

وعندما رآنى الصديق ما زلت أنظر إليه مستفهما قال : ألا تعرف خطورة ما أنت مقدم عليه ؟ .. أنك بهذه الإنتخابات التى تدخلها إنما تعرض حياتك نفسها للخطر ، أو تدمر نفسك تدميراً .. فهون عليك يا أخى .. ولا تقلق بالك بترهات ، وخيالات ..

وتأملت صديقي لحظة ، فهو ابن ذوات ، شكلا وموضوعا — رغم طيبته وإخلاصه — والده حمدي باشا سيف النصر وزير الدفاع في حكومة الوفد ، وأحد أثرياء الفيوم ، وأمه من أسرة راتب الغنية التي كانت يوما تسكن قصراً من قصور عابدين والتي اشتركت أمها بدور ضخم في ثورة ١٩١٩ .

واستعرضت أسماء من كانوا يؤيدوننا من تلك الطبقة ، جورج حنين ابن صادق باشا حنين ، والسيدة « بولا » مطلقة فؤاد سلطان وابنة حامد « بك » العلايلي وكيل مجلس النواب إذ ذاك ، ومجدي وهبة ابن مراد باشا وهبة ، والمهندس تحسين المصري ابن حسن نبيه المصري باشا عضو مجلس الشيوخ . .

وأحسست أن القائمة ستطول إذا حاولت الإحصاء الدقيق !

وسرحت مع خواطري وأنا أستعرض الأسماء وأتساءل بيني وبين نفسي هل هذه المتناقضات في الطبقة الواحدة ، أهي من علامات التفسخ ؟ . . أهي بشير بزوال نظام الطبقات من مصر ؟ . . وابتسمت إذ كنا قد اعتدنا هذه المظاهر ، فمحمد محمود باشا الذي كان يرأس الأحرار الدستوريين ، أو حزب « البيرتات وأصحاب المصالح الحقيقية » كما يسمونه ، أي حزب الأرستقراطية الأصيلة ، كان يتأرجح في تصريحاته السياسية ، فمرة يقول في عنجهية واضحة . « أنا ابن من عرض عليه الملك ، فأبى . . . » إشارة منه إلى أن أبيه محمود باشا سليمان كان قد رفض تعيين الإنجليز له ملكا . . ثم يقول في تصريح آخر مناصراً أزمة الأرستقراطية في نادي الفروسية سنة ١٩٣٩ . . يقول لأحد الصحفيين وهو يركب سيارة فارهة تسد شارع الفلكي طولا وعرضا . . « أنا أفخر بأني فلاح ابن فلاح » !

وما كان أشبه مجتمعنا المصري في ذلك الوقت بالمجتمع الروسي في أواخر عهد القيصرية ، نعم ، فقد كان الأمراء والنبلاء هم الذين يتصدرون الكفاح ضد طبقتهم ، فخرج من بينهم ذلك البرنس الإرهابي الذي اغتال الراهب الفاجر

راسبوتين ، وخرج منه « بروتكين » الفوضوي ، الذي ظل يدعو إلى تحريم كل الضروب من كل الحكومات . . . وخرج من نفس الطبقة ، الشيوعي الخيالي . . الكونت تولستوي الذي وزع أراضيه الواسعة وأملاكه العريضة ، ثم مات من الجوع والبرد فوق أريكة من الخشب في محطة سكة حديد !

وانتهيت من تأملاتي ، وأخذت أقص على صديقي كيف أنه قبل أن يقفل باب الاكتتاب جاءني الكاتب المصري الفنان ألبير قصيري — المقيم الآن بفرنسا — وكانت له مجموعة قصص عن الحياة المصرية بالغة الروعة ، ولم يكن ينافسه إذ ذاك أحد ، ولكنها كانت مكتوبة باللغة الفرنسية وقد ترجمت بعضها إذ ذاك في مجلة التطور التي أصدرناها في وقت ما . .

جاءني إذن الفنان ألبير وقدم لي خمسين جنيها قال أنها تبرع من المليونير اليهودي ، هنري كورييل ، وابن خالته « ريمون أجيون » ، وقال أنه سيجمع مبالغ أخرى من أناس ذكر أسماءهم . . « موريس هراري » . . « جون ستالون » . . « سوسو حزان » . . « شفارتز » . . « سلامون » . . إلخ . .

قلت لصديقي إنني قاطعت الفنان ألبير وأنا أضحك وأقول : لا يا عم . . هذه الأسماء كلها أجنبية ومريبة ، وما جمعناه يكفي ويزيد (وقد ظهر فيما بعد أنها أسماء مشبوهة فعلا وقد استقر أغلبها في إسرائيل باعتبارهم صهيونيين وكانوا قبلا يزعمون أنهم شيوعيين ، وقد قسموا أنفسهم إلى فرق ، فالبعض يزعم أنهم اشتراكيون معتدلون من أنصار الدولية الثانية . أي أقرب إلى اليمين . . والبعض يزعمون أنهم شيوعيون يحاربون المجتمع الطبقي . . وفريق ثالث يزعم أنه ماركسي من أقصى اليسار ، من أنصار تروتسكي) . .

وكان ذلك التقسيم مناورة مقصودة لامتصاص درجات الثورية جميعا . .

فهكذا كانت عمليات المخابرات الإنجليزية التى كانت توجهم وبوجهونها .. وقد عرفت — فيما بعد — وبالصدفة ، أن أحدهم — جورج منالون — كان عميلا ، بل وخبيراً للمخابرات الإنجليزية فى الصين ثم استدعت إلى مصر فاحتل مكانه فى الشرق الأوسط ليكون خبيراً فى التخريب من الداخل — أى داخل المنظمات الإشتراكية التى ظهرت — وكان هو الذى اقترح تقسيم الصهيونيين التخريبيين على ذلك النحو الخبيث !

خبر من أربعة سطور !

وأعود إلى الإنتخابات .. لقد دخلتها فى مقر سكنى .. فى المنطقة التى تضم حالياً بين جزء من دائرة عابدين (مثل شياخات البلاقسة ، والسلطان حسين ، والجزيرة الجديدة ، والسقايين) ، وجزء من دائرة السيدة (كشياخات خيرت والدوارين ومنقر) ، وجزء ثالث من قسم قصر النيل (مثل الإنشا ، والمنيرة ، والعينى ، والعلمى وجاردن سيتى ، والإسماعيلية) .

وقد بدأت الحملة الإنتخابية بخبر من أربعة سطور نشرته لى جريدة الأهرام عن نزولى الإنتخابات فى تلك الدائرة على المبادىء الإشتراكية ..!

ومع أن العبارة بسيطة وتتكون من كلمتين فقط ، إلا أن قارىء هذه الأيام لا يتصور ما أحدثته من فزع وما أثارته من ضجيج ، خصوصاً فى الأوساط التى كانت تحكم البلاد .. واهتزت أسلاك البرق والتليفون تتساءل عن هذا الذى جرى لأول مرة فى تاريخ مصر .. ووقف أحمد ماهر باشا حائراً لا يدرى ماذا يفعل وماذا يقول ؟ .. فقد سبق أن قطع على نفسه وعداً بألا يشطب كلمة واحدة من الإعلانات الإنتخابية بالذات ، إذ كان حزب الوفد قد تحداه أن تجرى الإنتخابات حرة فى عهد الرقابة والأحكام العرفية ، وهم ينتظرون غلطة واحدة منه تفسد دعواه ، ورغم أن مشاغل الناس كانت موزعة بين مئات الدوائر الإنتخابية على مستوى الدولة كلها ، إلا أن العيون كانت متجهة كلها إلى دائرتنا ، والألسنة كلها مسلطة على معركتنا ، فالناس فى طنطا مثلا كانت تتحدث عن هذه الدائرة بالذات ، وقد تم هذا حين إعتقال البوليس عدداً من الشبان فى إحدى سيراتنا الإنتخابية ، فذكروا فى التحقيق أنهم من سكان طنطا وإنما حضروا ليساهموا معنا فى معركة دائرة محكمة السيدة .. وحضرات المراسلين الأجانب طاروا من بلادهم فى أمريكا ، وأوروبا ، بل ومن

السريد بالتزويج وأقصى دول الشمال.. جاءت بهم الطائرات ليخطوا أول انتخابات يجرى فيها رجال من الشعب على المبادىء الإشتراكية، في بلد حكمه الإنجليز، وبقيت حوله جماعة من الأفاقين، ورأسماليين الإحتكاريين، والإقطاعيين المتعفنين . .

وقد أعدت الحكومة عدتها وازدحمت الدائرة بأصناف المرشحين بلغ عددهم احد عشر، وكلهم من الزعماء المعروفين، كما كتبوا هم أنفسهم في لافتاتهم .. احمد حسين زعيم مصر الفتاة، الشاعر حسن زعيم الطلبة سنة ١٩٣٥ .. المرحوم إبراهيم رياض زعيم الحزب الوطني (كان كذلك ذات يوم) المرحوم عبد المجيد حلاوة، زعيم العمال، كما وصف نفسه في لافتاته، عبد اللطيف الأصيل زعيم الشباب، وأخيراً .. محمود كامل المحامي وقد وصف نفسه أيضاً بأنه زعيم حزب مصر الفلاحي .. الخ. وقد أطلق بعض الصحفيين والناخبين على دائرتنا اسم «دائرة الزعماء» وذلك على سبيل الدعابة والسخرية، ولكن هذا لم ينقص الإهتمام الأكبر والحاد في موضوع المبادىء الإشتراكية وكيف كان يقابلها الناس بالدهشة والارتياب والتحفظ في بادىء الأمر كشىء لم يسمعوا عنه بالقطع أو لعلهم سمعوا عنه ولم يفهموه تماما، بينما كان أنصاف المتعلمين الذين يحاولون التظاهر بمعرفة كل شىء يتظاهرون بمعرفته، ولكنهم كانوا في نفس الوقت يتشككون، أو يتهامسون، أو يسبون، أو يلعنون .. فمن جهل شيئا عاداه !

وكنا نعرف كل هذا بالطبع، ولذلك كنا نحاول أن نعامل الجميع بأكبر قدر من السماحة، وكنا نفتح باب المناقشة على مصراعيه أمام الجميع .. ولم نكن نضيق حتى بالذين نعرف أنهم يجيئون إلينا بقصد الهزء بنا، والإستهزاء بدعوتنا، حتى أن بعض شباب الفاشست ظنوا أننا نحن هنا عن خوف أو جوع، جاءوا ذات يوم وضحكات السخرية المتكلفة بادية على شفاههم من اللحظة الأولى، وظلوا في ضحكاتهم الرتيبة، بينما كنا نطيل في صبرنا، واحتمالنا، وكنا حاورناهم بمسألة ما قالوا أنهم فهموها

ثم عادوا يسألون فيها من جديد .. وكان أن نفد صبر البعض منا فقاموا وصفعوا الشبان الفاشست على وجوههم حتى تحطمت عوينات واحد منهم، بينما تبرأ منه زملاؤه، ومع أنني وبخت زميلنا الضارب، إلا أن النتيجة كانت طيبة، إذ لم نر وجوههم بعدها، وأقبل علينا زملاء لهم ظلوا معنا إلى آخر الخط آمنوا بمبادئنا وظلوا معنا بعد ذلك وإلى الآن، ويعتبرون من أحسن المناضلين، وفي مقدمتهم الأستاذ يوسف حمودة الذي مرض إذ ذاك أن يمثلني في لجنة الإنتخابات الموجودة في جنينة ناميش على ما أذكر !

تحديث الدكتور ماهر باشا

وقد دعاني رئيس الوزراء إذ ذاك لحضور الحفل الذي يقيمه في مناسبة عيد الجلوس أو الميلاد الملكي، لا أذكر! وذلك في قصر الزعفران، فذهبت إلى هناك وقد ارتديت البدلة الزرقاء.. بدلة العمال.. وكنت أرمز بها إلى أني عامل وأني أناضل في سبيل العمال، وهناك أدخلوني القصر، قصر الزعفران، لكي يفوتوا على فرصة الإحتجاج بمنعي من الدخول لحضوري بدون الأسمو كنج وللملابس الرسمية! ولكن الواقع أنهم أرادوا أن يحددوا إقامتي في القصر فقد احتجزوني في غرفة خاصة، وقالوا لي أن أحد كبار المشرفين سيحضر للتفاهم معي، ولكني انتهزت فرصة المرج وانسللت بالفرار حيث عدت إلى الدائرة الإنتخابية، وألقيت في مقاهي الدائرة خطبة قصيرة وصفت بها ما حدث، وكيف أن المائة عائلة التي تحكم مصر تحتقر بدلة العامل الذي يصنع الحياة!!

وبلغني أن الدكتور ماهر قال لبعض المدعوين في الحفل أنني لن استعيد قيمة التأمين الذي دفعته.. لأني لن أفوز بعشر الأصوات!!

وأترك للقارىء تفسير تلك النبوءة، أو فهم ما تنطوي عليه من تهديد!

ورددت على هذه الكلمات في إحدى المجلات، وألقيت القفاز في وجهه، وقلت إني استعداد أن يفتح باب الترشيح من جديد حتى يمكنني دفع التأمين عن دائرة اخرى، هي دائرة الدرب الأحمر، وكان صاحب الدولة قد قرر أن يناله بالتزكية بعد ذلك!

وهكذا.. كان يمكن أن تمضي الإنتخابات كلها في هذا التراشق، لولا إنني

حرصت أن أجعلها معركة مبادئ، وليست معركة أشخاص، فعدت أشرح للناخبين الاشتراكية وكيف أنها حل حتمي لمشاكلهم ولا بديل له، وكان يتعالى في كل مكان أخطب فيه هتاف، اشتراكيون رغم الأنوف... وكان البوليس يقبض على بعض العمال وطلبة الجامعة ممن يرددون ذلك الهتاف. وأذكر منهم الزميل محمد درويش، والمرحوم سيد قنديل للناضل العمالي المعروف والأستاذ سيد أبو زهرة (طالب حقوق إذ ذاك والمستشار ورئيس المحكمة الآن) وكنت بدوري أذهب إلى القسم لإخراجهم، ووقف هذا الإرهاب رغم أنني لم أكن محاميا بل كنت مستقلا في ذلك حصانة المرشح، وهي حصانة عرفية لا ينص عليها قانون، ولكني كنت أواجه المعتدين على القانون فيجبنون ويتراجعون في الحال.. ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما قبض على جماعة من المتظاهرين المؤيدين للاشتراكية في دائرتنا، وكانوا من شباب مصر الجديدة ولما ذهبت لإخراجهم، أصر الضابط صلاح حلمي على عدم الإفراج عنهم، فقلت له: إذن فأنا معتصم هنا بالقسم ومضرب عن الطعام منذ الآن حتى تحضر النيابة لسماع أقوالي..

وأفرج الضابط عنهم في الحال، بل ومزق المحضر الأبيض الذي كان قد تظاهر بأنه حرره!

وكانت التهمة دائما هي توزيع المنشورات، والمنشورات من طبيعة النشاط الانتخابي لكن الحكومة الرجعية لم تكن تحتمل مناقشة مشاكل المجتمع أو التعرض لأوجاعه، وكانت تريد منا أن نشتم المرشحين الآخرين أو أن أصف نفسي بأني خادم الفقراء ونصير العمال!

ولكن مظاهراتنا كانت تسير في الدائرة وهي تهتف... الأرض للفلاحين والمصانع للعمال...

. الاشتراكية علاج لكل مريض وعلم لكل جاهل... والاشتراكية عدالة وحرية وتأمينات إجتماعية... تسقط المائة عائلة... العمال هم الطبقة الصاعدة... الحكم للعمال والمستقبل للعمال...

وأردت أن اعرف الإشتراكية التي أرشح نفسي على مبادئها في كلمات سريعة

ومتحضرة ، فقلت في أحد منشوراتنا . . « الإشتراكية تمنع الاستغلال وتقضى على الأمية ، وتحارب الإقطاع ، وتقاوم الإستعمار ، وتناصر الفلاح وتحرر المرأة ، وتقضى على الإرهاب ، وتلغى الرتب والألقاب . . هذه الإشتراكية هي التي يرشح نفسه على مبادئها فتحى الرملى » .

وقامت قيامة الأمن العام ، والسراى ، والسفارة الإنجليزية ، وهى الثالوث الذى كان يحاربنا بضراوة منقطعة النظير . فقد وصفـوا المنشور الصغير بأنه أخطر ما وزع ، وعللوا خطورته بأنه بسيط وشعبي ومباشر ومختصر . . وجاء البوليس إلى بيتى فصادر نسخه . وفى المساء فوجئت بضابط من قسم السيدة اسمه كمال عبد المنعم يدعونى إلى الركوب معه لمقابلة مدير الأمن العام محمود بك عثمان غـزالى الذى يجلس فى انتظارى الآن بوزارة الداخلية ليتحدث معى فى تعليمات الوزارة بشأن حالة الأمن خلال الإنتخابات .

وقلت للضابط أننى سأذهب إليه بعد قليل . ورفضت أن اخرج معه وتظاهر هو بالامتثال لرغبتى ، وخرج ، ثم تحايل على إخراجى من المنزل بحجة أن بعض الناس يريدون مقابلتى خارج الدار وما أن إبتعدت عن البيت خطوات حتى اختطفونى فى « بوكس » وذهبوا بى إلى وزارة الداخلية وكأنهم عصابة من عصابات شيكاجو !

ولم يكن مدير الأمن قد وصل بعد ، فخرج يقابلنى عمر « بك » حسن مدير القلم المخصوص ، ولما قلت له اننى مشغول ككل المرشحين ، وان أى تعطيل لى سأحملهم مسئوليته . واننى لن أتهاون فى البحث بوقتى . . لم يهتز الرجل من هذا التهديد وإن كان مع ذلك قد اتصل امامى بمحمود غزالى مدير الأمن فى بيته وابلغه نبأ حضورى ورجاه سرعة المجيء لأن المرشح المطلوب يتعجله !

وما هى إلا برهة حتى جاء من يدعونى إلى مكتبه وكالعادة بدأ الحديث ناعما بعد إن قدم السيجارة والقهوة . . فسألنى عن الصحة والمزاج . ثم دلف إلى الموضوع . . موضوع الانتخابات بالسؤال التقليدى . هيه . . وعامل ايه

فى الدايرة ؟ ، قلت له « عال » . . وعاد يسألنى . . « وهل لديك شكوى ؟ » . . قلت . . « لا . . أبدا . . » فالشكوى لغير الله مذلة . . . وتجاهل ما فى كلامى من معنى . وما فى نبرات صوتى من مغزى ، كما انه لم يستطع إلتقاء عينيه مفروستين فى عينى . واراد ان يطرق للموضوع الأساسى فوجه الحديث ناحية اخرى ، قال « لدى تقارير تقول انك ذكرت لزوارك العديدين فى بيتك بشارع مجلس النواب انك لا تنوى النجاح فى الانتخابات ولا تفكر فيه . وإنما تخوض المعركة الانتخابية فقط لكى تشرح للناس المبادىء الاشتراكية » .

ولما كنت قد قلت ذلك فعلا ، فقد اجبته مراوغا بعد ان فهمت غرضه . ومن يدرى لك ان هذا الكلام نفسه ليس فى حد ذاته عبارة عن دعاية انتخابية مباحة ومشروعة ؟ . . فالتكالب على الشيء لا يفوز به وبالعكس فأراهد فيه يناله بسهولة أكثر !

فعاد يسألنى بشىء من الحزم المصطنع : لكنك تدعو للشيوعية . . كدة وإلا لأ ؟ .

قلت : انا ادعو للإشتراكية . . اما الشيوعية فلا يدعى لها . ولا تتعلق بالجرائد الحزبية ولا بالمعارك الانتخابية ، إنما العمل للشيوعية هو ذلك الذى وصفتموه انتم أنفسكم فى قانون العقوبات حيث حددتم انه (القوة والإرهاب والعنف) . كما وصف المشرع هذه المبادىء الشيوعية فقال فى المادة ١٧٤ انها (كمبادىء لينين) كما أن الشيوعيين قد وصفوا طريقتهم فى العنف بأنها مثـل « عملية جراحية للمجتمع » .

وتلعثم مدير الأمن العام وهو يرد على كلامى : « على كل حال ليس عندى وقت لهذا الكلام الفارغ ، لا للإشتراكية ، ولا الشيوعية !

قلت بهدوء لرجل هذا تفكيره : عظيم . . فلنترك هذه المسألة إذن لرجال القانون والمشرعين . . ولنقل لرجال البوليس من مرؤسيك أن يسألوا ويدرسوا قبل أن يتمرجحوا الناس فيما لا يفهمون فيه !

وبدا من احتقان وجهه أنه استشاط غضبا ولكنه تمالك أعصابه وقال :

ـ أنا عارف إشتراكية إيه في بلد جلالة الملك فيه يقيم طول شهر رمضان مآدب للفقراء . . ويفتح أبواب قصره لكل من يريد أن يسمع القرآن ؟ . .

ولم أرد . . وبدا كأنه أن سكوتي وعدم ردي قد أغرياه . . فنظر إلى مليا وقال :

ـ يا أستاذ فتحي . . يبدو أنك راجل عاقل وابن ناس . . لذلك . . فسوف أساعدك في الإنتخابات حتى تحقق هدفك منها .

قلت له بسخرية هادئة : أفهم من هذا انكم ، ستطبخون ، الإنتخابات ؟

وصاح دون أن يفهم أبعاد العبارة التي قلتها :

ـ أنا ماقلتش كده . . إنما الانتخابات خطط ومناورات وشوية بعيدة جداً عن الخطب و ، المناشير ،

قلت متساذجا : هل هناك وسائل أخرى ، يا ترى لك ؟

قال مرتاحا إلى سذاجتي المصطنعة :

ـ قلت لي : الإنتخابات هي تذاكر انتخابية قبل أي شيء آخر . . وعلى استعداد لأعطائك أي عدد من التذاكر الإنتخابية تملأها انت بمعرفتك وتوزعها على معارفك واصحابك !

واستغرق في الضحك وهو يقول موضحاً :

ـ أعرف مرشحين كانوا يتلون أسماء المتوفين إلى رحمة الله من دفاتر الصحة والله !

وأردت ان أعرف بقية ، الطرق ، التي بدت غريبة في نظري فقلت : هيه . . وماذا أيضا ؟

قال وقد سره أن المناقشة أصبحت مريحة لأعصابي كما توهم !

ويوم الانتخاب سأختار لك عددا من الصناديق الانتخابية التي لا تعاند ، ولا تعمل أزمات ، وتكون عواطفها معك !

وتظاهرت بعدم الفهم ، ورحت أردد . . أزمات ؟ . . وتعاند ؟ . . . وتعاند ليه ؟

قال وهو يضحك ويربت على كتفي : حتى لا تعطل اعمالك ، وتظل تدفق وتصفق مع كل ناخب !

ثم استطرد بعد هنيهة : أما موضوع الفلوس . . فهي النقود . . الأموال التي ستنفقها على المعركة !

وأشار إلى الخزينة الموضوعة وراء مكتبه . . هي الفلوس دي بتاعتي ؟ . . آهي كلها للمحافظة على الأمن العام ! خذ منها ما تحتاجه ٥٠٠ ، ٦٠٠ ، ٧٠٠

وقلت له ضاحكا : وكل هذا مقابل إيه ؟

وأجاب مرتاحا وهو يضحك أيضاً : ٣ مقابل ٣ . . مقابل ان تمسح كلمة الاشتراكية من جميع لافتاتك وإعلاناتك .

قلت : واكتب بدلا منها إيه ؟ . . مرشح الهيئة السعدية مثلا ؟

قال : لا . . ابداً . . الهيئة السعدية مش القمة ، اكتب مرشح العمال خادم الفقراء . . ابن دائرتكم . . الحبيب إلى قلوبكم !

وتابع الرجل حديثه قائلا : تاني حاجة تحاول تمسح ما لطخت به جدران الدائرة من كلمة الاشتراكية ، وكتابة شعارات جديدة غير هذه الكلمة ، القذرة ، !

وتضع صورة جلالة الملك في صدر إجتماعاتك العامة او في فناء البيت ، على ان تبدأوا الاحتفال وتنهوه بالهتاف بجلالته ثلاثا ، وأنتم واقفون ومنتهى الإحترام !

وأنهى حديثه قائلا : أما ثالثاً . . فعليك بطرد الأولاد المتطرفين اللي بيهجموا بحجة المساعدة ، وهم الحقيقة مش حيوصلوك للنيابة عن الأمة ، دول راح يوصلوك للنيابة العمومية . . بعد الشر يعنى ! اعقل يا راجل . . اعقل !

والتفت « غزالى بك » إلى الخزينة وفتحها بطريقة مسرحية وهو يقول ليهز أذنى قبل أن يهز عينى : يلزمك كام النهاردة مبدئياً ؟

وقلت له دون أن استفزه ، أو أفقد هدوئى ، وإن كنت أشعر فعلا بغضب حقيقى : قد لا تصدق أننى احتقر المال رغم فقرى ، إذا كان وسيلة لشراء الذمة والضمير ! فكيف تقبل على نفسك أن تشترى منى مبادئى بكرسى البرلمان أو بمنصة الوفد ؟ . . اتق الله يا « غزالى بك » فى إفساد ضمير شاب ، وتلويث شرفه ، وإهدار كرامته . . وآسف لأنى مضطر لهذا الكلام !

وهب بدوره واقفاً بعد أن استمع إلى هذا « الدش » البارد الذى ألقيته عليه وصاح فى وجهى بأعلى صوته — يعنى كنت « بتسرح » بى من الصبح . . وأنت قاعد تبتسم ، كأنك فهمت كلامى . . أتاريك بتضحك على ؟ . مش كده طيب اسمع بق . . من النهاردة مفيش منشورات . . مفيش ملصقات . . مفيش إجتماعات . . مفيش مظاهرات . . مفيش مرور على القهاوى حنمنعك بالقوة !

اتفضل . . اتفضل . . اتفضل !

وخرجت من عنده ، وكان آخر ما فعله أو آخر ما سمعته يفعله هو أنه طلب « حمدى » بك ، وكيل الحكمدار بالمحافظة تليفونيا يبلغه الأوامر الجديدة !

مفيش منشورات . . مفيش مظاهرات . . مفيش إجتماعات . . مفيش مرور على القهاوى !

وعدت ، ولم تكن المسافة تزيد على عشر دقائق على الأقـــدام من وزارة الداخلية إلى بيتى ، ولكنى فوجئت « بلورى » ضخم ينزل منه عشرات العساكر بالخوذ والهراوات ويدخلون البيت لإخراج من فيه وقيادتهم إلى قسم السيدة

زينب ، ولكن الموجودين ظلوا يهتفون رغم القيود الحديدية التى وضعت فى أيديهم طول الطريق ، دون أن يجرؤ رجال البوليس على منعهم فكأن البوليس كان يحرسهم فى تلك المسيرة التاريخية التى لا ينساها إلى اليوم أهالى حى السيدة وعابدين !

ذلك أن أولاد البلد توجوا موكبنا التاريخى بتوزيع الملبس والشربات احتفالا بنا على طول الطريق من عابدين إلى الناصرية إلى السيدة زينب من جيوبهم الخاصة مما جعل الجنود والضباط يحيرون ، ويتغاضون حتى عن الذين وقفـــوا يلقون الخطب الملتهبة ضد السلطة من فوق سلالم قسم البوليس !

وبلغت الساعة الخامسة ، ووقف مؤذن مسجد السيدة زينب يدعو لصلاة الفجر ، حين تفضل الضابط النوبتجى وسمح لنا بالانصراف إلى منازلنا .

وخيل إلى أننا انتصرنا فى الإنتخابات — قبل أن تتم — ولم يبق إلا أن تعلن ، ولم أكن أحلم ، ولكنها كانت حقيقة ، عرفها كل من كان معنا فى تلك الليلة ، ويكفى أنها لم تمح من ذاكرة الحى كله ، رغم مرور أكثر من ٢٨ سنة بالتمام والكمال . والمنصف الذى يستطيع أن يقرأ سطور التاريخ الحقيقى للاشتراكية فى مصر . .

لقد ولدت الإشتراكية فى مصر فى تلك الليلة . ليلة ٢ يناير سنة ١٩٤٥ !

إعلان الحرب على الإشتراكية !

ومرت أيام وازدت المعركة الإنتخابية . وكان علينا أن نقيم سرادقاً كبيراً ككل المرشحين ، وقد اعتزمنا أن نقيمه قبل موعد إجراء الإنتخابات بيومين . وكان سرادقنا يتسع لأكثر من خمسة آلاف ناخب .

وجاءنى الضابط صلاح حلمى يطلعنى على خطاب « سرى وعاجل جداً » موجه لمأمور القسم من مدير الأمن العام وفيه يقول أنه بلغهم أن فتحى الرملى المرشح بالدائرة سيلقى خطابا فى الإجتماع الذى سبق التصريح له بإقامته وأنه سيتكلم فى خطابه عن الإشتراكية . وعلى مأمور القسم أن يتأكد منه . فإذا كان يشرع

الكلام فى هذا الموضوع حقا . فإنه يجب منع الإجتماع بالقوة مع صرف الجمهور بالحسنى إذا أمكن ، وإلا فبالقوة !

واكتفيت بقراءة الخطاب دون أن أعلق عليه ، فسألنى الضابط . . هل سأتكلم عن الإشـتراكية فى خطابى ؟ وكان يجب أن أرد . فقلت له أن المرشحين جميعا قد أقاموا سرادقات فلم توجهوا إليهم سؤالا . . فلماذا أنا فقط يوجه لى مثل هذا السؤال ؟

وأردفت . أما عن خطابى فسأرتجله دون أن أعرف شخصيا ماذا سأقول بعد ، وعليكم أنتم متابعتى . . فإذا وجدتم فى كلامى شيئاً يتعارض مع القانون فلكم أن تمنعوه بطبيعة الحال !

ولم تكن إجابتى هذه شافية للضابط أو مطمئنة . فأبلغ مسئوليه الذين عبأوا قوات أمن لا حصر لها . . الوف . . وقفت بعربتها على أهبة الإستعداد ، حتى كأن المكان قد تحول إلى ميدان حرب حقيقى . . وكان منظر البوليس يفزع الناس . ورجال الشرطة الواقفون فى الناصرية — بكل أدب ! — يطلبون من الجماهير الآتية من جهة الناصرية أن تلف وتدخل من شارع مجلس النواب ، والواقفون من ناحية مجلس النواب يطلبون من الجماهير الآتية من شارع مجلس النواب — بنفس الأدب — أن تلف وتدخل من جهة الناصرية !

ووقفنا ننتظر السامعين دون أن يجرءوا على الدخول من هنا أو من هناك ، واقترح أحد زملائنا العمال — وهو الزميل طه من عمال النقل حاليا — أن يذهب بنفسه من أحد الجانبين ويقتحم مع الجمهور السرادق . على أن يفعل الشىء نفسه زميل ثان من الجانب الآخر فى نفس اللحظة حتى تفسد على البوليس خطته . وتطوع الأستاذ لطف الله سليمان . وهو من العمال المثقفين أيضا — كان فى بيروت حتى وقت كتابة هذه الإعترافات — وما إن فعلناه . حتى هجم الجمهور الذى كان مترددا من الخوف واكتظ السرادق بالناس . بل لقد ضاق بهم رغم ضخامته . . وبدأت خطابى فى ذلك اليوم بالتنديد بمن

يرهبون الكلمة . . ويخافون منها فيواجهونها ويستعدون لها بالرصاص . . ثم قلت للجمهور(١) . . أنظروا هؤلاء الألوف من الجنود المدججين بالسلاح . واعلموا أنكم أقوى من أعدائكم لأن عندكم كلاما أقوى من الديناميت والرصاص . ولو انهم قبلوا أن نتراشق أسلحتنا مع أسلحتهم . وارتضوا أن يهاجمونا نقول كلمة مقابل كل قذيفة . لبادروا ونكصوا لأنهم يعلمون جيدا أننا سوف ننتصر . . لقد جاءوا اليوم ليصرعونا بأسلحتهم قبل أن نلوح نحن بسلاحنا وهو . الكلمة . . . وقد سبق أن أنذرونا بالفعل وطلبوا إلينا ألا نتكلم وإلا . . ! وهذا الإرهاب لا نرضاه . ونحن أيضاً لا نعبأ بتهديد حكومة للباشا مالك وهى تقف أمامنا عاجزة تدجج نفسها بالبنادق والمدافع والرشاشات . ومع ذلك ترتعش . . يا لجبن الباشا مالك !

كم زعمت أنها قوية . وكم زعمت أننا من الشعب أضعف من أن نجرؤ على الوقوف أمامها وجها لوجه . وها نحن نتحداها الآن . . أن يتركونا نقول كلاما لا أكثر ولا أقل . . كلاما هم أول من يعرف أنه سيفجر ثورة الشعب الثائر ويكشف عن غضبه الرهيب . . وهم لأنهم يعرفون ذلك فإنهم يتجنبون الصدام معنا نحن الذين نعرف مفاتيح السخط ونعرف مخازنه فى صدور الجماهير !

لقد سألونا عن ما سألونا . . هل ستتكلمون عن الإشتراكية ؟ . . فقلنا أننا لا نعرف بعد فأنتم الشعب وحدكم أصحاب الحق فى الرد على هذا السؤال . . فلكم أن تأمرونا أن نتكلم . . فنتكلم . . ولكم أن تطالبوا إلينا أن نسكت . . فنسكت . . ان من حقكم أن تسمعونا وتستجيبوا لهذا الذى ندعوكم إليه أو لا تستجيبوا . . ولكننا نريدكم أيضا أن تقولوا لنا . هل أنتم على استعداد للرد على رصاصهم وبنادقهم إذا راودوا أن يهاجمونا مبتدئين ؟ . . هل أنتم على إستعداد للدفاع عن حقكم فى الإستماع والإجتماع أم أنكم ستفرطون فى هذا

---

(١) أرجو من قارئى العزيز ملاحظة أن هذا الكلمات كانت عام ١٩٤٥ أى من حوالى ٣٠ عاما وكانت هذه المعانى جديدة تماما ولم تبتذل كما هو حادث اليوم .

الحق ؟ . وهل أنتم على استعداد لحمايتنا إذا رأيتم أنهم يحاولون خنق أصواتنا قبل أن ترتفع ؟

وسرت الحماسة بين الجماهير . وراحوا يتصايحون والغضب ظاهر فى أصواتهم التى ارتفعت تقول . . تكلم . . تكلم . حدثنا عن الإشتراكية !

واشرت برأسى . . ان نعم . . سأتكلم . .

وتكلمت فقلت . . فى مصر حالة عالة يعز عليها ويغيظ مضجعها ان تفكر الطبقة العاملة فى حكم نفسها . ومنذ نزلنا إلى هـذه المعركة باسم العمال . وبقروشهم . وبإرادتهم . والحالة عالة اصابها مس من الجنون . وها هى تشن علينا حربا لا تعرف هوادة ولا لينا . . صادروا منشوراتنا . . اعتقلوا زملاءنا . منعوا مسيراتنا واجتماعاتنا . . وها انتم ترونهم وقد حشدوا جموعهم وبوليسهم ليعلن علينا الحرب فجأة وبلا إعلان مسبق !

ولم تحتمل اعصاب البوليس — فى عهد صاحب الجلالة ! — اكثر من هذا . وكانوا قد أتوا بعمال مخازن الفراشة وأمروهم ففكوا خيمة السرادق بعنف من الخارج ونزعوها فجأة . فظهرت عروق الخشب وحدها فى الخلاء . . وارتفعت أصوات قائد الفرقة وهى تأمر بالإنقضاض علينا بالمسدسات ، وبينما انهمرت الرصاصات الطائشة وانقضت الهراوات على الجماهير المتشمة . . ورغم المقاومة الجبارة التى لقوها من الجمهور إلا أنهم تمكنوا منا لضيق المكان . . وأصرت الجماهير كلها تقريبا على أن تذهب معنا إلى النيابة . وقد باتت تلك الجماهير ليلتها حول قسم السيدة . وفى الفجر وقد أخذت أكثر المتظاهرين سنة من النوم ، أطلق سراحنا . . نحن الذين كنا نجلس على المنصة . . الفنان الخالد رمسيس يونان . والكاتب المعروف لطف الله سليمان . والمناضل الثائر أنور كامل . والمرحوم بكر حمدى سيف النصر . والسيدة إقبال العلايلى . .

وأنا بالطبـــع !

ولم تكن فى هذا حمق أو متهورين . . بدليل أن البوليس نفسه لم يجد

— رغم استفزازنا له — ما يجرم به سلوكنا أو يأخذ علينا ما يبرر رفع الدعوى علينا بأى تهمة ركنا — قبل إطلاق سراحنا — قد أوفدنا الأستاذ مهدى وهبة . والأستاذ إسماعيل صبرى . والسيدة سعاد زهير . للتفاهم بالحسنى مع وكيل الداخلية حينذاك حسن فهمى رفعت . باشا . الذى ادعى أن هذه مسألة لا تدخل فى اختصاص عمله . وإنما هى من اختصاص زميله الوكيل الآخر بدوى خليفة . باشا . . . هذا رغم أنه كان من المعروف للجميع أن الشيء الوحيد الذى يدخل فى اختصاص بدوى خليفة هو شئون الصعيد ومذابح البلاد !

واستطاع حسن فهمى رفعت ان يجر مجموعتنا إلى الحديث من الاشتراكية . . وبعد أن استمع إليهم قال . . لا تنصروا . . واذكروا دائما . . إننى كنت على رأس بعثة زارت روسيا سنة ١٩١٢ وعلمت عن البوليس القيصرى كيف تكافح هذه المبادىء الهدامة !

وعندما عادت البعثة ، وروى لى الأخ . نهيد ابو زهرة . الطالب بالحقوق حينذاك تفاصيل ما قاله وكيل الداخلية قلت له ؟ ولماذا لم تسأله . . وما مصير أساتذته الذين علموه مكافحة الشيوعية ؟ !

وقد خرجنا منتصرين من تلك الإنتخابات ، فقد عرفنا مدى إقبال الشعب على مبادىء الغد . . وأحسسنا بالنبض الاجتماعى . وفهمنا وادركنا مدى وعى طبقاتنا الكادحة . .

اما عن التذاكر الانتخابيـــة ، والتزوير ، وجر الناخبين بالرشاوى ، والفقراء بالتضليل . .

اما المناورات الانتخابية ، والقمع ، والإرهاب . . فذلك شىء لا نعرفه ، ولن نعرفه !

حاجى بابا المصرى !

إنتهت الانتخابات العامة ، وراحت الصحف تكتب عنى ، بل وعن زوجتى

وأولادى ، ونشطت بعضها فى عمل أحاديث معى ، واستكتابى خاطرات وذكريات ، مجلة الإثنين تسألنى . لماذا سميت إبنك لينين ؟ ، وتحقق مع زوجتى بشأن سفرها باريس ، والأيام التى قضتها فى فرنسا . . ومجلة نداء الوطن تسألها . . كيف اخترتِ زوجك . . وكيف تعيشين معه ؟ . . ومسامرات الجيب تسألنى أن أحكى لها عن مغامراتى مع البوليس وكيف ووجهته . ومجلة نداء الحرية تنشر كيف أن لينين ابنى من نسل النبى ويتقاضى من نقابة الأشراف خمسة قروش كل عام .. وجريدة الأسبوع تترجم حياتى مع المتهمين بالإشتراكية . . ومجلة الشعلة الوفدية تستكتب الأستاذ الكبير سلامة موسى فيعقد فصلا كاملا يستغرق أكثر من صفحة فى حجم الجرائد اليومية يستعرض فيه شيئا من كفاحى ، ويقول . . هذا هو نموذج العائلة المصرية العصرية التى تفخر بها البلاد ، إنهما قديس الرمل وزوجته !

وأجلس يوما بين أكوام الصحف والمجلات التى تكتب عنى ، وأضع نفسى مكان القارىء . فكيف أجد الصورة التى رسمتها لى ؟

صورة بطل أسطورى يفعل المعجزات فى مغامرات لا تنتهى مع البوليس ومع الأغنياء . يريد أن يصل إلى شىء . فيقع مرات فى فخاخ السلطة ، والمكائد التى تعدها له فى كل حين ، ولكنه لا يلبث أن يضحك عليها ويفر من تدبيراتها !

وأحسست فجأة بالغم والإنقباض . هذه الأجهزة المتبرعة فى أساليبها الإعلامية . كأنما أرادت بهذه القصص والكلمات أن تضفى على نضالى طابعا فرديا . بينما كنت أعمل ضمن مجموعات من الشباب . وما كان لى أن أحقق نصرا إلا بهم . وبجهودهم وتضحياتهم . . وقد زاملونى فى كل لحظة . وفى كل خطوة من خطواتى . وإذا كانوا قد شاءوا أن أكون واجهة لهم . أو أن أظهر وحدى . ويختفون هم . فتلك كانت إرادتهم فى تلك المرحلة من كفاحنا ونضالنا الثورى . وقد كنت أحاول ما استطعت أن أكون خير معبر عما يريدون . وقد نجحت أحيانا واخفقت احيانا اخرى بطبيعة الحال . كما كنت

أعرض بإرادتى الشخصية وتفكيرى الذاتى ، ولكن فى حدود ما استشعره من أنى أقوم بتمثيل زملائى .

حدث ذات يوم من سنة ١٩٤٦ إن كنت اسير امام مقهى إيزائيفتش بميدان الإسماعيلية (التحرير الآن) فنادانى احد روادها وهو يجرى ليلحق بى . وتوقفت انا بينما اقترب هو وصافحنى وقال انه يرجو استشارتى فى موضوع هام !

قلت وانا اسير معه إلى المقهى : خير إن شاء الله . .

قال : اولا . . انا احمد عصفور . . واحسبك لا تعرفنى . . ولكنى انا اعرفك واسمع عنك !

قلت : العفو . . العفو . .

قال : لا عفو ولا حاجة . . المهم انى اريد ان اعرض عليك مشكلة مائة الف عامل من العمال المتعطلين . . انهم جيش ضخم من العمال الذين كانوا يعملون فى الورش الإنجليزية وسرحوا فجأة من سلطات الاحتلال وأيديهم أسوق خلال العمال الساكين ، ونظرت إلى الزميل عصفور نظرة مستاءا . . لقد ألقيت على كتفى عبئا ثقيلا . بينما انا لا استطيع ان افعل شيئا . فأنت تعلم كم انا فقير !

وقال عصفور فى قوة . وبذكاء ومرارة معا : اعرف ما تفكر فيه . ونحن لا نستشيرك من أجل أن تنعم علينا بمال لا تقدر عليه . لكن أملنا كبير فى عقلك . . أنه أكبر ثروة وأعظم غنى . . فكر معنا . فلا شك أنك لن تلبث أن تخرج علينا بحل . إنك حلال المعضلات !

وخجلت لهذا الإطراء . وقلت باستحياء وانا أضحك : مادام الأمر كذلك ، فهناك الحل الطبيعى ، والأسهل والأيسر فى نفس الوقت .

ياصديقى . . مادمتم كما تقول جوعانين . ولا تجدون لقمة تبلعونها . فليذهب منكم اليوم وحدان أو ثلاثة إلى بعض المطاعم العادية ، وتناولوا غداءكم أو عشاءكم !

وقال صقور وهو يفغر فاه دهشة : ولكنى قلت لك أنهم لا يملكون حتى هذه القروش القليلة !

قلت : خلاص . . لا يستعين الناس حتى تواتيه فرصة لرد دينه ؟ . . اذهبوا وكلوا بالنسيئة — أى بالشكك — ولا تخشوا شيئاً . فإذا سألوكم عن ثمن الطعام ، قلتم لهم أنكم ستدفعون ساعة ميسرة

قال وهو يضحك ، وإذا استعانوا بالبوليس ؟

قلت : لن يفعل البوليس لكم شيئاً ، فالقانون أرحم من أن يفتح السجون لمتعطلين أرادوا أن يأكلوا ويدفعوا ثمن طعامهم وعـداً بالسداد متى انفرجت الأزمة .

وتهلل وجه أخينا صقور وهو يصافحنى ويقول : ألم أقل انى سأجد لديك حلا . . الليلة سنجرب الأكل على الحساب !

وجلست أرقب الحالة من بعيد ، فإذا أخبارهم تصلنى بأنهم ذهبوا إلى كباب بحى الأزبكية ، وبعد أن أكلوا تقدم لهم الجرسون فقالوا له : نحن عمال متعطلون عن العمل ، وعندما تلحقنا الحكومة بأعمال سنرد لك أن تقودك من أجورنا !

واستغاث الرجل بالبوليس ، فحضر إليهم مأمور الأزبكية الذى لم يجرمهم ، واكتفى بأن دعاهم أن يأكلوا فى المرات القادمة فى أحياء أخرى كالسيدة زينب وعابدين والجمالية والخليفة ، حتى تتوزع المسئولية على كل أقسام البوليس ! وراح يشرح لهم أهمية هذا التوزيع لنشر قضيتهم فى مساحة أكبر .

عرفت هذا من الصحف ومن بعض الناس ، ومن صقور أيضاً بعد يومين عندما جاء يسألنى . . والزملاء الذين لا يجدون مأوى بعد إن صدرت ضدهم أحكام طرد بسبب تأخرهم فى دفع الإيجار . . ماذا يفعلون ؟

قلت : نفس الشىء يا أخى . . أليس فى البلد لوكاندات ؟ . . فلتدفع حكومة

العهد بين أجر المبيت ما داموا هم لا يستطيعون . . تلك هى وظيفة الحكومة فى هذا العصر ومسئوليتها . . أن تتكفل بعلاج كل مريض ، وتغذية كل جائع ، وإيواء كل متشرد ، وتعليم كل أمى !

وقد كان لهذه العملية صداها العميق ونجحتها الكبرى ، وردت الرجعية على ذلك بالعمل بسرعة ، إذ استصدرت فى غيبة البرلمان ، وفى عطلته الصيفية ، قانوناً يعاقب بالحبس والسجن كل من يأكل طعاماً ولا يدفع ثمنه فى الحال ، وكل من يبيت فى فندق ولا يحاسب فى اليوم التالى !

كنت منطقياً إذن حين اعتبرت البرلمان سبيلا إلى وقف أمثال هذه القوانين وإلغاء قوانين أخرى ظلت قائمة منذ عهد الاحتلال كقوانين المطبوعات ، وهى قوانين متوحشة بمعنى الكلمة !

معذرة . . فلم أكن عقاً إذن عنـدما استهنت بالإنتخابات فلم اهتم بها شيئاً ، إذ كان كل هدفى — كما قلت — هو التعريف بمبادئنا لا أكثر ولا أقل !

• • •

وأعود فأقول أن أساليب . الشكك ، هذه قد تطورت إلى أساليب أكثر خطورة وجرأة ، فإن بعض الزملاء الناقمين على سوء الحال اقترحوا أن يلجأ الزملاء المتعطلين إلى التعبير عن احتجاجهم بوسائل أخرى ، كأن ينتزعوا المال الحرام من على موائد القمار فى الأوبرج وغيره ، حيث كان الملك يسهر كل ليلة ، بل أن ينتزعوا المجوهرات واللآلىء من فوق صدور الأميرات ومن إليهن حيث كن يسهرن إلى الصباح فى قصر الأميرة شويكار ، فإذا حاول أحد أن يستردها منهم بالقوة قالوا له : هذه دموع الطغاة ، كما أن هذا الويسكى الذى تشربونه هو عرقنا ودمنا .

وكانت عيونهم تلمع بتلك الإرادة الشعبية الصلبة ، وهى تلمحه من العيون شرراً متطايراً ، ولكنى قمت لهم وأنا أكاد أدمع لفرط تأثرى ، أن هذه

الأعمال لن تؤتى ثمرتها إذا لم يتم نضج الظروف المناسبة لها ، وأن بين الطيش ، والهوس ، والجنون ، وبين الثورية الواعية الحقيقة خيط دقيق الوبل لمن لا يفهمه أو يزنه .

أن الثائر الحقيقى لا يكون عادة أول المندفعين ، ولا أجرأ المغامرين ، وحتى فى الكلام ، تجد الثائر دائماً هو أقل الجميع كلاماً ، وأكثرهم تخطيطاً وتنظيماً ، فإذا أقدم ، كان أقوى الجميع تصميماً وأوفرهم حماسة وأكثرهم شراسة . . ذلك هو البطل الذى لا يتراجع ولا ينهزم ، ولا يقبل التسليم .

قلت للزملاء الناصحين لى ذلك اليوم : ليس الآن . ولا قبل أن تتقاربوا صفوفكم ، وتستعدوا للمعركة التى يصفى فيها الشعب حسابه مرة واحدة مع طائفة اللصوص والمتعصبين ، وقد تم ذلك فعلا ، ولكن بطريقة شرعية وقانونية ، وعلى مرأى من العالم أجمع .

واذكروا تلك الثورة العظيمة التى بدأت ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، واثبتت مع الزمن أنها فى حاجة إلى حراسة شديدة لوقف مراكز النفوذ التى انحرفت بها لمصلحتها ، ثم اذكروا تصحيــــح مسار الثورة فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بإعادة الحريات للشعب ، ثم اذكروا أخيراً أن الشعب — فى هذه المرة — هو الذى يجب أن يتولى حماية الثورة الجديدة حتى تحقق كل أهدافها ، ولو كره الحاقدون على العمال والفلاحين لعلمهم أن ما سوف يحققونه سيكون أعمق ، وأكثر . .

الجبهة الاشتراكية

كنا نتصور أن الجبهة الإشتراكية التى أنشأناها أمام المعركة الإنتخابية من العاطفين على الاشتراكية سوف تنتهى فور إنتهاء المعركة ، ولكن الجماهير التى التفت — وأنا اعتبرت ذلك نقطة انطلاق لمشوار طويل من الكفاح لتحقيق ذلك الأمل — الاشتراكية — الذى أصبح لديهم حلماً عزيزاً غالياً ، وأصبحنا محاصرين بأنصار الفكرة والذين آمنوا بها حديثاً !

وأصبحت شخصياً لا أذهب إلى عمل فى آخر ساعة — إذ ذاك — إلا لأجد أربعة أو خمسة أو أكثر ينتظروننى أمام الباب ، أو فى المقهى الكائن فى أسفل عمارة بحرى بميدان التحرير ، يحضرها منهم الآن الزميل أحمد طه عضو مجلس الشعب عن الساحل ، ولا أكاد أعود إلى البيت إلا لأجد عدداً أكبر ينتظرنى فى المقهى المقابل له ، وكان الكل يطلبون مزيداً من الدراسات عن الاشتراكية وكانت تلك الدراسات ممنوعة بحكم القانون ، وكنت أعرف مقدما أن بين بعض هؤلاء الذين يطاردوننى عدد من الجواسيس ، مندوبى القلم المخصوص بوزارة الداخلية أو القلم السياسى بالمحافظة ، وإن الهدف من محاولاتهم تلك أن يوقعوننى فى المحظور !

ومع ذلك فقد قررت أن أقنع بأن أمــــدد كبير منهم وأن أزور البعض فى بيوتهم لهذا الغرض ، أو بالمقابل أرسل لهم عدداً من الكوادر الذين يعملون معى كالأستاذ المرحوم شكرى النقادى والصديق فوزى المصرى وسعد الدين الهداوى وغيرهم . .

وانتهز الصهيونيون فرصة انشغال البوليس المصرى بذلك فشكلوا فى ذلك الوقت عدداً كبيراً من التنظيمات ، أطلقت على نفسها أسماء منظمات اشتراكية ، بل وشيوعية أيضاً !

وقالوا أن الاشتراكية والشيوعية صنوان بل هما توأمان لا ينفصلان ، ووضعوا على رأس كل منظمة ، خواجة صهيونى » ، فهذه يتزعمها هنرى كورييل ابن المرابى المعروف دانييل نسيم كورييل ، وتدعى « الحركة المصرية » التى ما لبثت أن تحولت إلى « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » !

وتلك تدين بالزعامة لصهيونى آخر هو شوارتز وقد سماها « أسكرا » ، أى « الشرارة » . . وثالثة تدعى « نحشم » ، أى نحو حزب شيوعى مصرى ، ورابعة تدعى « مشمش » وهو اختصار كلمة منظمة مصر الشيوعية ، ويرأسها الصهيونى « سلامون سيدهم » ، وقد بلغ من قدرة الأخير فى التسلط على أعضاء

منظمته أنه كان يأمرهم بعدم مكالمة زملائهم وأن يحتقروا آباءهم ، فيرضخون لأوامره !

وهناك كان أيضاً الخواجات الصهيونيون أيلي ميزان ، وسوسو حزان ، وعلوا مزاري ! .. وأخيراً ذلك الصهيوني الفرنسي ، جاك دي كومب مؤسس منظمة « د ش » وهي الديموقراطية الشعبية . وكانت كل منظمة تضم أربعة أو خمسة صهيونيين ، وربما كان من أعضائها أيضاً مصري واحد أو مصريان هو الذي ترفده إلى الجبهة الإشتراكية مثلا لتطلعا من حقيقتهم والزعم بأنها حركة تضم عدداً كبيراً من المصريين ، ولكن سرعان ما كشفوا بأنفسهم عن هذه الحقيقة ، فقد حاولوا أتباعنا بتحويل جبهتنا إلى سرداب من « سراديب » تآمرهم بحجة أن العمل في وضح النهار يعرض الحركة لهجوم الحكومة البوليسية الرجعية وأجهزتها الإرهابية لقمع الأحرار . وهكذا — نحن المصريين — تمسكنا بوجهة نظرنا وهي أن الأصل في الكفاح أنه علني لأنه كفاح الشعب والاشتراكيين كانوا دائماً كذلك في العالم كله ، وأننا لا نرى ضرورة لأن نضع على وجوهنا الأقنعة لا داعي لها وكل ما علينا هو أن نكافح الرجعية لكي نكشفها ولا يكون هذا إلا بمواجهتها بالتصادم معها في صراع « أيدولوجي » لا تستطيعه الصهيونية بآرائها المتخلفة والمتعفنة الإستبدادية ..

ومن هذا الصدام يمكن الحكم عليها أو علينا ، وحتى إذا أسفر هذا عن نتيجة سيئة كاعتقال البعض فإنهم بلاشك سيكونون في حمى الرأي العام الذي يلتف عادة حول المكافحين ، ولكنه لا يلتف مطلقاً حول شرذم من أعضاء السراديب المجهولة والأقبية المظلمة كتلك التنظيمات والخلايا الصهيونية التي أطلقت عليها شبكة التجسس الصهيونية العالمية اسم « الخلايا الشيوعية » على سبيل التضليل من ناحية ، ومن ناحية أخرى لهدم كفاح الوطنيين المخلصين .

وقد كانت تلك الخلايا هي طليعة جهاز المخابرات الصهيونية الذي قامت على أساس فرع منه في الشرق الأوسط حكومة العصابة الإسرائيلية ، أو عصابة الحكومة الإسرائيلية حسبما يرى القارىء اللبيب !

ولقد دابت تلك الشبكة الرهيبة التي أقامتها الصهيونية في مصر في خلال الحرب العالمية الأخيرة سنة ١٩٣٩ ، على تجنيد مئات من الأبرياء في براعة مرة باسم الماركسية ومرة باسم السلام !

ووصل الأمر بهم أن كونوا عصابتهم في العراق باسم جماعة مكافحة الصهيونية كانت من وثائق القضية التي عرفت إذ ذاك بعنوان الأمم ، واعترف بعض المتهمين في تلك القضية المعروفة بالعصابة ، وفسر البعض عبارة « مكافحة الصهيونية » بأنها تعني « كفاح الصهيونية » !

وقد أعلم البعض منهم إذ ذاك وأظن أن ذلك حدث في عام ١٩٤٥ وكانت لهم سابقة كهذه ، حدثني عنها المستشار السابق المرحوم مرشد أمين قال أنه في سنة ١٩١٠ كان قد أسس جماعة أنصار السلام وكان ذلك أبان اشتغاله بحركة الدفاع عن الحبشة التي وقعت في براثن الفاشية الإيطالية ، إذ انضم إلى الحركة عدد كبير من الأجانب ، ولم ينتبه إلى هذه المؤامرة إلا يوم اكتشف أن هؤلاء الأجانب ليسوا إلا جماعة من اليهود ، فلم يجد بداً من وقف نشاط ذلك العمل العظيم نتيجة إقتراب ذلك الذباب منه وطوافه حوالیه !

وهكذا اعتاد الصهيونيون أن يخلطوا الحابل بالنابل عن أسماء منظماتهم وشبكات تجسسهم بأسماء مستعارة .. ولماذا نذهب بعيداً .. ألم يثبت أنهم كانوا يعملون على استدراج الأستاذ إبراهيم رشيد ، وكان عاملا وسياسياً معاصراً ، باسم تعيينه عضواً في مجلس إدارة بنك حول في طنجه ؟ ..

وكانوا يطلبون منه كتابة تقارير عن حالة مصر الإقتصادية ؟

واتضح عند نظر القضية أن البنك المذكور كان بنكاً وهمياً أو مجرد مصيدة لاستدراج الجواسيس ؟ ..

ألم يجندوا بالفعل عدداً من الأجانب والمصريين كان بينهم أحد التشيكوسلوفاكيين المدعو أر الزنورين والذي تجسس على بعض الجهات في مصر وعلى السفارة الروسية باسم مكافحة الشيوعية ؟ ..

وقد برأته المحكمة على أساس أنه كان ضحية التضليل والغفلة أو ما يسمونه بحسن النية ؟ . .

وكنت أحس بغرابة أولئك الصهيونيين والزمم ، وأسلوبهم الخادع ، وعبثاً كنت أطلب إليهم العمل مع الجماهير بينما ظلوا هم يطلبون تقديم الحركة ، الأخبار التي تساعدهم على العمل . . ثم حدث أنني اقترحت في غياب بعض أولئك الصهيونيين — أن نطبع بياناً ضد مؤامرة الصهيونية لاحتلال فلسطين التي بدأت بوعد بلفور ، وكان بيننا وبين ذلك الموعد ثلاثة أيام وحصلت على موافقة إجماعية بإعداد ذلك البيان وتسليمه للجهاز الذي لطبعه وإعداده لتوزيع صباح يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ .

وقامت قيامة هنري كوريل ، زعيم ذلك التنظيم المشبوه ، وطلب عقد جلسة سريعة للجبهة لأنها معرضة لعمل تخريبي !

وفي الجلسة ، ظهر أنني أنا المتهم بالتخريب !

وإن ذلك التخريب هو كتابة البيان الذي هاجمت فيه الصهيونية ، وأمرت بطبعه وتوزيعه . . وتكلم الخواجة كوريل فقال لي ، أن الزميل ، يعني الزميل ، يبدو أنه رجل شرقي — أي متعصب وطني — وأنه ارتكب جريمة شنيعة في حق الاشتراكية ، إذ أراد أن يهاجم الشعب اليهودي المضطهد في فلسطين ويحرمه من حقه الطبيعي في أن يتخذ له وطناً قومياً من فلسطين !

بدلاً من أن يهاجم الاستعمار الإنجليزي هناك ، وهي فرصة أيضاً لمهاجمة الرأسمالية ، اليهودية التي تحارب الشعب اليهودي هناك !

وصحت أنا من تسمية اليهودية والشعب اليهودي ، فنحن كاشتراكيين نعرف أن هناك تعريفاً علمياً للشعوب ، لا ينطبق شيء منه على اليهود ، وحاولت أقول هذا ولكنه راوغ قائلاً . . أما على كل حال لما شغف المنشور الى أطبع وحرقه ، على مسئوليتي !

وقال كوريل : أنا اعترفت بأنى غلطان من هذه الناحية ، وعشان كده ،

أنا مستعد لدفع تكاليف طبع المنشور . . هل تكفي عشرة جنيهات ؟

فأجاب بعض زملاء طيبين أو خبثاء ! : بل ادفع عشرين !

وابتسم هو وقال : وهو كذلك . . عشرة للتكاليف . . وعشرة غرامة !

ولم تنته الجلسة بهذه البساطة ، بل تطورت المناقشة ، وقال لي هو . . إذا كان شيء ما يعجبك بلاش يا أخي . . قدم استقالتك !

قلت له : أنت وقح ! وسنفصلك من حركتنا الجديدة . .

وشرعنا من ذلك اليوم في تأسيس « حركة المقاومة الوطنية » مع حركة الجبهة الاشتراكية !

وفي سنة ١٩٤٦ ، عاد هنري كوريل يحاول التفاهم معي بطريقة خبيثة ، وكان الوسطاء له صهيونيون من العراق ومن فلسطين . . اتصلوا بي بحجة تقريب الأفكار بيننا . اتصل بي يوسف حزقيل من العراق يطلب ألف نسخة من مؤلف لي ، وأن يدفع لي مقدماً قيمة ألف نسخة أخرى من كتابي « آراء مضطهدة » !

وأرسل مع ذلك العرض خطاباً لم أرد عليه طبعاً ، جاء فيه . . . « وحبذا لو اتبعت آراء مضطهدة بكتاب ، بل بكتب عن الشعوب المضطهدة كالشعب اليهودي المكافح في سبيل وطنه فلسطين » !

تل أبيب تتدخل !

أما الصهيوني الآخر ، فهو ذلك الذي رويت قصته في كتابي الذي طبعته سنة ٥٦ (الصهيونية أول مراحل الاستعمار) ، وقلت في الصفحة الخامسة وبالحرف الواحد :

« في أواخر سنة ١٩٤٥ فوجئت بزائر يقتحم على البيت ، أشقر الشعر

أحمر الوجه ، قدم لى نفسه بلهجة متواضعة خجولة .. أو هكذا بدت لى فى ذلك الحين أنه إسحق بن يعقوب .. صحفى من فلسطين !

ولما كانت تربطنا بفلسطين إذ ذاك علاقات الكفاح المشترك ضد الاستعمار فقد تبخر بسرعة ما أدركنى لأول وهلة من عدم ارتياح وتأثر لاقترانى به سابق معرفة ، أو على الأقل سابق ميعاد .. تبخر ذلك الأثر بسرعة ، ووجدتنى أستقبل الشاب الفلسطينى بحماسة حقيقية وترحاب صادق ..

وبدأ السيد إسحق بن يعقوب يشرح لى مهمته لدى .. لقد قرأ وسمع عنى فى فلسطين وعرف أننى أكرس حياتى للمبادىء الإشتراكية التقدمية لجريدة .. وهو لهذا يحرص على معرفة رأيى فى بعض الشئون السياسية .. فقد ظفرت جريدته بأحاديث مع زعماء اليمين ، ولكن الذى يهمه بالدرجة الأولى هو أن يستطلع رأى الجبهة الأخرى .. جبهة اليسار !

وقلت له — وقد شممت من كلامه أنه يعنى الجبهة الاشتراكية — أننى لا أمثل جبهة فكل ما هنالك محاولة ناشئة لخلق الوعى الجديد فى مصر ، وأن الأنبياء والمبشرين بهذا الوعى مجموعة صغيرة جداً من الشباب لا تؤلف بعد جبهة ولا شبه جبهة .

وابتسم السيد إسحق بن يعقوب ، وأصر على أن ما أقوله هو مجرد تواضع لا أكثر ولا أقل ، ثم عرج على موضوع الحديث الذى يطلبه فقال وهو يخرج ورقة بالأسئلة من جيبه : أريد قبل أن أبدأ ، أن تسمح لى بتصويرك .. فإن قراء جريدتى سوف يسعدهم أن يروا صورتك إلى جانب الحديث !

ولم أكن أكثر من شاب يتملكه الزهو أمام مثل هذا الطلب ، فهيهات أن أرهق عقله بمصارحة غروره ونزواته .. وتغلبت على استنكار عقلى لهذا الغرور الذى تملكنى بنكتة رائقة .. لن أكون مسئولا إذا هبط توزيع جريدتكم بعد نشر الصورة !

قلتها وأنا أهيأ لمقابلة العدسة وما كاد السيد بن يعقوب يفرغ من إلتقاط

الصورة .. حتى أخذ يحدثنى عن نفس الموضوع الذى شرد إليه ذهنى وكأنه يطالع أفكارى .. قال أن جريدته توزع ربع مليون نسخة .. وعجبت لهذا الرقم الضخم .. بينما استطرد هو يقول .. لا تعجب لجريدتنا تصدر أيضاً باللغة العربية .. ويقرأها اليهـــود فى شتى أنحاء العالم .. أن توزيعها لا يقتصر على يهود فلسطين !

وابتسمت للفكرة .. فما كان يخطر لى قط أن كلاماً لى سوف يترجم فى يوم من الأيام إلى اللغة العبرية .. وقلت للسيد إسحق بن يعقوب الذى أدركت — لأول مرة — أنه يهودى ، وما اسم جريدتك ؟ ..

أجاب بنفس اللهجة المتواضعة : أننى مندوب جريدة « دافكار » وهى التى ستنشر الحديث الرئيسى معك ! ولكنى سأنشر أيضاً بعض كلامك فى جرائد أخرى تصدر باللغة العربية ، مثـــل جريدة « نداء الأرض » وغيرها من جرائد فلسطين !

قلت لنفسى : وإذن ، فهذه فرصة ذهبية .. أن أحاديثى سوف تنشر باجلة فى جرائد مختلفة فى وقت واحد .. وتطلعت فى شوق إلى الصحفى الفلسطينى أستمع إلى أسئلته ، وبدأ به يصدمنى بسؤاله الأول : ما رأيك فى فتح أبواب فلسطين للمضطهدين من اليهود ؟ !

وأدركت ، وفى الحال ، أن كل تلك المقدمة لم تكن أكثر من « طعم » .. أنها رشوة خبيثة لا تتكلف مليماً واحـــداً .. وهى مع ذلك أخطر أنواع الرشوة .. أنها صورة .. وأحاديث .. وشهرة ملفقة ، مفتعلة !

وجاء دورى لكى أتفرج أنا عليه فأجبته فى لهجة ساخـــرة : أننى ضد الهجرة اليهودية !

وبرقت عيناه دهشة ، أو لعلها ذعراً من إجابتى ، وسأل : ألست تقدمياً ؟ .. أن جميع الإشتراكيين ، فى كل أنحاء العالم يؤيدون هذه الهجرة !

قلت في هدوء : على أي أساس ؟

قال : على أساس أنها مسألة إنسانية .. ففي بعض دول العالم اضطهاد عنصري ضد الأقلية اليهودية ، والاشتراكية من ناحية تحارب هذه العنصرية .. ومن ناحية أخرى هي تعطف على هؤلاء المساكين المشردين الذين يعيشون بلا مأوى !

قلت له : أظن أنه لم تعد هناك دول تضطهد اليهود .. وإذا كنت تعني بكلامك ألمانيا النازية فهذه لم يعد لها وجود .. ومع ذلك .. فلماذا تريد أن تحل مشكلة اليهود المشردين — إن صح أن هناك مشكلة بهذا الإسم — على حساب سكان فلسطين ؟

وعاد إسحق بن يعقوب يشككني في مبادئي ؛ فقال : عجيب ! هذه أول مرة أقابل فيها إشتراكياً يعالج المشكلات من زاوية « عنصرية » !

ولم أحتمل هذه الوقاحة ، فقلت له بحدة : من هو العنصري فينا ؟ .. أنا الذي أقول أن فلسطين لسكانها العرب .. أم أنت الذي تقول أنها للمهاجرين اليهود ؟

وأحس بن يعقوب أنه تعثر في أسلوبه معي ، ولكنه لم ييأس ، فعاد يعتذر عن هذه « الهفوة » بأنها نتيجة تأثره .. ثم بكى فجأة وهو يقول : آه لو رأيت حال هؤلاء المعذبين ، واستطرد هل تظن أن الموافقة على فتح باب الهجرة إلى فلسطين تعني تدفق اليهود من أنحاء العالم إلى هناك ؟ .. كلا بالطبع .. فاليهودي الذي يعيش في أي بلد مطمئناً إلى مصالحه وحياته لا يمكن أن يفكر في الهجرة من هذا البلد .. إننا نطالب بفتح فلسطين لليهود كمبدأ فقط ، وأؤكد أنه لن يذهب إلى هناك أكثر من بضعة ألوف من المضطهدين بالفعل !

قلت له لأحسم المناقشة : وأنا أطالب بمنع الهجرة تماماً من حيث المبدأ .. لأن هذه الهجرة هي إعتداء على حق السكان الأصليين من ناحية ، ولأن من شأنها — من ناحية أخرى — أن تحول فلسطين إلى دولة يهودية !

وقهقه إسحق بن يعقوب ساخراً وقال وهو يربت على كتفي : هذه دعاية استعمارية يراد بها تأليب العرب على اليهود حتى يخلو الجو للإنجليز .. كيف تصدق — وأنت رجل تقدمي — أن اليهود سيؤلفون دولة في فلسطين ؟

وكأنما كان الرسول الصهيوني قد أعد عدته لكل شيء ، فاستطرد قبل أن أرد : .. ومع ذلك ، فلنفترض المستحيل ، ولنسلم جدلاً بأن اليهود سوف يؤلفون حكومة في فلسطين ، فأيهما تفضل أيها الزعيم الاشتراكي — هكذا قال على سبيل الرشوة ! — حكومة يؤلفها الإقطاعيون العرب من عائلة الحسيني .. أم حكومة يؤلفها العمال اليساريون اليهود ؟

وأجبت بلهجة حاسمة : أني أفضل بالطبع حكومة يسيطر عليها الاقطاعيون العرب — إن صح التعبير — على حكومة تسيطر عليها الصهيونية العالمية !

ولم ييأس بن يعقوب أيضاً ، فقد قال : قلت لك لا تصدق الدعايات الإنجليزية .. فالرأسمالية اليهودية — ولاحظ أنه لم يستخدم الصهيونية — لا تظفر بأكثر من عشرين في المائة من المقاعد في الوكالة اليهودية ، بينما يظفر العمال في انتخابات هذه الوكالة بالثمانين في المائة من المقاعد

قلت له : أن الرأسمالية لم تستمد قوتها يوماً من كونها تؤلف أغلبية ، ولكنها تستمد قوتها من نفوذها الإقتصادي .. من سيطرتها على رؤوس الأموال !

وأحس ابن يعقوب أن أمله قد خاب وأني لست بالفريسة السهلة التي تصورها ، فقام ، وقال وهو ينصرف : سأترك لك هذا التقرير لبن جوريون — ولم يكن إذ ذاك إلا زعيماً صهيونياً ! — وستجد به حقائق تجعلك تعيد النظر في هذه الآراء !

ولم يزد ، بل شد على يدي وخرج .. وبين ثنايا التقرير ، كان إسحق بن يعقوب قد دس بطاقته الحقيقية أنه إزاك جاكوب !!

● ● ●

لقد سقطت في الإمتحان الذي عقده لي « إيزاك نجاكوب » مندوب تل أبيب ، وحقت عـلى اللعنة الصهيونية ، فجأة ، تصمت المنظمات التي يسيطر عليها الصهيونيون في مصر لتحمل على حرباً عنيفة لم تترك نقيصة واحدة لم تلصقها بي .. وفي نفس الوقت تفتحت في البحث عن « زعماء » اشتراكيين آخرين .. البحث عن « تقدميين » يؤمنون بأن التقدمية والصهيونية سواء !

ووصمت في أفواه التيارات والمأجورين أقبـح الشتائم وأشنع الاتهامات ، وجردت حملة منظمة استخدمت فيها الأموال والفتيات الصهيونيات لتحطيم أي نشاط أتولاه لخدمة بلادي .. فلا ينبغي أن يظهر على سطح الأرض اشتراكي لا يؤمن بالصهيونية !

وكنت أختلف مع تلك المنظمات الصهيونية فتشتد حملاتها ضدي ، ويزورني أحد أولئك الأدعياء « هنري كورييل » مثلاً ، فيبدأ محاولة المصالحة على أساس أنه يعترف بأنه أخطأ في حق زملائه ، بنقده ، نفسه ويريد أن يبدأ معي صفحة جديدة . حدث هذا لآخر مرة سنة ١٩٤٧ ، عندما أحسوا بقوة التنظيم وباتساع حركتنا عندما كان العمال والعاملات يجمعون التوقيعات لإيفاده السيدة زوجتي مندوبة عن العاملات المصريات في المؤتمر النسائي الديموقراطي العالمي الأول بباريس في ذلك العام ، لقد كشفنا إذ ذاك ألاعيب الصهيونية ومحاولة ضرب التجمعات الوطنية وإيجاد الفرقة بينها وأن المطلوب في كل مرة تحاول فيها المنظمات الصهيونية التقرب إلينا والمصالحة هو القيام بعملية تخريب في صفوفنا من الداخل وتسليم « كوادرنا » للبوليس ، بل لقد كان يقبض علينا باتهامات ملفقة ولا تلبث النيابة أن تتبين وهمها فتفرج عنا ، ولكن بعد حبس احتياطي كان يمتد في كل مرة إلى ثلاثة وأربعة شهور .. مثل ذلك الحادث الذي ضبطت فيه منشورات على مكتب الملك السابق فاروق ، واتهمنا ــ أنور كامل وأنا ــ وقسمة آخرين من العمال ، بطبعها وتوزيعها ؟

وفي تلك الفترة ، تبين لنا أيضاً أن « كورييل » كان يستعين بالمال في شراء ذمم بعض ضباط القلم السياسي والقلم المخصوص للعمل لحساب الصهيونية وتأكد

لي هذا إذ اعترف بعض أولئك الضباط بالفعل بأنهم يسخطون على سخطاً أشد وأنكى ..

كانت المعلومات التي تجمعت لدى خطيرة لدرجـــة أنهم ــ ضباط القلم المخصوص ــ أصبحوا يخشون من لساني حتى لا يفلت وتتسرب تلك المعلومات إلى رؤسائهم ، فكانوا يبالغون في اضطهادي حتى إذا ما عرضت الجهات الرسمية أمرهم ادعوا أن كل ذلك ليس إلا مفتريات وأكاذيب وشائعات ، ترمي إلى نشرها ضدهم ، كرد مني على الاضطهاد والأذى الذي ألقاه منهم ..

فلماذا لم أكن أذيع شيئاً عن أولئك الجواسيس المزدوجين ، وكلهم يعمل بوجهين ، وجه مع الحركات الوطنية ، والوجه الآخر مع الصهيونيين ؟ .

لقد قال لي مرة سنة ١٩٤٨ ، الصهيوني المقيم بإسرائيل ، ولعله الآن في إسرائيل أن التنظيم الذي شكله ، دفع خمسة آلاف جنيه لعضو في الجامعة العربية ، هو « سيف الإسلام عبد الله » مندوب اليمن في عهدها الملكي ، وذلك مقابل أن يطلعهم على ما دار في الجلسة السرية التي تقرر فيها إعلان الحرب ، فقول العصابات الإرهابية الصهيونية ، وعلى حد التعبير العربي وقذائف ، ... خطير لاذاعه ذلك الصهيوني في معرض افتخاره بالاتصالات ... حركة الترحيب بين المنظمات التقدمية .. وقد اعتبر المنظمات الصهيونية منظمات تقدمية وعربية .

وانزعجت عند تأكدنا بصفة قاطعة ، وصاعقة ، أن هذه التنظيمات ... وعربية ، وفي الوقت الذي أصدروا فيه منشوراً سرياً يبارك تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، أصدرنا نحن في الجبهة الإشتراكية بياناً علنياً واضحاً نددنا فيه بالصهيونية وطالبنا برفض التقسيم . وقد نشرت إذ ذاك بعض الصحف ملخصاً له ومنها جريدة الأهرام . وفي الوقت نفسه جاءني بعض أولئك الزملاء ، يتوعدونني متأثرين . وقال أنهم اعتبروني عنصرياً ، وفردياً ، إذ أنني انفردت برفض التقسيم في حين أن « جروميكو » وزير خارجية الاتحاد السوفيتي قد أعلن موافقته عليه وأدركت أنا أن جروميكو لا يمكن أن يقول كلاماً فارغاً كذلك الذي زعمه أبناء صهيون ، فأحضرت النص الحرفي لأقوال جروميكو ، فوجدتها

بالعمل غير مطابقة للملخص المشوه الذي اعتمدوا عليه ، فقد استعرض جروميكو إذ ذاك المراحل التي مرت بها المشكلة منذ بدأ الاستعمار بفتح الباب على مصراعيه للهجرة اليهودية وبتسليح اليهود بالأسلحة التي اخذت تدفع المتعصبين إلى التصادم في حوادث رهيبة افقدت كل من الطرفين ثقته في الطرف الآخر وكيف ادى ذلك إلى تجمع اليهود في بعض بلاد فلسطين حتى استولوا تدريجياً على مناطق بالذات ، وانكمش العرب وتجمعوا بعيداً عن اليهود في مناطق اخرى فكأن خطة التقسيم قد وضعت قبل ذلك بكثير واصبحت اليوم واقعية ، فالتقسيم إذن حقيقة واقعية .

وقال جروميكو اخيراً انه كان يفضل الحل الأسلم والطبيعي وهو ان تقوم في فلسطين حكومة ديموقراطية واحدة (وهذا الحل هو الذي ينادي به اليوم منظمة تحرير فلسطين بقيادة ياسر عرفات) ، ولكنه ازاء الحالة الخطيرة التي اشار إليها ومنعاً للتصادم فإنه ينادي بدولة ثنائية القومية — اي فيها قوميتان متجاورتان — إلى ان تخف حالة التوتر والتعصب الموجودة حالياً .

وهذا الرأي يجده كل من يطلب الحقيقة ويرجع إلى النص الرسمي لخطاب جروميكو الشهير وإلى جريدة الأهرام تبعاً إذا اراد ان يطلع على بيان « الجبهة الإشتراكية » الذي اشرت إليه .

وقد اعترف عرفت وفتحي الرملي ، من المسألة الصهيونية ومسألة التقسيم احد وزراء الداخلية السابقين — مرتضى المراغي — لأستاذنا الكبير فكري اباظة ، عندما ذهب إليه ساعياً في الإفراج عنا باعتباره نقيباً للصحفيين اذ ذاك ، فطلب الوزير للملف الخاص بي ، ثم اعترف بالحقيقة ، بعد ان قرأ كل ورقة في ذلك الملف فقال : فعلا ، لفتحي الرملي مواقف مشرفة ضد الصهيونية ..

وفعلا كان يعارض التقسيم .

مائة عائلة تحكم مصر

« .. في مصر مائة عائلة ، وربما أقل هي التي تحتكر الثروة ، والنفوذ ، والحكم .. مائة عائلة هي التي تحتل مقاعد البرلمان في كل عهد ، وتتربع على كراسي الحكم في كل وزارة ، وهي التي تملك أكثر الأراضي ، والعمارات ، والمصانع ا

مائة عائلة ، وربما أقل هي التي تنعم بخيرات هذا البلد الجائع العاري المريض .. »

هذه كانت هي السطور الأولى من إفتتاحية العدد الثالث من مجلة « كلمة الحق » التي كنت أصدرها عام ١٩٤٧ ، وكان عنوان المقال « المائة عائلة » .

ولم يكن أمام البوليس السياسي فرصة لمصادرة العدد ، فظهر ووزع في السوق ، ووقع مستشارو الملك السابق بلفت نظره ، فثار واتصل بالقراشي ، يوبخه ، على ترك الشيوعيين ينشرون آراءهم بهذه الجرأة !

وعندما تلقيت الدعوة التقليدية من نيابة الصحافة إذ ذاك للمثول أمامها في اليوم التالي ، كنت أعلم الأوامر التي صدرت في الليلة السابقة باعتقالي ، فرتبت خطتي على هذا الأساس .

وفي طريقي — في صباح اليوم التالي — إلى دار النيابة ، قابلت صديقي النائب السابق الأستاذ موريس فخري عبد النور المحامي ، وما كاد يعرف وجهتي حتى أبدى عليه ... إلا ان يحضر معي ، واخذ الأستاذ موريس مني العدد وراح يقرأ المقال ثم التفت يقول لي : ان اسلوبك هذا عنيف جداً ، وكلماتك في منتهى الخطورة ، فلماذا تكتب بهذه الخشونة ، إلا تعرف أننا نعيش في ظل حكومة أرهابية بوليسية ؟

ولكنني اقدر الدوافع النبيلة التي جعلته يبدي هذا الرأي ، كنت أقرأ في عينيه أنه يتوقع لي مصيراً مظلماً في نهاية التحقيق ، وراح الرجل يؤدي واجبه رغم يأسه تماماً من النتيجة ، فأخذ ينصحني بالإعتدال في الإجابة ، ويرسم لي طريقة

تفسير كل عقرتمس للمقال بحيث أثبت حسن نيتي وأقدم الدليل على أنني لا أهاجم النظام !

ووصلنا إلى النيابة وفي رأسي خطة خشيت أن أكشف بها صديقي الصحفي الكبير حتى لا يثنيني عن عزمي، لقد كان الفرق بيني وبينه في تفكيره أنه يريد لي الإفراج، إذا أمكن !

أما أنا فكنت أريد شيئا آخر، هو مقاومة الطغيان بأسلوب جريء، هو مواجهته، وفضحه أمام الملايين.

لذلك، ما كاد الأستاذ إسماعيل عوض رئيس النيابة يفتتح محضر التحقيق معي حتى قلت له رداً على سؤاله الأول : أحب قبل أن أجيب على أي سؤال، أن أسجل في محضر التحقيق ثلاث حقائق، أولاها أن التحقيق الذي يجري معي اليوم هو حلقة من سلسلة تحقيقات صورية غير جدية، لا يقصد من ورائها سوى مجرد التنكيل بي، عن طريق حبسي احتياطيا لتعطيل رسالتي الصحفية، وإرهاقي ماديا بالكفالات إذ تعرف الحكومة أنني رجل فقير لا أستطيع سد هذا الباب !

وثاني هذه الحقائق أن عشرات من التحقيقات قد أجريت معي في خلال السنوات القليلة الماضية فانتهت جميعا بالحفظ ولم تجرؤ الحكومة على تقديمي في قضية واحدة حتى الآن وهذا ما يؤيد أن المسألة لا تعدو أن تكون مؤامرة على حريتي وعلى رسالتي عن طريق استخدام الحبس الاحتياطي استخداما سيئا إلى جانب سلاح الكفالات التي تريد الحكومة أن تحطمني به تماماً !

والحقيقة الثالثة هي أنني جئت هنا بقرار لن أحيد عنه، هو أنني إذا صدر أمر بحبسي احتياطيا فلن أقدم معارضة في أمر حبسي، وإذا طلبت مني كفالة فلن أدفعها ولو كانت مليما واحداً، بل إذا تقرر الإفراج عني بالضمان فلن أقدم هذا الضمان .. لقد جئت اليوم أتحدى النيابة أن تثبت إنها جادة معي، وأن تقدمني للمحاكمة في أقرب جلسة !

هذا هو الطلب الوحيد الذي أتقدم به، فإذا لم تجبني إليه النيابة فسيكون

هذا أكبر دليل أقدمه على الرأي العام المصري وأتهم به أن النيابة غير أمينة على الدعوى العمومية وأن القائمين بأمرها يخدمون أصحابهم .. وغداً .. غداً بالذات يعقد زملائي في الخارج مؤتمراً لمراسلي الصحف الأجنبية ويزودونهم بكل التفاصيل عن هذه الفضيحة الكبرى !

ونظرت إلى رئيس النيابة الذي جاء للتحقيق معي متحفزا كالأسد .. نظرت إليه فوجدته ممتقع الوجه، ترتعش يده، ويحاول أن يخفي اضطرابه أمامي دون جدوى، ولم يلبث أن وجه سؤالا جديدا :

ـ ألا ترى أن هذا المقال كتب بلهجة عنيفة من شأنها الإثارة على أخرى ؟

كنت أعرف أنه يقدم لي فرصة أقول فيها شيئا .. أي شيء يصلح به موقفه إذا أفرج عني، ومع ذلك رأيت أن أمضي في الخطة التي رسمتها فقلت له :

ـ إذا كنت آسف على شيء فهو أن هذه المقال جاءت خفيفة جداً بالنسبة لما قصدت إليه .. إنني أشعر بالخجل لهذا التقصير للسبب لذلك أسجل هنا عهدا على نفسي أن يكون أول عمل لي ـ إذا خرجت اليوم ـ هو استئناف الكتابة في هذا الموضوع بالذات ولكن بلهجة أشد وأسلوب أعنف .. إن احتكار حفنة من الناس لمصادر الثروة والنفوذ والحكم هو أمر يتعارض تماماً مع الدستور الذي يعتبر الشعب مصدر السلطات، وأنني كمواطن حر أرى أن عدم الدفاع عن الدستور والنظام الديموقراطي جريمة لا أستحق معها لقب « مصري » !

وارتعشت يد الأستاذ إسماعيل عوض وتصبب العرق على وجهه وارتبك فلم يدر ماذا يوجه لي من الأسئلة بعد ذلك، فأنهى التحقيق على هذا ثم حمل المحضر وخرج على أن يعود إلينا بعد دقائق !

والتفت إلى صديقي الأستاذ مورينو فوجدته في خوف شديد علي، وعاتبني بعنف فقال ما هذا الذي فعلته ؟ .. لماذا تتطلب حضوري معك إذن مادمت تريد أن تسجن بأي شكل .. اسمح لي أن أصارحك بأن هذه ليست شطارة !

إنما الشطارة أن تنقذ من أعدائك بأي حيلة .. لقد ذهب رئيس النيابة ليتفق مع النائب العام على القبض عليك !

ولم أجب . كنت أعرف أن أى رد سوف يزيد ثورة صديق وعانى ومضت فترة طويلة ، طويلة جداً ، لم يمزقها سوى دخول رئيس النيابة مشرق الوجه ، وما كاد يقترب منى حتى صافحنى فى حرارة وقال : مبروك !

لقد أنهى منصور باشا — يقصد النائب العام وقتها — إليك كتحمس إليه قبل الإفراج عنك . . وبلا كفالة !

قلت وبلا ضمان شخصى ؟

قال : وبلا ضمان شخصى !

ثم قال : ولكن لى عندك رجاء كأخ . . كوطنى مثلك . أن تكف عن الكتابة فى هذه المواضيع فى الوقت الحاضر . فأنت تعرف أن النقراشى باشا على وشك أن يعرض قضية مصر على مجلس الأمن ولا يرضيك بالطبع أن يقول الإنجليز عنا إننا لا نستحق الإستقلال بدليل أن مالة عالة تعكسنا !

قلت : ولى أيضاً رجاء . . أن تنصح النقراشى باشا باحترام حريات المواطنين فهذا أدعى للمحافظة على سمعة مصر خصوصاً وهى بصدد المطالبة بحريتها !

وعندما خرجنا من حجرة رئيس النيابة قال لى الأستاذ مورايس فخرى عبد النور وهو يقبلنى : الآن أعرف سر قوتك . . أن سر قوتك هى هذه الشجاعة !

لكن . . لكن هذه النتيجة لم تعجب الطاغية الأكبر فاروق ، فثار مرة أخرى عندما سمع النبأ ، وفى اليوم التالى اضطر النقراشى إلى أن يأخذ من الوزراء منفردين موافقة على قرار عاجل . .

قرار بتعطيل مجلة كلمة الحق !

قاومت الطغيان !

واصل الصهيونيون مشاريعهم والشرطة تطاردنى بمختلف الاتهامات الملفقة واستخدموا عملاءهم لتقديم تقارير تتهمنى بأننى خطر جداً على الأمن العام ! وهكذا أخذت أتنقل من معتقل إلى معتقل .

وفى ١٣ مايو سنة ١٩٤٨ ، عرفت أن الخطة التى رسمها الجنرال كلايتون مع الملك عبد الله ، ونشرت جريدة « البلاغ » وثائق تفاصيلها ، على وشك أن تنفذ وأن قوات الجامعة العربية ستستخدم كـ « مخلب قط » للاستعمار البريطانى فى مغامرة جديدة مهد لها المرجفون فاكتسحت نغمات الخطب التى تفيض بالحماسة الزائفة والصحف ببشرات الحركات المسرحية التى يذكر القراء بعضها ولا شك !

وعز على — وأنا صحفى — أن أطرق أبواب الصحف جميعاً لتأدية واجبى فى فضح هذه المؤامرة الإستعمارية الكبرى ، فلا أجد جريدة واحدة تقبل أن تنشر لى شيئاً فى هذا الموضوع الخطير . . وعرفت أن الرقابة لن تلبث أن تفرض على الصحف والمطبوعات لحجب الحقائق الرهيبة عن الناس ، ففكرت فى إنشاء مطبعة خاصة تتولى إصدار النشرات التى لا بد منها لتنوير الرأى العام .

وفى ليلة ١٥ مايو اتصل بى أحد الزملاء الصحفيين وأنبأنى أن هناك حملة بوليسية كبرى لاعتقال الوطنيين ، فشكرته ، وغادرت البيت فوراً إلى حيث قضيت الليلة عند أحد أصدقائى ، وفى الصباح اتصلت تليفونياً بالمنزل فعلمت أن أحداً من رجال البوليس لم يطرق بابى ، أو يحضر لاعتقالى ، فدهشت لهذا الاستثناء العجيب ، إذ كانت الصحف زاخرة بأنباء هذه الحملة الطائشة على جميع الأحرار فى مصر ، ثم علمت أن أخبار المحاولات التى أقوم بها لإنشاء المطبعة قد وصلت إلى البوليس ، وأننى تحت الرقابة الدقيقة من البوليس السياسى كما علمت أن المخبرين الذين يكلفون بمراقبتى لا يلازمون المنزل كما جرت العادة بل ينتظرون فى شتى الأماكن التى أتردد عليها عادة ، عند البرلمان مثلاً أو عند نادى الصحفيين !

وعدلت عن إتمام صفقة شراء المطبعة الخاصة لهذا الحصار الرهيب الذى أحاط بها وبدأت أفكر فى حل جديد . . وشاءت الصدفة أن ألتقى بالأستاذ خليل الأسى المحامى ، ومع أنى كنت أعتبره ممثلاً لاتجاه سياسى يختلف مع إتجاهى فى كثير من تفصيلاته ، إلا أننى وجدته فى ذلك اليوم يلتقى معى فى كل آرائى عن الموقف

الذي يجدر بنا كأحرار أن نقفه من هذه الحوادث ، فلما بدأنا نتحدث عن تفاصيل الخطة التي يجب أن نقوم بها لشرح وجهة نظرنا لمواطنينا رغم ظروف الحكم العرفي، أبدى استعداده لأن يأخذ على عاتقه مهمة طبع المنشورات بواسطة « مطبعجي » طالما عاونه بإخلاص في مثل هذه الأمور ، وذهبنا فعلا إلى مكان ما !

حيث أمليت على زميل صيغة بيان وافق عليه وتحمس لطبعه في الحال !

وفي اليوم التالي دعاني زميل لمقابلة « المطبعجي » في قهوة صاحب الفندق لأرى الغرفة وأمامهم بضاعة الأجر . . وكنت أظن أنني سأقابل شخصاً لا يعرفني ولا أعرفه ، وقد قدمني إليه الأستاذ خليل بادئ الأمر باسم « نصار أفندي » . . ولكن ما أدهشني هو أنه ابتسم وقال :

إنني أعرفك يا أستاذ فتحي !

وفرحت لهذه المفاجأة ، فبادر يطمئنني بأنه يعرفني منذ كان عاملا في إحدى المطابع التي اعتدت أن أطبع فيها كتبي . . وبدأت أشعر بالارتياح إليه ، وبعد أن كان البرنامج المتفق عليه يقضي بأن يتولى الأستاذ خليل استلام المنشور بعد طبعه قررت أن أعفيه من هذه المهمة بسبب تعارضها مع مواعيد عمله، وقلت له من الأفضل أن تقوم السيدة سعاد زهير باستلام المنشورات !

وهنا صاح المطبعجي . إنني أعرفها . . لقد رأيتها معك مرار !

وقبل الموعد المحدد اتصلت بالزملاء الذين قررنا أن نلقي عليهم مسئولية التوزيع ، وارتبطت معهم بمواعيد معينة في أماكن معينة !

وفي موعدنا في الساعة مساء ، ذهبت السيدة سعاد إلى ميدان صلاح الدين بالقلعة ووقفت تنتظر المطبعجي في المكان الذي حدده

ومضت ساعة كاملة وهي تنتظر ، وبدأت بدوري أشعر بالقلق ، إذ كنت أنتظرها في مكان قريب ، وقررت أن أذهب إليها لأعرف أسباب التأخير ، وهناك وجدتها لا تزال تنتظر فرقت ، التفت معها حولنا . وشعرت بالانقباض حين لمحت بعض الرجال يفتشون حشائش الحديقة التي تقف إلى جوارها ، وقلت لزميلة وأنا أشير لها عليهم : المخبرين نامو . .

وضحكت السيدة سعاد واعتبرتها نكتة ، ولكني كنت قد بدأت أرتاب في الجو المحيط بنا ، وفجأة جاء صاحبنا المطبعجي يتأبط متكئاً على « ربطة » كبيرة من المنشورات ، فأذنت نحوه بلا تفكير وتناولت الأجر المتفق عليه بيننا وتناولت السيدة سعاد الربطة ، وبدأنا نحن الثلاثة نرتقب مرور « تاكسي » ولكن ، وفي لمح البصر ، إذا حجازي أفندي من ضباط البوليس السياسي يهجم علينا بالمسدسات في منظر سينمائي ، ومن خلفه عشرات الكونستبلات والمخبرين !

وسارت الزفة بضع خطوات قسم الخليفة . . ثم مضت دقائق معدودة وقيل لنا أن رئيس نيابة الصحافة عبد العزيز « بك » حلمي ووكيل نيابتها الأول الأستاذ مختار قطب قد وصلوا . كما وصل النائب العام إبراهيم « بك » . . وكنت أظن أن الذين سيحضرون للتحقيق هم السيدة سعاد ، والمطبعجي ، وأنا . . ولكن ظهر في القسم أن المطبعجي لا وجود له . . فقد ترك البوليس السياسي الذي مرشده الهام من يتنقل معنا ولو على سبيل التغطية . . ثم ظهر أنهم دبروا طريقة مضمونة لاعتقال الأستاذ خليل الآسي أيضاً ، فقد دس المطبعجي علبة « كارت » باسمه بين المنشورات ، كان قد عرض عليه أن يطبعها له بصفة هدية!

وكان البوليس قد حصر كلامنا في حضوره ، ولم يوجه عن السيدة أولا ، باعتبارها صيداً أسهل — على الأقل في نظر البوليس والنيابة — فقررت ، كما كان شأنها ، أنني دعوتها إلى هذا المكان حيث كانت لنا به ذكريات أيام زواجنا الأولى ، ولا تعرف أكثر من هذا . . ثم أردف على الأستاذ خليل الآسي ، وكان هو حلقة الاتصال بيننا وبين المطبعة ، فقال أيضاً أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع !

وجاء دوري ، وكان الصاغ حجازي قد صحبني إلى غرفة التحقيق ، وهمس في أذني وهو يتمادى بفروسيته ، ما عساك أن تقول إذاً هو عرض على النيابة « الأصل » المكتوب بخطك ؟!

وبينما كنت أقلب الأمر في ذهني عن صحة هذا الكلام ، إذا بي أجد أصل

المنشور فعلا موضوعاً على مكتب المحقق !

وهنا .. نقف قليلا لنستعرض ما جاء بالمنشور .. وليس فى وسعى طبعاً أن أتذكر نصه ، أو أستطيع نشر هذا النص ولكنى أكتفى بأن أقول إنه كان منشورا يدعو من حركة المقاومة الوطنية إلى النقراشى باشا ، وأنه كان يطالب الحكومة بإعلان الحرب على الإنجليز وإلا فإن الشعب سيتولى تحقيق أهدافه بنفسه ، كما كان المنشور يرسم للشباب طريقة هذه الحرب التحريرية ..

ورحت خطتى على الفور ، فدخلت على المحقق وأنا أرغى وأزبد ، وألعن ستضليل النمم الحزبية ، والضمائر التى لا تعرف الوطنية ولا الكرامة !

وسألنى عن سبب هياجى فقلت أنها تلفيقات البوليس السياسى !

وقال رئيس النيابة : قل لنا أولا ، أم تكتب هذا المنشور ؟

— منشور ؟ أنا الذى كتبت هذا البيان !

— هل هذا خطك ؟

— واضح أنه خطى !

— إذا ما الذى صنعه البوليس السياسى من تلفيق ؟

— كنت وعدت المطبعجى أمر عليها فى هذا الوقت لتصليح بروفة البيان ، وذهبت فوجدت عامل المطبعة يقول أنه اضطر لإنتظارى بعد التصليح ، فإذا به يصحح البيان ويقول لقد صححناه وطبعناه على مسئوليتنا !

ولما قلت له : وهل عرضتموه على الرقابة ، قال طبعاً ! طبعاً !

— وأين عامل المطبعة ؟ ولماذا لم يضبطه البوليس معكم ؟

قلت : إن البوليس لم يكن يريد ضبطه ، لقد (طبخا) الموضوع بالاتفاق ، ولذلك أطلق سراحه فى الحال !

قال : وأين صاحب المطبعة ؟ .. كيف أفلت من البوليس ؟

قلت : الحقيقة أن البوليس هو الذى أفلته منه !

وظل التحقيق يجرى على هذا المنوال إلى أن ختمه المحقق بعد تحقيق طويل ، بسؤاله : أليس لديك أقوال أخرى ؟

قلت : إننى أريد تسجيل دهشتى لمصادرة مثل هذه المنشورات الوطنية ، ويزيد من عجبى أن يتولى مصرى مثل محاسبتى على الدعوة لمحاربة الإنجليز ، هل فى القانون مادة تعاقب من يدعو لتحرير بلده ؟

قال رئيس النيابة المحقق أن الدعوة لمحاربة الإنجليز فى ذاتها ليست جريمة ، ولكن مجيء هذه الدعوة فى مثل هذا الوقت بالذات وهو الوقت الذى تشترك فيه جيوشنا فى حرب يجعلها مريبة !

قلت : أننى احتج على إعتبار الدعوة لتحرير مصر من الإستعمار دعوة مريبة .. تذكرها فى مناسبات وتتجاهلها فى مناسبات أخرى ، كما إحتج على وصف هذه الدعوة بأنها مريبة فإن تاريخى على كل حال يشهد بوطنيتى ، أن لم يشهد بأنى فى طليعة الوطنيين ..

وهز المحقق رأسه ، وأقفل المحضر وأفرج عنا جميعاً فى الحال بالضمان الشخصى ولكن أفراج النيابة عنا بالضمان الشخصى لم يكن كافياً لاطلاق سراحنا فى ذلك الحين .. ولم يكن من تقاليد الطغاة يوما الرضوخ لإرادة القضاء فضلا عن ارادة النيابة ، فاحتجزونا بسم الحكومة — حيث دار التحقيق — وذلك تنفيذاً للأمر الذى أصدره ، البوزباشى ، حجازى ضابط البوليس السياسى إلى البكباشى امين عارف مأمور القسم ولا عجب فقد كان البوليس السياسى إذ ذاك سلطانا يعلو على كل سلطان !

وبتنا ليلتنا فى احد مكاتب القسم ، فى حجرة خالية إلا من كرسى واحد تناوب الجلوس عليه طول الليل ! وفى الصباح جاء شيخ الحارة ! وطلبنا نحن الثلاثة ، فسمح للأستاذ خليل بالانصراف أما السيدة سعاد وأنا فقد احتجزونا يوما تاما حتى تنفيذ الأمر الذى أصدره الحاكم العسكرى باعتقالنا .. وفى يوم ٢٣ مايو حاولت السلطات الغاشمة نقل السيدة سعاد إلى

سجن الأجانب دون أن ترى ولديها وتصحبهما معها ، فقد كان أحدهما « ليثى » فى الثالثة من عمره ، وكان الثانى « جهاد » فى شهره الثالث أو الرابع ولكن السيدة سعاد تشبثت بهذا الحق ورفضت الإنتقال إلى هناك دون ولديها فاضطر المسئولون إلى الإذعان لطلبها . . وتوجه البوليس معها إلى المنزل حيث ودعت أمها وجيرانها فى ظل الحراسة المسلحة وأخذت معها إلى سجن الأجانب أصغر المعتقلين فى تاريخ الطغيان فى مصر !

وفى اليوم التالى جاء دور ترحيلى ، وعبثاً حاولت أن أقنع الضابط المكلف بنقلى إلى المعتقل بالمرور على المنزل لآخذ من هناك « غيار » ملابس ، فقد أفهمنى أن هذا التصرف يعرضه لمجلس تأديب !

ولم أكن حتى هذه اللحظة أعرف شيئاً عن إسم المعتقل الذى تقرر نقلى إليه . . فضلا عن مكانه !

وانطلقت بنا السيارة بعيداً عن القاهرة ، وتوغلت فى طريق صحراوى موحش لا عهد لى به ، وعبثاً حاولت أن أسأل الضابط عن مكان هذا المعتقل ، فقد آثر أن يشفق على حساب أعصابى . وطالت الرحلة ، وبدأت الأفكار المختلفة تساورنى هل أنا فى طريقى إلى حيث تستطيع السلطات الطاغية أن تتخلص منى نهائياً ؟

هل أنا فى طريقى إلى منفى . . فى بلد آخر . . إلى خارج الحدود ؟

وهنا تذكرت كيف كانت إحدى الحكومات الرجعية فى فلسطين تسوق الأحرار وتقذف بهم إلى خارج الحدود . . وفى هذه اللحظة التى صور لى فيها التفكير أننى سأغادر وطنى انحدرت من عينى دمعة أبيت أن أمسحها بل تركتها تسيح على صفحة وجهى ، وودعت أول عينى من صحراء مصر وأملى رئتى من هوائها ولأستعرض أغلى وأقدس وأحلى ذكرياتى عن الوطن الحبيب !

وفجأة ، رأيت السيارة التى تقلنا تقف أمام إحدى البوابات لتفتيشها ، ثم تجتاز بنا مدينة تضم مئات المبانى والمساكن الخالية الموحشة . . أنها مدينة معسكرات التى بناها الأمريكان فى منطقة القنال لقواتهم خلال الحرب

العالمية الأخيرة . . . لقد تحولت اليوم إلى معتقلات لأعداء الإستعمار الأمريكى !

وفجأة أيضاً وقفت السيارة أمام أحد هذه الأبنية ، وكان محاطاً بالأسلاك الشائكة وبالحراس المسلحين ، وأخرجت رأسى من نافذة السيارة فطالعتنى لافتة صغيرة كتب عليها « معتقل ها كستب » !

هل فى استطاعتى أن أصور حرارة اللقاء فى المعتقل ؟

لقد هبطنا من السيارة إلى مكتب الضابط ريثما تتم إجراءات تسليمى وكان المعتقلون يتطلعون فى لهفة يريدون معرفة شخصية الضيف الجديد ، ولكن الحراس يمنعونهم ، حتى استطاع أحدهم أن يلمحنى فبدأت أسمع همسهم . . زميل . . الزميل . . وخيل إلى فى هذه اللحظة أنى أرى الثوانى تمر بطيئة متكاسلة فقد كنت بدورى فى شوق إلى معرفة زملائى المعتقلين .

ثم كان لقاء حاراً . . فهؤلاء المكافحين الأبطال أعرفهم . . أو أعرف أكثرهم ، وطالما التقيت بهم فى ميادين عمل أو فى زنازين سجون !

وطافوا بى أرجاء المعتقل . . هذه الدار التى دخلتها ولا أعرف على وجه التحديد متى أخرج منها ، إذا قدر لى الخروج !

مناخصة أجنحة ، يحتل الوطنيون الثلاثة منها ، ويحتل اليهود المصريون الجناحين التاليين ، والجناح الخامس للأجانب !

ولو قدم سؤال — فى ذلك الحين — فى البرلمان عن أسلوب معاملتنا ، لاستطاع الحاكم العسكرى أن يرسم للمعتقل صورة زاهية جميلة ، ففى وسعه أن يقول أننا نعيش فى منطقة تتميز بهواء جاف بدليل اختيارها لتكون مقراً لأحدث مستشفيات الصدر ، وأننا ننام على أسرة ونتناول طعاماً يخصص له ٢٧ قرشاً لكل فرد ! .

ولكن لو أن لجنة تحقيق برلمانية شاءت أن تتحرى الحقيقة بنفسها فقدمت

لوزارة المعتقل، لمالها الأمر . فالمعسكر الذي نقيم فيه مبني بنوع من الطوب الخفيف الذي لا يعزل الحرارة، والسقف مصنوع من الصاج الذي يعكس الشمس . . ونوافذ المعتقل وأبوابه مفتوحة كلها . وأرضيته لا يغطيها سوى أكوام من الأتربة . . وأصناف العقارب الصحراوية الكبيرة !

هذا عن الجو اللطيف . . أما السراير فهي ألواح من الخشب تنصب فوق قضبان من الحديد . . وعلينا أن نفرش هذه الألواح التي لا يغطيها شيء . . . وعلينا أن نتوسدها أيضاً فليست هناك وسائد . . فليس هناك سوى بطانية واحدة تترك لك إدارة المعتقل حرية استخدامها بالطريقة التي تراها !

وربما كان المتعهد يتقاضى سبعة والاثنين قرشاً ونصف عن كل معتقل فهذه متعلقة بذمة المسئولين عن عمل هذه المناقصات هذا أن كانت قد عملت مناقصات على الاطلاق !

لكن الشيء المؤكد أن ما كان يقدم الينا هو أشياء لا يمكن أكلها . . ولا يمكن هضمها !

فالمتعهد مثلا يرى على سبيل التوفير — في الوقت والمال — أن يسلق لنا البيض في الوعاء الذي يغلي فيه الشاي . . وتتم العمليتان في وقت واحد . . فالشاي يغلي ومعه البيض . . وقد تتكسر خلال ذلك بيضة . ولا بأس في هذه الحالة أيضاً من تقديم الشاي إلينا فهو هنا أكثر دسامة على كل حال ! . وفي هذه الدسامة المتدفقة ما يعوضك عن عناصر آخرين يفتقر إليهما شاي المتعهد وهما السكر والشاي .

ولا أريد أن أطيل عليك — كي تأخذ فكرة عن طعام المتعهد — أن تعرف أن متعهداً آخر تقدم بطلب تكليفه بتقديم نفس الأصناف بثلاثة عشرة قرشاً أي بثلث القيمة، فلما قدم إلينا طعامه وجدناه أجود وأحسن مما كان يقدمه إلينا المتعهد الأول .

أما عن القواعد الصحية فقد كانت مرسومة بطريقة ساعدت على انتشار الأوباء

الخشبية أو السراير — مع التجاوز في التعبير — إذا أصبت في الليل لم تره إذا كان صغيراً وإلى جانب هذا الوحش البشري، زحام آخر في السقف، زحام الفئران الضخمة التي لا يحلو لها التهريج إلا عندما نفكر نحن في أن ننام !

وكان القمل ينتشر في المعتقل رويداً رويداً . فإدارة المعتقل لا تصرف لنا زلطة صابون واحدة، ولا تسمح بزيارة أقاربنا حتى تأتينا منهم الملابس والصابون والحر شديد . . وفي المعسكر كله ثلاث دورات مياه صغيرة، يحتكر القومندان لنفسه إحداها، ويترك الدورتين لأكثر من ثلاثمائة وخمسين معتقلا .

وطبيب المعتقل يحضر مرة كل أسبوع . فيصطف المرضى أمامه في طابور طويل، ويسأل الأول عن مرضه، فيقول : دوسنتاريا . . فهو ٥٠ ٪ من مصريين عندهم دوسنتاريا .

ويتقدم الثاني فيقول : عندي مغص .

فيقول له : ومن أين تعرف . . ؟ . . هل أنت دكتور ؟ .

ويقول الثالث : ضرسي . . يؤلمني جداً يا دكتور . .

فيجيب : أصبر . . بعد شهرين ثلاثة يمكن يحضر دكتور أسنان !

ويشكو الرابع من ارتفاع درجة الحرارة . . وصداع شديد . . فيقول له دون أن يحسه . . أنه برد . . غطي جيداً بالليل . .

ويرد المريض : ولكنهم لا يصرفون لي سوى بطانية واحدة . .

فيجيبه مازحا : « أكمش في زملائك »

ويجيء دور الخامس فيشكو من رعدة شديدة وحرارة مرتفعة وأعراض تجعله يظن أنه مصاب بالملاريا . . فيبتسم الدكتور ويقول مازحا : إذن أبعد عني من فضلك لا تعديني .

وظل الدكتور يؤدي واجبه على هذا النحو حتى يفرغ من المرضى جميعاً دون أن يكشف على واحد أو يصرف علاجاً لآخر .

ثم يخرج ونظل نراهن ، بعضنا يؤكد أنه ضابط جديد في البوليس السياسي .. مهمته أن يراقب حالتنا المعنوية .. وبعضنا يؤكد أنه طبيب أخصائي في أمراض المعتقلات .

وكان مما سرني أن أعرف أن المعتقلين قد اتجهوا إتجاها تنظيميا من اللحظة الأولى فألفوا لجنة ، لرعاية شئونهم تشكلت كما قيل لي من مجموعة المندوبين المنتخبين من جميع العنابر ، وكان طبيعيا بين خليط من المعتقلين اتهم بعضهم بالصهيونية ، وبعضهم بالشيوعية .. وبعضهم بلا شيء على الإطلاق ؛ كان طبيعيا أن تضم أغلبية غير واعية وأقلية لا ينقصها الوعي وأن كانت تنقصها الخبرة .

صحيح أن اثنين أو ثلاثة من أعضاء هذه اللجنة كانوا من الشخصيات الممتازة فعلا ، غير أن وجودهم وحدهم لم يكن يكفي لأن تسير اللجنة دائما في طريق الكفاح الصحيح ، ومن هنا فقد اتسم نشاطها في هذه الفترة بطابع احتجاجي بحت .. حفلات سمر .. أو مساعدات .. أو التماسات وعرائض ترفع إلى القومندان ولم أكن راضيا عن هذا الاتجاه ، فإن مواجهة الطغيان تحتاج إلى أسلوب أكثر شدة ، ولا شك أن الرجل الذي اعتقل ٢٥٠ مواطنا قبل أن تعلن الأحكام العرفية رسميا بعدة ساعات ورغم كل العهود والمواثيق التي قطعها على نفسه في مجلس الشيوخ .. مثل هذا الرجل ، لا يمكن التفاهم معه أو مع معاونيه بالعرائض والإلتماسات

أن ما يحدث في هاكستب لا يمكن أن نسميه اعتقالا .. بل هو جريمة تعذيب تتوفر لها جميع أركان هذه الجريمة .. بل يمكن تكييف التهمة أيضا على أساس أنه شروع في اغتيالنا .

والنيابة هنا هي جهة الإختصاص التي ينبغي علينا أن نرفع إليها بلاغا عن هذه الجريمة ، فهي الأمينة على الدعوى العمومية .. وسواء قامت إدارة المعتقل بتوصيل البلاغ أو أخفت معالمه .. وسواء أهملت النيابة في تحقيقه أو قامت بواجبها .. سواء هذا أو ذاك .. مواجهتنا شخصيا إلا تقصر مطلقا في تسجيل

هذه الحقائق الرهيبة في بلاغ نلتمس فيه من النائب العام سرعة التحقيق .

ولم يمض إلا أن أقدم البلاغ التالي إلى النائب العام :

« أتشرف بإبلاغ سعادتكم أن دولة الحاكم العسكري العام الذي اعتقلني بعد التحقيق معي بشأن بيان لم تر فيه النيابة أية جريمة تقتضي القبض علي ساعة واحدة أن دولة الحاكم العسكري هذا قد تجاوز حدود سلطته مرة أخرى ، ونقلني إلى الهايكستب داخل المعتقل تنكيلا بي رقم ٤١٢ الذي تحت القانون ، فقد منعت من إحضار غيار ملابس من البيت ، كما منعت عائلتي من الاتصال بي ، ووضعت في معسكر قذر .. تقدم فيه وجبات من الطعام الردىء القذر . ويهمل في علاجي مما أشكو من أمراض ، ولا يسمح لي بالإطلاع على الصحف ولا بالتريض أكثر من خمسة دقائق ، ولا الماء والصابون .. نعم ، حتى الماء كان يحبس عنا في بعض الأوقات ولما كانت هذه المعاملة الوحشية التي تدبر قبا الجو المناسب لانتشار الأمراض والأوبئة .. في المعسكر ، وهو ما يهددني شخصيا بالموت ، هذه المعاملة ولا شك هي جناية تعذيب وشروع في اغتيالي لذلك ألتمس من سعادتكم سرعة التحقيق ، وتفضلوا ..... »

لم أكن — كما قلت — واثقا من وصول هذا البلاغ إلى النيابة ، لكني كنت واثقا من وصوله على الأقل إلى وزارة الداخلية ، وفي هذه الحالة سيدرك المسئولون أن هذا البلاغ إن لم يصل اليوم إلى النيابة بالطريق الرسمي فسيصلها — يا بعد — عن غير الطريق الرسمي بطريقة أو بأخرى .

وفي هذه الحالة ، وتحت ضغط الخوف من إتجاهنا إلى النيابة ، سيضطر حتما إلى تحسين معاملتنا لنا ، فهي في حاجة إلى تجنب كل ما من شأنه أن يثير موضوع اعتقالنا ومعاملتنا في الرأي العام ، بصرف النظر عما إذا كانت النيابة — حتى بعد إبلاغها — ستتحرك أو لا

وكان هذا هو ما حدث فعلا ، ففي الوقت الذي حرصت فيه إدارة المعتقل على أن تشعرني بأن البلاغ قد أخذ طريقه في الحال إلى سلة المهملات .. في هذا الوقت كان أحد كبار المسئولين في وزارة الصحة يزور المعتقل للتفتيش على

ما يجرى فيه ، وفى هذه الزيارة يحرص على أن يسألنى بالذات عما قد يكون لى من شكوى أو ملاحظات ، ولا يلبث أن يأمر لنا بحرية الإنتقال بين العنابر والملعب طول اليوم ، كما يعد بوصول الصابون حالا إلى المعتقلين . . وشجعنى هذا النجاح الجزئى الذى وصلت إليه بمجهود فردى بسيط ، على أن أواصل الكفاح بأسلوب جماعى لا شك أنه سيكون أقوى وأجدى . . لكنى لاحظت أن بعض الأفراد — لسبب أو لآخر — يحاولون تحويل كفاح المعتقلين عن الطريق الذى يجب أن يتجه إليه ، طريق الدفاع عن مصالحهم وعن حرياتهم إلى كفاح أنفسهم وحرب بعضهم ، وأن جزءاً من برنامج هذه الحروب الأهلية التى حرص بعضهم على إشعالها ، قد أخذ صورة محاكمات هزلية .

فيحتار أصحابنا أحد المعتقلين الذين يعيشون فى المعتقل مستقلين ، بعيدين عن الشلل والجماعات ، حتى يكون وحده ، فيشككون فى أمره ويلفقون له بعض التهم التى يواجهونه بها ، ويطلبون إليه أن يقبل المحاكمة . . ويقع المسكين فى حرج ، فإن هو رفض المحاكمة ، أصبح فى نظر المعتقلين هاربا من وجه العدالة وهذا مريب . . وإن قبل مبدأ المحاكمة ، فإن الاتهام فى حد ذاته سيظل يلاحقه سواء أدين أو برىء !

وأنى له أن يبرأ ، ما دامت هناك جماعة من المعتقلين يهمهم أن تكون هناك محاكمات . . وأن يكونوا هم دائماً الخصم والحكم .

ولقد أرادوا أن يبدأوا بثلاثة من الزملاء كانوا بـــلا عصبيات تسندهم فى المعتقل ، شكرى الفاروقى ومحمد فهيم وخليل الأسى المحاميان .

حاولوا للأول محاكمة بتهمة أنه « تروتسكى » منحرف .

وتصاعدوا فى المحاكمة الثانية بالتهمة التى صاغوها للزميل فهيم فقالوا أن له تصرفات مريبة ، ثم تصاعدوا مرة أخرى مع خليل الأسى فزعموا أنه جاسوس .

وكانت طريقتهم أن يمهدوا بالأدوار العامة إلى الناس « الطيبين » .

فقد أوحوا إلى الزميل محمود العسكرى للناحل الثقافى المعروف أن يقوم بدور

يشبه دور ميرابو فى الثورة الفرنسية ، فكان يصفق بيديه فى الصباح الباكر ويصيح . . محكمة . . كما يصيح .

ويستيقظ الزملاء ليجدوا منصة المحكمة قد أعدت والإستعداد لمحاكمة المتهم معدة مسبقا تماماً كمحاكمة دنشواى !

وقد حاولت شخصيا وقف هذا العمل الطائش دون جـــدوى ، فلما يئست أعلنت أننى سأقف إلى جانبهم شاهدا ومحاميا . . ولما جاء دورى أعلنت أن هناك قاعدة قانونية معروفة هى أنه لا جريمة إلا بنص ، ولما لم يكن هنـــاك جريمة ، فإنه بالتالى لا عقوبة .

ومع ذلك إستمرت هذه المحاكمات الصبيانية . . إلى أن فكرت فى طريقة حاسمة لوقفها ، فأوعزت إلى بعض المعتقلين أن يتقدموا بطلب محاكمة هـــنرى كورييل ذلك الخواجه الصهيونى المقنع بقناع الإشتراكية ، كما أثرت أنا نفسى موضوع محاكمة إثنين من المعتقلين كنت أعرف أنهما يتزعمان هذه الحركة الإرهابية ، وما أن سمعوا جميعاً بما قررنا إثارته ضدهم ، حتى راحوا يدعون بحرارة إلى وقف هذه المحاكمات .

وعند ذلك فقط أمكننا أن نبدأ نتجه إلى تنظيم سلسلة من المحاضرات لتثقيف المعتقلين . . وأمكننا أن نجد الوقت اللازم للتفكير فى مصالحنا . . ولا أريد أن أقول أننى فكرت وحدى فى موضوع المطالبة بتقرير إعانة شهرية لكفالة كل أسرة بما كان متبعاً فى المعتقلات السابقة . . لا أقول أننى أول من فكر فى هذا فقد كان هناك زملاء من المعتقلين السابقين نبهوا لهذا وربما قبل أن انتبه شخصياً له . . ولكن الذى أذكره تماما أننى ظللت أثير هذه المسألة وأذكر الزملاء بها ، حتى أمكنهم أن يضغطوا على لجنة المعتقل ، لتستصدر قراراً بالإضراب عن الطعام ، إذ لم يكن مثل هذا العمل مما يمكن أن يقوم به فرد .

وصدر قرار اللجنة بإضراب المعتقلين « الوطنيين » فقط عن الطعام احتجاجا على تشريد عائلاتهم بعد انقطاع مواردهم المالية باعتقال عائليهم .

وفى الموعد المحدد بدأ الإضراب عن الطعام وكنا على وجـــه التقريب ٥٥ معتقلا من ٦١ حضروا هم الذين قرروا أن يصوموا عن الأكل حتى يجاب طلبهم الخاص بصرف إعانة لعائلاتهم التى فقدت باعتقالهم مورد رزقها الوحيد .

كنا في الليلة السابقة قد أخذنا نستعد لاستقبال هذا اليوم، كل على طريقته الخاصة.. فبينما آثر البعض أن يتناول عشاء خفيفا بل وأن يتناولوا أيضا مسهلات، للتخلص مما قد يكون في معداتهم من فضلات.

آثر البعض الآخر أن يسهروا الليل كله وهم يلتهمون أكبر كمية من الطعام.

فلما جاء الصباح قدمت إلينا وجبة الإفطار كالعادة فرفضناها، وأرسلنا إلى القومندان مذكرة أعلنا فيها موقفنا في كلمتين.. الإفراج الآن أو الإضراب حتى الموت

ويبدو أن عبد الحفيظ أفندي خليل قومندان المعتقل لم يكن قد سبق له أن احتك بحكم عمله في بوليس الأقاليم، غير المجرمين وأشباه المجرمين، لأنه ذعر لهذا الأسلوب الغريب، ولعله فرح بهذه الفرصة حتى يستفيد منها صديقه المتعهد إذ يرد إليه الطعام مع بقاء حقه في الثمن كاملا.. ولعله أيضا لأن هذه الفرصة لن تتاح طويلا، إذ إن المعتقلين لن يلبثوا — في نظره — أن يحسوا بالجوع ويطلبوا الطعام.

وقد قالها بالفعل، قالها لأحد الضباط على مسمع من بعض المعتقلين: والله والله.. دول ما يصمدوش! لو كان فيه أنا بيوسواع الجرعة!

وقد جاع المعتقلون المضربون طبعا، ولكنهم لم يحققوا حدس عبد الحفيظ أفندي.. ولم يطلبوا الطعام أصلا.

ومر يوم، وثان، وثالث.. والمضربون يزدادون مع الجوع صلابة وعنادا، وإدارة المعتقل تزداد جنونا من هذا الموقف.. وفي المقدمة بالطبع عبد الحفيظ أفندي المذكور أعلاه.

وكان لابد من الاستفزاز، فهو سلاح الخنق المفضل دائما، ففي صبح اليوم الرابع لإضرابنا دبرت المسرحية التالية.. أمسك الضابط الحربي المعتقل إذ ذاك بأحد المعتقلين المضربين فلما قامت مشادة بينهما، صرخ حضرة الضابط يستنجد من المعتقلين الذين يريدون قتله.. ثم خرج إلى الخارج يستنجد بجماعة من المتطوعين السودانيين الذين كانوا يقضون مدة تدريبهم للاشتراك في معركة فلسطين، في أحد المعسكرات المجاورة.. ولم يلبث المتطوعون الذين قيل لهم على سبيل الإثارة أن «الصهيونيين يريدون قتل المسلمين في حرس المعتقل».. لم يلبث المتطوعون السودانيون أن جمعوا أمتعتهم وعصيهم وسنجهم، وجاءوا يحملون قطع الأحجار والمواسير الحديد، جاءوا يخوضون المعركة مع الصهيونيين المزعومين قبل الأوان!

وفتحت الأبواب الخارجية للقوات الزاحفة، فأصبحت بينها وبين عنابرنا خطوة، ثم انهالت أحجارهم فوق نوافذنا، وأحسسنا — ونحن في اليوم الرابع لإضرابنا — أن ثمة مؤامرة مدبرة لترويعنا واغتيال أكبر عدد منا بنفس الأسلوب الذي يلجأ إليه الفاشست في مثل هذه الظروف.

وعلى رغم ما كان يبدو على بعضنا من الضعف والإعياء، فقد قررنا أن نخوض هذه المعركة التي فرضها علينا دفاعا عن أنفسنا، قررنا أن نخوضها صائمين

لكن صوتا واحدا لم يرتفع مطالبا بوقف هذا الإضراب بالنسبة لهذه التطورات الجديدة.. لم يرتفع هذا الصوت، وإن ارتفع صوت آخر يقترح وضع بضع قطرات من الليمون على الماء الذي نشربه، فوافقنا على الاقتراح وبدأنا نستعد للمعركة.. و«الأعداء» يطرقون الأبواب بشدة، وأحجارهم تتساقط فوق عنابرنا والإشاعات تنتشر عن استعداداتهم.

وكان أول ما فعلناه أن حطمنا السراير.. حطمنا تلك الألواح الخشبية التي تحدثت عنها في سطور سابقة، وحطمنا قضبانها الحديدية واتخذنا منها أسلحة..

واستولينا على زجاجات الكازوزة الفارغة من بوفيـــه المعتقل وملأنا بعضها بالرمل وبعضها بالماء، وحددنا بعض الفتحات التي يمكن أن يتحصن وراءها بعض المدافعين!

ومع خطورة الموقف الذي كنا نواجهه، لم يخل الجو من فكاهات كانت تبعث المتأمل على الضحك قطعاً، فبعض الزملاء أعطوا الجانب السينمائي من الموضوع اهتمامهم الأكبر فارتدى بعضهم قبعات وراح يطلب لنفسه ألقاباً عسكرية فضفاضة، ومن يدري أيضاً فلعله .. لو أتيح له ـ كان يضع على صدره النياشين!

وبعض الزملاء ظنوا أن قيادة المعركة يجب أن ترجع لأحد قيادات المعسكر أو أقواهم جسماً، وكأنها معركة بين فتوات الحسينية وفتوات الرايلة!

وكنت مع نفر من زملائي نتأمل هذه النماذج فنضحك ونأسف في نفس الوقت، إذ لم يكن في وسعنا ـ وسط هذا الصخب والهياج ـ أن نوقف هذا العبث وندعو للتوجيه السليم، غير أن الأمر على كل حال لم يكن يعدو أن يذهب في نفوسنا بعيداً فالاتجاه العام ـ تلقائيا ـ كان يهدف إلى الوقوف صفاً واحداً ضد هذه المحاولة التي دبرت للاعتداء علينا وهو الاتجاه الفطري الذي تدفعنا إليه جميعا غريزة الدفاع عن النفس.

وكان القومندان قد ترك المعتقل قبل أن يرفع الستار عن هذه المهزلة كان قد تركه صدفة طبعاً!!

قبل ذلك بدقائق معدودات، وكان مساعد القومندان، بحكم أوقات عمله، لم يأت بعد ..

ويظهر أن الوقت المناسب قد أفلت من المتآمرين إذ أن مساعد القومندان

حضر صدفة في ذلك اليوم مبكراً قبل موعده، وكان رجلاً نبيلاً حقاً .. إنه البكباشي سيد أبو زيد الذي بعث إلينا الحظ في الدقيقة الأخيرة ليسد البـــاب بجسمه الضخم، ويقول للمعتدين في كلمة حازمة حاسمة: لن يدخل أحد منكم إلا على جثتي.

ولا شك أن الذين فكروا في هذه المؤامرة الخسيسة لم يقدروا لها أن تفشل بحضور مساعد القومندان مبكراً .. ولا شك أنهم لم يقدروا لها أن يفتضح أمرها أمام العالم الخارجي بهذه السرعة، فلم تلبث المفوضيات الأجنبية أن سألت عن الحادث .. ولم تلبث النيابة العمومية أن تلقت أكثر من بلاغ.

ودهشت السلطات كيف عرف هذا الخبر في نفس اليوم، بل في نفس اللحظة .. وكيف كانت هيئات عديدة تعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث قبل أن ترفع هذه التفاصيل الدقيقة إلى الحاكم العسكري نفسه!

• • •

المسألة بسيطة للغاية، ففي وسط الهرج الذي خشي منه الضابط المتآمر على حياته فخرج، هرع نفر من المعتقلين إلى التليفون فاتصلوا ببعض الأصدقاء في الخارج .. وتولى أولئك الأصدقاء تبليغ مختلف الجهات، ولولا هذا لما عرف أحد أي شيء .. وكيف يمكن معرفة ما يدور في معسكر قائم وسط صحراء لا يسمح لأحد بالاقتراب منها باعتبارها منطقة عسكرية محرمة.

وتكاثرت الإشاعات عن تلك المحاولة لاغتيالنا جملة، فأحست السلطات الغاشمة برهبة الخوف من ثورة الرأي العام عليها، وكانت مواصلتنا الإضراب عن الطعام بعد ذلك أمراً مزعجاً للسلطات فلم تلبث أن أوفدت إلينا اثنين من موظفي الداخلية لمحاولة إقناعنا بالإفطار على أساس، وعد شريف، بتحقيق مطلبنا الخاص بصرف كفالة شهرية لعائلاتنا.

ولكننا لم نكن نثق — وبحق — في « شرف » رجال ذلك العهد ، وكنا نتندر بالحديث عن هذا الشرف المزعوم .. فلم تفلح المناورة ، وانتهى المرشحان المنتدبان لهذه المهمة بسؤالنا عن « المبلغ » الذي يرى كل منا أنه يكفي لكفالة عائلته .. ثم انصرفا بعد أن جمعا ما حملاه من معلومات في أوراقهما .

ومضى يومان وثلاثة .. بدأت خلالها بعض حالات الإعياء الشديد تظهر على ضعاف الأجسام من المضربين ، وبدأت السلطات البوليسية تستغل حوادث فردية لها فيها إثنان أو ثلاثة من المعتقلين إلى خيانة زملائهم بالأكل سرا .. بدأت السلطات تستغل هذه الحوادث الفردية في نشر جو من الإشاعات يساعد على قيام « حرب أهلية » بين المضربين ، ويشيع جـــوا من سوء الظن يساعد البوليس على فصم عرى التضامن بينهم كوسيلة لتحطيم الإضراب !

ولكن الإضراب سار في طريقه يتقدم بنجاح فلم يحدث ما أرغمت الحكومة وإدارة المعتقل من انهياره شيئا فشيئا ، وكان طبيب المعتقل — في اليوم السابع — قد أدرك أن حالة البعض قد أصبحت تنذر بالخطر فرفع إلى مكتب الحاكم العسكري تقريرا عن نتيجة الإضراب في نهاية الأسبوع الأول من بدايته وفي اليوم الثامن عرضت علينا الحكومة — بواسطة إدارة المعتقل إنهاء حالة الإضراب على أساس التسليم بمطـــالبنا ، فتصرف لكل منا خمسة جنيهات كإسعاف مؤقت لحين إعداد المبلغ اللازم لهذه الكفالات ودراستها بشرط إلا يجيء أول الشهر التالي إلا وقـــد تقررت لنا الكفالة بصفة منتظمة !

وتداولنا في الأمر قبل أن نعلن موقفنا ومعبا من هذا العرض ، وقد رأينا أن سلاح « الإضراب عن الطعام » في متناول أيدينا في كل وقت ، وأن في استطاعتنا

إستئناف هذا الإضراب إذا أحسسنا أن السلطات تخدعنا .. ولنا في طابور تسلم « الجنيهات الخمسة » .. الإسعاف المؤقت .. عربون المدة التي قبلناها فيما يتعلق بالكفاح من أجل هذا الهدف بالذات !

وعندنا انتهز زملاؤنا الأجانب واليهود المعتقلين قد أعدوا لنا أباريق « الشاي والبسكويت » لتناول الإفطار ، وفي المساء ، أو لعله مساء اليوم التالي ، أقاموا لنا حفلة سمر كبرى ، تكريما لأول انتصار نحرزه .

برقية إلى النائب العام

مؤامرة لقتل المعتقلين السياسيين !

كان قد تحدد يوم ٩ يولية سنة ١٩٤٨ لعرض القضية على قاضى الإحالة ، وكان الاسم الذى اختارته الصحف الصفراء لهذه القضية هو « قضية الشيوعية الكبرى » !

ولم تكن قضية « الشيوعية الكبرى » هذه والتى تمخضت عنها حملة إسماعيل صدقى ، بل حملة الإستعمار الأنجلو أمريكى بتعبير أصح ، سوى قضية تضم لعشرين متاحلا ، كل جريمتهم أنهم كتبوا — منفردين — رسائل أو مقالات يهاجمون فيها الإستعمار ، أو النظام الإقطاعى الذى يسنده ويحميه !

ولما حل الموعد ، كان سبعة من المتهمين فى هذه القضية موجودين فى معتقل هاكستب ، حيث قذف بهم زبانية المجرمون الذين كانوا يتولون السلطة إذ ذاك ، وكنت واحداً من هؤلاء السبعة ، فتشاورنا فى الأمر ، وكان من رأى أن نحضر هذه المحاكمة فإن خروجنا من المعتقل ، وعودتنا إليه ، سوف يثير عواطف الناس ويلهب حماستهم ، ولا سيما إذا انتهزنا الفرصة ورددنا بعض الهتافات على طول الطريق !

وعلى هذا قدمنا إلى إدارة المعتقل طلبا لترحيله إلى الحاكم العسكرى نعلن فيه استعدادنا لحضور هـــذه القضية ، وأخطر التقرارى الذى كان قد خلف إسماعيل صدقى إلى الراحلة رغم أنفه ، فالمارحة كانت تقف له بالمرصاد . . . وجىء بـ « اللورى » الذى سيحملنا إلى دار المحكمة ، وبالجنود الذين سيتولون حراستنا وما كدنا نصل إلى حدود « مصر الجديدة » حتى بدأنا هتافاتنا المدوية . « تسقط الأحكام العرفية » . . . « يسقط الطغيان » . . . « الإعدام فى الانتظار أيها الخونة » . . . !

وكانت الجماهير تصفق لهتافاتنا ، وتفهمها ، على الرغم من حملة التضليل الكبرى التى تولى الكتاب المأجورون تنظيمها لصرف الأنظار عن العدو الحقيقى — الإستعمار — بفتح جبهات أخرى لاستنفاد قواها ، وطاقتها الثورية والعسكرية .

وعندما بلغنا دار محكمة مصر بميدان باب الخلق ، وجدنا البوليس السياسى قد أبعد جميع أقاربنا وزملائنا وأصدقائنا . . أبعد جميع الناس عن دار المحكمة وبالذات عن قاعة الجلسة حتى لم يبق فيها سوى خمسة أو ستة من رجال البوليس السياسى نفسه !

وعقدت الجلسة برئاسة قاض يدعى الأستاذ مصطفى توفيق — إذا لم تخنى الذاكرة — فوقفت أعترض على عدم قانونيتها لعدم توفر ركن العلانية فيها ، دون أن يكون ثمة قرار من المحكمة بجعلها سرية مثلا !

وقال القاضى : لكن الجلسة يحضرها بعض الناس !

قلت : إنهم جميعاً من رجال البوليس السياسى !

وقبل أن يعلق القاضى ، قال الزميل صبحى زغلول : هذا ضابط من البوليس السياسى . . وهذا مخبر . . وهذا . .

واضطر بعض رجال البوليس السياسى إلى الانسحاب ، وسمح لاثنين أو اثنين فقط من الأهالى بحضور الجلسة إستكمالا للشكليات حتى لا ندفع فيما بعد ببطلان هذه المحاكمة !

ولم تمض سوى لحظات حتى وجدنا حضرة القاضى لا يريد تأجيل القضية ، حتى رغم انسحاب المحامين ، ولاحظنا بعـــد ذلك إن حضرته لا يريد أيضاً أن يسمح لنا بأكثر من جلسة واحدة للدفاع عن العشرين متهما وهنا وجدت إن الفرصة يجب ان تغتنم عـــلى الأقل لإثارة قضية للمعتقلين السياسيين فطلبت

المشكلة وقلت فى مرافعتى — كما لخصتها جريدة المصرى فى اليوم التالى — إننى انتهز فرصة وجودى أمام المحكمة لأبلغ النيابة المثلة هنا عن جريمة تعذيب كبرى تجرى داخل هاكستب . . أننا لا نعامل كمعتقلين ، بل ولا كأسرى . . بل نعذب بأساليب جديدة مبتكرة ، فرجالنا يتركون ليموتوا بدون علاج . . ونحن عشر حشرا داخل عنابر ضيقة خلف جدران لا تحجز وهج الشمس التى تصلينا نارها فى تلك الصحراء ، وقد حرضت علينا إدارة المعتقل جماعة من المتطوعين السعوديين الذين يتدربون قريبا من معسكرنا ليقتلونا على اعتبار أننا من الصهيونيين . .

لذلك فإننى انتهز هذه الفرصة لأطلب الى النيابة التحقيق فوراً واعتبار المحكمة مسئولة عن كل ما يحدث لنا وهى تتركنا نعيش هناك تحت التهديد والخوف والإرهاب !

وخرجنا من المحكمة وأعادونا الى اللورى فاستأنفنا مظاهرتنا ضد الطغيان والحكم العرفى والاستعمار ، واجتمع ألوف من الناس حول اللورى فى ميدان باب الخلق يصفقون لنا . . وتحركت السيارة وبدلا من ان تذهب بنا الى المعتقل ، ذهبت بنا الى قسم الخليفة ، وهناك . . طلبوا إلينا أن ننزل ، ثم وضعونا فى الحجز ، وجاء عسكرى يطلبنى شخصيا . . وذهبت ، حيث وجدت فى مكتب المأمور ثلاثة ضباط . . أثنان من البوليس السياسى ، هما الصاغ عبد العزيز حجازى واليوزباشى ناشد حنا . . وواحد من بوليس روض الفرج هو الملازم أحمد رشدى الذى كان يرأس قوة الحراسة التى ترافقنا

وقال لى عبد العزيز حجازى : كيف تهاجم هذه الحكومة . . ألا تريد أن تعرف أن الأحكام العرفية معلنة ؟

قلت : وماذا يستطيع الحاكم العسكرى أن يفعل بنا أكثر من أن يعتقلنا وأنت تعرف أننا معتقلون بالفعل .

قال وأننى أمنعك من الهتاف !

قلت : لا تستطيع . . سوف نهتف ، ونهتف ، وعليك إن شئت أن تبلغ النيابة ضدنا !

قال : النيابة ؟ . . هه . . كانت زمان ! الآن هناك وسائل أخرى لأمثالكم . . إن فى استطاعتنا قتلكم جميعاً !

قلت فى تحد : وما الذى منعكم من قتلنا إلى الآن ؟

قال : لا تتعجل . . إن الفرصة ما زالت مواتية . . إن القاء قنبلة واحدة على المعتقل سوف تنسفه بمن فيه ، وستنشر الصحف فى اليوم التالى إن طائرات اسرائيل هى التى القتها عليكم !

وهنا تحمس الضابط أحمد رشدى فقال وهو يخرج مسدسه ويصوبه إلى بعد أن حشاه بالرصاص : أقسم بالله العظيم لو هتفتم بأى هتاف لأضربك بالرصاص وأقول انك حاولت الهرب . . أضربك أنت أولا . . وكل من يهتف ثانيا . . أقسم بالله العظيم اننى أستطيع ضربك بالرصاص فى الطريق الصحراوى وسأنال ترقية عن هذا العمل !

واستراح عبد العزيز حجازى لموقف الضابط فقال لى فى تحد : الفصل فى ابن أمتك وأهل ذمتك .

وذهبت إلى زملائى فعرضت عليهم ما جرى بالحرف الواحد ، وتداولنا فقررنا ألا نستجيب للاستفزاز ، إذ كان البوليس السياسى فى ذلك الوقت يرتكب الجرائم ، جرائم القتل فعلا ، وينال عنها الترقيات .

وعندما دعينا لركب اللورى ليسير بنا إلى المعتقل سألنى الضابط فى تحد : هه . . هل تنوى الهتاف ؟

قلت وأنا أحاول أن أوحى إليه بشىء ما . . إذا مررنا فى شوارع عامرة بالناس سنهتف بالطبع . .

وتحققت المهمة التي قصدتها ، إذ تعمد الضابط أن يمر بنا في شوارع مهجورة تماما ، حتى إذا ما وصلت السيارة إلى قلب الصحراء ، قال لنا الضابط ، وكان يرفع مسدسه في وجوهنا طول الوقت : هه ما تهربوا .. ما كنتم ليه بتهرَّبوا يا طابور خامس .. يا أولاد ..

ووصل اللوري إلى المعتقل قبل أن يستجيب أحدنا لهذا الاستفزاز المقصود ..

وفي المعتقل كتبت بلاغا إلى النيابة أطالب فيه بالتحقيق في هذا التهديد من ضباط البوليس ، ووقع البلاغ معي عدد من الزملاء .

ولكن النيابة لم تتحرك بالطبع .

العمل بالصحافة من وراء الستار !!

منذ ذلك الوقت بقيت بياناتنا السياسية منشورات ، وتعقب مروجيها كما يتعقبون مروجي المخدرات ، ولقد أصبحت تلك البيانات مهما كانت موسومة بالطابع القانوني ، شيئا محرما ، بل وجريمة .. مقدما !

قلت لنفسي إني صحفي ، وأعمل في عشرات الصحف ، فأنا في أوج شبابي ، موفور الإنتاج ، سريع الكتابة ، أحرر وحدي مجلات عديدة بعضها متناقض ، وبعضها متشابه . لكني كنت دائما أمينا مع أصحابها ومع نفسي ، وقد وضعت مبدأ لا أحيد عنه ، أكتب المستطاع .. وفي حدود القانون ، وأنا فرق ذلك لا أعطي محررها المسئول مقلبا ، ولا أكتب شيئا من وراء ظهره ، وقد استطعت - رغم ذلك - أن أنشر الكثير مما كنت أريده ، وقد جلس الدكتور السيد أبو النجا يحاورني في نوع المادة التي سأكتبها لجريدة المصري ، وكنت مرشحا للعمل بها ، بحيث لا أتعرض للسياسة ، إذ كان الملك فاروق يتهمهم بالشيوعية منذ تورطوا في نشر فضائح الملك للأول وبناته

واقترحت أنا أن أكتب لهم قصصا ! وظننت أنه سيفرح جدا ، لكنه ابتسم ابتسامة مشفوعة بغمزة ، وقال : وهل هناك ماركسي لا يلتزم بالكتابة لغير المجتمع .. لاشك أنك ستحاول بإخلاص .. ولكن كيف تضمن حياد فكرك ؟ .. وهل تسيطر على مشاعرك ووجدانك ؟ .. أو لعله قال كلاما من هذا القبيل !

وتذكر الدكتور أبو النجا إني من أحدث خريجي معتقل ما كستب ، فنظر إليَّ طويلا ، ثم قال : أسمع .. أنت لم تسترح بعد من المعتقل ، فاعتبرني أخيك الأكبر ، وسأختار لك عملا مناسبا يجنبنا نحن من الحرج .. وأنت من نفسك ! ويعطيك الفرصة لأفكار جديدة ، وأظنك رجل يحب الابتكار .. ما رأيك

لو اشتغلت معنا فى إدارة التوزيع .. التى أطمع فى ضم فنى كبير يتولى الإشراف والتوجيه فى هذه الإدارة ، ويمدنا بالبيانات ، والإحصاءات ، والتقارير الفنية .

واشتغلت الفكرة فى الحال ، وفرحت إذ أنه هذا يعيد إلى عمل صحفى كنت تواقا إليه ، فأنا لا أنسى أنى عشت للنشر والصحافة وأعطيتهما كل وقتى وجهدى بقدر ما سمحت فيهما الظروف السيئة وهى خارجة عن إرادتى .. أو لعل هذا هو ما أتصوره على الأقل لكى يقدم لى شيئا من العزاء !

وأقبلت على عملى الجديد بحماسة منقطعة النظير رغم ضآلة المرتب الذى قال الدكتور أبو النجا بالمقارنة للموقع فيه إنه لم يعط الشخص ولكنه المبلغ المحدد للعمل هذه الوظيفة بالذات ، وإنه سيزداد طبعا بمجرد أن يرى عملى بعد ثلاثة أو أربعة شهور .

وأظن اننى كبدت إدارة التوزيع شيئا كثيراً من النفقات التى ذهبت فى طبع عشرات الدفاتر والنماذج والخرائط والتقارير اليومية ، والأسبوعية ، والشهرية ، والسنوية .. ولعلى كبدت « المصرى » فى ذلك الحين الكثير من الجهود لنقل أو تعيين عشرات الموظفين الجدد الذين يتولون العمل فى ذلك المكتب الفنى .. وعزائى ان بعض هذا التنظيم لا يزال باقيا الى الآن ، تنتفع به حاليا شركة توزيع الأخبار .

ولقد ختمت جهودى هناك بتقرير طلبت رفعه إلى الدكتور أبو النجا ، كان يرمى إلى تنشيط العمل فى الشركة بصفة عامة ، إذ لاحظت أن السبب الرئيسى فى قلة نشاط التوزيع بالنسبة للمجلات خصوصا ، هو اختفاء العامل البشرى .. إذ يكتفى حوالى ٩٠ ٪ من الباعة بتوزيع وجبة الصباح من الجرائد اليومية ، ثم يركنون إلى الراحة أو العمل فى أشياء أخرى بقية النهار ، إذ لا يكلفهم توزيع جريدة واحدة مسائية أو يربطهم بها طوال المساء ، وأن هذا هو سر عدم توزيع الجرائد المسائية بنفس القدر ، مع أننا بلد ترتفع درجة الحرارة فيه إلى أربعين درجة فى الصيف ، واقترحت فى ذلك التقرير أن تطبع ملحقا للمصرى أو غيره

يباع بنصف قرش ، ليقدم فى القاهرة فى الثانية عشرة ظهراً آخر الأنباء ، وذلك حتى تظهر جرائد المساء .

وعندى أن هذه المفاضل التوزيعية تغنى البائع عن الأعمال الأخرى ، وتجعله يجد نفسه طول اليوم متفرغا لتوزيع الصحف .. وأننا بذلك نضرب عدة عصافير بحجر واحد .. فننشط توزيع المجلات الأسبوعية والكتب الشهرية ، وتوزع الجريدة المسائية مع جريدة الظهر ، ونزيد الموزعين للصحف عموماً .

ومن الطريف أنى فى اللحظة التى فكرت فيها أن الدكتور أبو النجا سيفاجئنى بمكافأة ضخمة ، أو زيادة محسوسة فى مرتبى ، كما يفعل مديرو الأعمال الأمريكيين .. وبلغت أحلامى — وأنا رجل حالم ! — إلى حد التفكير فى رد المكافأة ، أو الإعتذار عن زيادة المرتب إذا أمكنهن ويصدقنى أنى حققت شيئا للصحافة .. فى نفس اللحظة ، سلمتنى الإدارة خطابا رقيقا من الدكتور أبو النجا يفصلنى فيه من عملى بعبارات غاية فى الرقة ، واللباقة والأدب .. أظنه لا يزال محفوظا فى ملف إحدى القضايا المتعلقة بى فى مجلس الدولة ، ولقد أعجبنى خطاب الفصل حقيقة حتى أنى اعتبرته حدثا هاما وطريفا فى حياتى .. ولا زالت تنطبع على صفحة نفسى بعض عباراته لفرط ما كان لها من تأثير وجدانى .. كانت العبارات الأولى منه عبارة المجاملة التقليدية ، من شكره العميق بمناسبة إنتهاء خدمتى ، رغم ما أديته من خدمات جمة وما قمت به من واجبات ، وما أظهرته من كفاءة وبراعة ، ومن شهادته بأنه لم يحدث منى ولا من آرائى السياسية ما يؤثر على عملى ، غير أنى .. منذ التحقت بالشركة أحاطت بها ظروف وملابسات أنا حريص على أن أدفعها عنها ، قياما بواجبى كعضو مجلس الإدارة المنتدب .. !

وإذا كان لا بد من تلخيص ظروف هذا الخطاب ، والمصادفات العجيبة التى جعلته يصلنى فى وقت غير مناسب ، فذلك أن الحكومة التى كنت أعارضها فى

ذلك الحين نشرت جواً من الإرهاب الشديد بهدف الإساءة إلى سمعتي باعتباري خطراً على الأمن العام ! وقد أحاطتني إثنين من عملائها في نفس الشركة ، كان أولها يعطيها أخباري أولاً بأول ، وكانت « الصنعة » تقلب عليه فيبلغ البوليس السياسي عما فعلته مضروباً في عشرة ، وعما لم أفعله على الإطلاق . . من ذلك أنه زعم أنني اخترت لمجموعة « كتب الجيب » التي كانت تصدرها الشركة إذ ذاك مجموعة من الكتب الشيوعية مثل « المعذبون في الأرض » للدكتور طه حسين و « حب الطلبة » لسلامة موسى ، فاستدعى المرحوم توفيق صليب الدكتور سيد أبو النجا وعاتبه على استخدام مثل هذا الرجل واختيار تلك الكتب ، وقال له أنني حولت للشركة كل الكتاب الشيوعيين ! .

وهذه كانت جريمتي الأولى ، وهي جريمة يعرف الكل أنني لم ارتكبها ، إذ اختيرت هذه الكتب قبل أن إلتحق بالشركة ، وجاء موعدها بعد أن استلمت عملي فعلاً ، ولكنه جو الإرهاب الذي نسب إلى جريمة لم ارتكبها ، وشرفاً لا أدعيه !

والعميل الآخر موظف كبير السن ، توهم أنني جئت أقطع رزقه ، أو احتل المكانة التي كان يستحقها بحكم أقدميته ، وله الحق طبعاً أن يحزن ، ولكنه أفرغ ثورته على بطريقة خبيثة جداً ، فقد رتب مقلباً حقيقياً ، إذ استكتب موظفي المكتب جميعاً مذكرة للشركة يطالبهم فيها على إصابات من جيبهم بعد الظهر ، وبعد أن وقع عليها الجميع عرضوها على موقعتها من باب المجاملة لمرءوسي ، وواضح أن هذه العملية كانت السبب المباشر لرفتي ! .

وطبعاً لم أفتح فمي بكلمة ، فلم يمكن العمل يفرحني برتبه . وإذا كنت سعيداً به ، فذلك يرجع لحبي للصحافة أولاً وأخيراً ، ولو في عمل غير مباشر ! .

• • •

وحاولت أن أعود إلى الصحافة ، فوجدت الطاغية الذي كان يحكم آنذاك ،

قد أعطى — بواسطة رجاله — جميع الصحف الأجنبية والمعارضة ، أوامر مشددة بألا احمل . . وكان العمل في دار الهلال مفتوحاً بصفة دائمة أمام جميع الصحفيين ، إذ أن العمل هناك بالقطعة ، الخبر بعشرين قرشاً ، والعمود بجنيه ، والمقال بثلاثة جنيهات . . وقد يرتفع أجر المقالة إلى خمسة أو عشرة أو عشرين جنيهاً حسب « شطارة » الكاتب في المساومة على أجره ! .

وقد ذهبت إلى أميل بك زيدان وعرضت عليه أن « أكتب » في « دار الهلال » — وكان يعرفني — فرحب بي ، وبدأت أمده ببعض مقالات نشرت جميعاً بلا استثناء ، وحصلت على أجرها ، وكان أجراً وفيراً بالنسبة للإنتاج ، ولكن بعد شهر واحد ، تنبه من يحاربونني عن طريق الأمن العام إلى عملي الجديد بدار الهلال ، ولم يلبث أميل « بك » أن استدعاني وقال لي . . إحنا متأسفين ولكن لن يمكن بقاءنا تعامل بعد الآن ! .

قلت للرجل مندهشاً : خير . . ؟ . . ما الذي حدث ؟ . .

وأجاب أميل بك وهو يصر على أسنانه يحاول أن يكتم شيئاً : مفيش . أنت عملت إيه ؟ . .

قلت : أنا الذي أسأل . .

وتدارك أميل « بك » فوقف يمد يده متعجلا إنهاء المقابلة : أبداً . . والله مفيش . . حنكون أصدقاء . . إن شاء الله . .

وحدجني بنظرة إنسانية وهو يسألني : هل لك عمل آخر تعيش منه ؟

وأدرت له ظهري حتى أخفي دمعة حاولت أن تتمرد على كبريائي ، ولم أرد على سؤاله ، ولا سألته مزيداً من المعلومات عن سبب طردي ، وأنا الأثيم المجرم المحروب منهم ، الذي أحظى بتقدير كبير لإنتاجي ، ويكفي أن أقول أنني كنت

الوحيد الذى لا أدفع رشوة لبعض الرؤساء ومع ذلك تنشر مقالاتى . . حتى يعرف الزملاء الصحفيين مدى ما كنت أحظى به من تقدير .

وحاولت أن استعرض فى ذاكرتى كل من يمكن أن يكون له دخل أو علاقة بموضوع أبعادى عن دار الهلال ، ومن المصرى من قبل ، ولم يستقر رأيى إلا على إسمين لا أعرف كيف خطرا لى . .

موريس أشكنازى . . وكان هو أول من قابلنى فى المصرى !

وجوزيف انكونا . . وكان هو آخر من رأيت فى دار الهلال !

وكان الأول سكرتيراً خاصاً للمرحوم السيد (محمود أبو الفتح)

وكان الثانى مديراً لدار الهلال ، وشريكاً فعلياً للسيد / أميل زيدان .

وكان كلاهما يهودى ، بل وصهيونى ، وقد حاولت بينى وبين نفسى أن ألصق بهما تهمة أبعادى عن العمل ، ولكنى خشيت أن يضحك الناس على ، وقد يحاول بعضهم أن يتهمنى بالجنون .

كان كل ما فعلته أننى قبلت التحدى . . ورحت أفكر بسرعة كيف أرتب حياتى فى حالة محاربتى فى الرزق من من أية قوى واضحة أو مجهولة . . لقد اخترت حياتى . ورسمت خريطتها . وأنا أعلم أنه طريق صعب وملىء بالصخر . ومع ذلك قررت إلا أضل عنه ولا احيد . وافتى ما قد اتعرض له سيكون بالطبع من صنع إنسان قد يكون اسبق منى فى وضع الصخر الذى تتعثر فيه قدماى . ولكن حالما انتبه . سأزيح الصخر من طريقى لأواصل السير . . وقد يكون ذلك الإنسان اقدر منى فى لحظة من اللحظات على فرصتى . بأى اسلوب لكنى على ثقة من ان إيمانى بفكرة اعتقدتها ، سيجعلنى انتصر على كل حيلة او نفوذ او إمكانية . وعندى ان الحاجة تفتق الحيلة ، وان الحيلة تشحذ الذكاء . . وان الإرادة الصلبة لا تعرف المستحيل .

وقد قلت لنفسى . . إننى كنت أتحايل على النشر فى الصحف وأنا بعد غلام صغير ترفض الصحف نشر مقالاتى كلما وضعت عليها صفتى . طالب بالمدارس الثانوية . . فاستبدلتها بصفات أخرى مثل . محام بالاستئناف العالى . . أو مستشار . . أو مهندس . . بل لقد هيأ لى شيطانى يوماً أن اضع خصوصاً لأحد مؤلفاتى — آراء مضطهد — وأ كتب أنه الرسام العالمى . سالى . ! وبالفعل صدرت بعض الصحف التى أخذت فى الحديث عن الاستاذ العالمى مصمم الغلاف دون أن تذكر شيئاً عنى !

وأصدرت يوماً كتاباً قانونياً من الجيوب والشارون المصرى . . أثنى عليه كبار المحامين لأنه بقلم . مستشار سابق بالنقض . .

ولكنى أفعل هذا لا للدعاية مثلاً ، فأننى لم أضع اسمى عليه ، وأن كنت — وليسامحنى الله — كنت أجد بعض اللذة فى استعراض شخصيتى أمام نفسى . . وأراها من خلال نظرات الناس لذلك الجهد . . وفكرت . . لماذا لا أعمل فى الصحافة شيئاً كهذا . . فقد تبدت لى شخصياً أنى صحفى موهوب .

لماذا لا أشتغل بالصحافة بلا صحة ولا إعلان . . بل من خلال شخصيات أخرى تكتفى بما تحصل عليه من شهرة ، وتدفع لى مقابلاً ما تتقاضاه من مال وكانت المسألة تحتاج الى الشىء من التكتم ، فأخفيت هذا عن أقرب المقربين لى ، واستفدت من هذا كثيراً ، إذ تضاعف عمرى وبالتالى تضاعف دخلى ، ولم أعد أتعرض لمثل ما كنت أتعرض له قبلاً . . وكانت المفاجآت التى تمت من وراء هذا العمل عظيمة ، منها أن بعض ما كنت اكتبه بجنيهين ، بدأت أتقاضى عنه خمسة ، وظهر إننى لا أجيد المساومة ، أو إننى لا أعرف قدر نفسى .

وبما أن الله حليم ستار ، فلن اسمح لنفسى بكشف عشرات من عملائى سواء من كانوا لايزالون أحياء ، أو من توفاهم الله ، فقد اشتركنا فى جريمة التزوير معاً ، وكنت مضطراً إليها لأعيش ، وربما كانوا هم — وبعضهم من اولاد

الذوات — مضطرون إلى هذا ليظهروا للناس ، أو لصديقاتهم أنهم كتاب وأدباء . . ولقد أصبحوا كذلك بالفعل . . إن من مات مات وهو مرموق الشهرة ، محسوب من كبار الكتاب . ومن عاش إلى اليوم فإنه يتمتع بمكانة أو منصب يحسده عليه كبار الكتاب بالفعل !

لكني لم ألبث إن بدأت أضيق ذرعاً بهذا العمل ، فبين الكاتب المزيف ومن يكتب له ، عداوة تظل تستحكم ، ويدعمها الزمن ، وبقدر ما يحس الكاتب المزيف أن الناس والمجتمع ينظرون إليه باحترام وتقدير ، يظل متمسكاً في نظرة الكاتب الحقيقي له ، بل ويحس أمامه بالمهانة والازدراء .

هذه واحدة ، والثانية أن بعض أولئك الكتاب المزيفين بدأوا يصدقون القراء ، فيتناولون حقوقاً على أنها ثمن مقالاتهم ، ولا بد لي أن أجري وراءه وأن أظل أطارده ليدفع ، وهو يدعي مرة أنه لم يقبض بعد ، ويدعي مرة أخرى أنه رد ما أعطوه له لأنه قليل ، ومرة ثالثة يظل يراوغ حتى أعلم أنه سافر إلى باريس

المهم في كل هذا تلك الصحف التي كانت تصدق وكانت تنطلي عليها دعاوى المزيفين إلى حد أنها — تلك الصحف — رفضت الحقيقة عندما قيلت — بعد ذلك — لها . .

بين الجمهور المصري وأخبار اليوم!

في سنة ١٩٥٠ التحقت بجريدة «الجمهور المصري» . من ناحية لأني كنت أعجب بصديقي «أبو الخير نجيب» رئيس تحريرها ومديرها ، كنت ولا أزال أعجب بشخصية أبو الخير ، ببساطة وشجاعة معاً . . ورغم أني كنت أعرفه من بعيد ، لم أكن أومن به كصحفي . . فكان عندي مجرد «ريبورتر» أو مخبر صحفي ، وهو نوع من الصحافة أو هو فرع منها وليس الفن الصحفي بمعناه الكامل ، بمعنى أنه لم يكن كاتباً بالذات ، وعندما ذهبت لاستلام عملي ، اكتشفت أنه أيضاً لا يعرف عني شيئاً كصحفي اشتغلت في جميع الصحف تقريباً ، غير أني أكتب بعض المقالات . . أحياناً !

ولم أفهمه ويفهمني تماماً من هذه الناحية إلا بعد أن انقضت فترة من الوقت ، كان العمل الصحفي كله في جريدته قد انتقل إلى يدي ، فالمراجعة كلها أصبحت من اختصاصي ، ووسائل القراء ، واختيار العناوين ، وإعادة صياغة الأساليب ، وإعادة تركيب الموضوع بالعبارات المثيرة ؛ وإثرائه بالإثارة المثيرة أيضاً . . كل ذلك أصبح من بعض عملي ! بل وأصبحت التوجيهات العامة — حتى في الإدارة والإعلان من الموضوعات التي أسأل عنها ولو على سبيل الاستئناس بتجربتي ، فقد أصبح أبو الخير يظن أن آرائي دائماً جديدة !

ومن ناحيتي فإن خبرتي كانت تزداد يوماً بعد يوم . وتنمو بسرعة ، وأصبحت أجمع كثيراً من الاختصاصات وأولها «الماكياج» أو فن إخراج الجريدة . . بل وقد ظن أبو الخير أني أصبحت أنافس محرري الصحف والمجلات أيضاً . . فأنا أنال أعداداً كبيرة من الناس ، ولا شك أني أستشهد بصداقاتي المدنية العريضة هذه !

وكنت أنا أعرف عن نفسي القدرة على صياغة السطور ، والتمثل في طريقة عرضها مع الإثارة المطلوبة ، وكنت أتمثل في كتابة أخباري بقول السيد المسيح : كن حاراً . . أو كن بارداً . . ولكن لا تكن فاتراً فإني أوشك أن أتقيأك .

ولم أكن إذ ذاك أهتم إلا بعملي ، إذ كنت لا أزال في طور البداية ،

وفرجي أبو الخير — بعد المحررين الذين كانوا يعملون معنا — حتى وجدوني أكتب بسبعة أرواح . . أكتب وأنقد حفلات الأفلام . . أكتب في السياسة ، وفي الفكاهة ، والقصة . . الكتابة الهازلة والجادة . . الساخرة والثائرة . . الأسلوب القديم ، أسلوب التراث . . والأسلوب العصري الجديد المبتكر ، كما كنت أعيد صياغة المقالات ، وتركيبها من جديد . . وأختار لها المقدمات التي تحتوي على براعة الإستهلال والخواتيم التي تحكم القارىء لأول وهلة بأن فيها مسك الختام . . كنت أكتب رسائل مفتوحة إلى فلان وفلان بأسلوب . . وأكتب ركن الصيف بأسلوب ثان . . وأكتب التيارات السياسية بأسلوب ثالث . . وأكتب التعليقات الإجتماعية بأسلوب رابع . . وأختم هذا كله بالرد على رسائل القراء بأسلوب خامس أو سادس .

وفي ذلك كله فقد أصبحت « الطبيخ » المرصوصات والريبورتاجات الخفاقة قد دبت فيها الروح والإحساس . . واستطعت فعلا أن أنشىء مدرسة صحفية جديدة تشيع البهجة في قلوب القراء وتعتمد على الجديد . والمثير . . وكانت مقالاتي الإفتتاحيـــة تنقل إلى جميع الصحف الأجنبية . . المحلية والخارجية . .

ومن المقالات التي ترجمت فور صدورها . . جميع افتتاحيات جريدتي « الجمهور المعارضة » التي كنت أوالي إصدارها بين أعوام ١٩٤٩ و١٩٥٢ . . وقد ذكر لي المرحوم الأستاذ عبد اللطيف حمزة مرة وهو يجلس عندنا في دار نقابة الصحفيين ، أنه يريد أن يستفيد طلاب الصحافة بهذه المقالات وقال إنه يجمعها ، وطلب مني أن أساعده على جمعها

هل تظن — عزيزي القارىء — أنني مغرور ؟ . . نعم أنني مغرور تماما في نفسي . . وأعتقد إن الذين ظنوا أنني من أكفأ الصحفيين الذين ظهروا في نفس الفترة لم يجاملوني ، ولم يقولوا إلا صدقا ! ولاشك أن لك — عزيزي القارىء — في كاتب هـــذه السطور رأي آخر . . فأنت بالتأكيد لاتعرفني . . فقد ضربت حولي نطاق الصمت منذ أكثر كثيراً من عشرين عاما . . ولاشك أن القارىء يتفهم كيف أحاول هنا أن أنفس — ولو قليلا — عن إيماني بنفسي ، بعد صمت امتد طويلا !

ونعود إلى حديثنا . . لقد قررت أن أتفانى في عملي وأعتبرته نوعا من العبادة . . فأنا أزاول الصحافة كمهنة ورسالة في وقت معا . وقررت أن أعيد دراستها وأن أعمل في كل ناحية وأن لا أتأخر أيضا عن أي عمل ولذلك لم يكن غريبا أن أصعد السلم قفزا كل يتحدث عنها عادة الزميل علي أمين للمرة الثانية بل أن جعلت من حكاية السلم التي كا تتحدث عنها ساخرين أو ضاحكين جعلتها تتمثل لنا حقيقة لا خرافة .

وكان كل الذين يعملون معي يعرفون هذه المسألة ولكن واحداً هو زميلنا الراحل أحمد منصور انتهز الفرصة لاستغلالها ، وكانت بينه وبين الأستاذ أبو الخير بعض حساسيات فأراد أن يدق إسفينا في علاقتي بالجريدة وليختبر صلتي بأبي الخير فتجيب . فلم يكتب إلا ما قاله . إذ رآني وصاحب الجريدة ، شخصا واحداً . فلم ينفع الدس . . ولم تنفع الوقيعة

ولم تنجح أيضا في نفس الوقت المحاولات التي بذلتها أخبار اليوم لاستمالتي للعمل بها ولهذا قصة أرى أن أشير إليها بمجرد إشارة عابرة فقد افتعلتني ظروفي فيما بعد أن أرضخ وأقبل الإغراء المعروض على للعمل بجريدة أخبار اليوم . فقد حدث ما أخرجني عن طوري إذ اعتقلت في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ فعطلت الجمهور المصري ، وأصبح . . وكتب صديقي . . الأستاذ أبو الخير بعد أن ذكر أننا كنا نعمل من أجل قضية عامة ولا يجب أن ينقطع مرتبي لمجرد اعتقالي ، فإن هذا بين المجاهدين عيبا . . . بل هو فضيحة . . وضاعت محاولاتي عبثاً . . فقد أصر الصديق على أن يقاضيني بأسلوب صاحب العمـــل ، ورفضت وأنا أحاول إقناعه . هل نرضى الإحتكام إلى أحد . . ؟ فرحب بهذا كما بدا لي واختار صديقه الأستاذ حسين أبو الفتح فقبلت ذلك عن طيب خاطر ، ولكن انقضى الموعد ولم يحضر الأستاذ أبو الخير . . وكان طبيعيا أن ينتقل الاحتكام إلى قاضي المحكمة النيابية المختصة ، فحكمت في القضية لصالحي ، وصالح الزميل الآخر الأستاذ إبراهيم البعثي مدير تحرير المصور الآن .

وبعد خروجي من الاعتقال ، أقبلت على العمل واستئناف نشاطي بجريدة الجمهور المصري . . حتى قبل أن يصدر الحكم الذي ذكرته وأنا منه ، وإحساسي بضرورة العمل في الجريدة التي اعتبرتها جريدتي بالفعل رغم الأسلوب الذي

اتخذه الأستاذ أبو الخير فترة اعتقال، إذ كان الإحساس العام عند المواطنين بضرورة تصحيح مسار الثورة قبل أن تتورط أكثر فيما لا يجوز أن تتورط فيه. ولكن — وهذه إرادة التاريخ — لم تسمح الظروف بالعمل العظيم الجاد الذى نفذه أنور السادات فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .. وفى خلال هذه الفترة تغيرت معاملتى فى الجريدة، وفى نفس الوقت كثرت محاولات أخبار اليوم لاصطيادى من الجمهور المصرى وجرى العمل بأخبار اليوم. وذات يوم ذهبت إلى دار الأخبار وقابلت مصطفى أمين الذى رحب بى، وكان مهذبا معى، ولمست شيئا من معاملاته مع موظفيه فى الدقائق التى مكثتها عنده، وقد عرض على فى ذلك اليوم أن استعد للإشراف على « أخبار اليوم » إذ أنه، وعلى أمين، سيتفرغان لـ « الأخبار الجديدة » التى كانا يزمعان إصدارها من الشهر التالى وطلب منى أن انفرد بإصدارها وقال لى مصطفى أمين فى لهجة رقيقة : أرجوك .. لا تجعلها وفدية .. ولا تجعلها شيوعية .. وا كتب بعد ذلك ما شئت

قلت له : أنا رجل واقعى . وسأظل أشعر بالحقيقة التى لا تغيب عنى لحظة .. فأنا « عامل » وأقنع من الظروف فى بورصة العمل ، وأعمل عندك . فضحك وقال مندهشا : يعنى عندى أعمالى ؟ وضحكت بدورى وقلت : وإنه أحترم جميع الأوضاع الطبيعية ، ولا أحاول أن أثور أو أتمرد عليها فستجدنى دائما شريفا فى كل معاملاتى معك ، والتزاماتى قبلك ؟

لكنى سرعان ما اعتقلت مرة أخرى بعد سبعة شهور .. وأخرجت من العمل بأمر صلاح نصر .. معروف طبعا ! وأرسل مصطفى أمين إلى زوجتى يخطرها بأن تكتب تعهداً بعدم العودة إلى صراف « أخبار اليوم » مرة أخرى .. لقد طرده فتحى الرملى .. من يدرى لو أن الأستاذ مصطفى أمين عرف ما كان مقدراً له فى الغيب . ولو تأمل كل ما كان يخبئه له القدر .. ولو عرف من أين كانت ستصيبه الضربة، لو أن ذلك كان قد حدث قبل كانت تتغير خريطة حياتى أنا ؟!..

وأعود إلى جريدة « الجمهور المصرى » ، لقد استطعت مع أسرة الجريدة متعاونين أن نقفز بالجريدة حتى تبلغ من الإنتشار والرواج مالم تبلغه أية جريدة مصرية ، وكان العدد فى بعض المناسبات يباع بستين ضعف ثمنه . بجنيه كامل ؟ وليس هذا مبالغة ولا مبالغة .. لولا أن بعض خصومها من كبار

المراسلين راحوا — مع الإنجليز — يشنون عليها حملة محمومة ، واستطاعوا أن يعملوا بطريقة المخابرات الإنجليزية والأمريكية على تخريبها من الداخل ، فاشتروا بعض « الخونة » والمرتزقة الذين تسللوا إليها من خلال حسن نية صاحبها وعطفه على أولئك المرتزقة فتآمروا عليه وراحوا يكيلون له التهم بالجملة وهى علة « الإسقاط » المعروفة عند علماء النفس !

لقد جاءوا بكل القذر والأوساخ التى كانوا غارقين فيها ، وحاولوا أن يلوثوها عليه ، وقد انتقم الله منهم ، إذ قضى على أولهم ستة شهور فى قضية نصب وتهديد ، و « قابل » الحكم بكل صحة !

إذ لم يستطيع أحد من سادته أن ينقذه منه !

وبعد أسابيع كان الكبير فيهم قد سقط فى وضع غير محمود !

وإن كان الساقط الذى رآه متلبسا بجرمه لم يشأ أن يدله ، ولو من باب « الآداب » ! وشاء أن يدلل أكذبهم بتهمة سرقة اعترف بها بلا إكراه .. وإن الله « غفار » رحيم !

والرابع والخامس أصيبا بأسوأ ما يصيب الإنسان .. فحرما من الوحى وحرما من الحياة !

وكأنما كان الزميل ولياً من أولياء الله . إذ سرعان ما انقلب الشر الذى قصد به أبو الخير نجيب فى صورة نقمة عمره من أن يتردى فى الوحل ويلطخ اسمه أو تمس سمعته ، وحتى ولو كالمحصيات داخل أسوار السجون !

وكان الزميل فى فترة إصدار الجريدة سيء الإدارة يظن أن الاقتصاد هو « الفرصة » أو « التوفيق » وأن « الترفيه من حسن التدبير » .. كما يقول العامة ومن اليهم ، وكان ذلك من أبرز عيوبه ، وأكبر ذنوبه !

وواتتنى الفرصة فى هذه الجريدة لأترجم الأسلوب الوطنى الشريف الحر إلى أسلوب الصحافة الأمريكية من الإثارة والتشويق ، والأسلوب الساخر الرشيق وبالطبع لم تكن الصحف الأخرى تستطيع أن تجارينا فى طريقتنا المبتكرة ، وقد كانت طريقتنا فى التجديد والإبتكار تعتمد على تحويل الإثارة عن طريق الجنس والتهريج الأخبارى إلى إثارة سياسية تستهدف توجية القراء ، وتعمل

على تركيز إهتمامهم وحده إلى الموضوعات الوصفية ، والمسائل الإجتماعية والإنسانية . وإذا كان هدف الدراما عند أرسطو وسقراط من قبل هو « تطهير النفس » فقد كانت الصحافة عندى هى تركيز الدين على الحقائق وليس إغراقها بالأكاذيب كما تعمل الصحف الامريكية ومن يلف لفها !

العسكرى الأسود !

كان هناك موضع الإرهاب فى العهد البائد البغيض ، وكان الواجب يقضى بإثارته وتشديد التركيز عليه حتى لا يعود أكثر وحشية ، وافتراسا . . وكان ثمة موضع خطير لا ينبغى السكوت عليه كما كان موقف الجرائد الرجعية — وكانت كلها تقريباً رجعية فى ذلك العهد — فتحدثنا عن الموضوع من أوسع أبوابه ، ولم تقتصر جريدتنا على معالجة المسألة بمقال لرئيس التحرير مثلا . . كلا . . ولا بالمذكرات يكتبها فلان أو علان من الشبان الذين لم تنتزع البوليس اعترافهم إلا باستخدام القوة . . كلا أيضاً . . إنما بحثنا عن آلة التعذيب الجهنمية التى كان الطغاة يستخدمونها لارتكاب أكبر الجرائم إذ كان المتهمون فى أكثر القضايا يؤكدون أن ثمة « عسكرى أسود » يتولى تعذيبهم ألوان من الاكراه البشع لعلهم يعترفون . . واستكملت صاحة الاتيفون وسألت اولئك المتهمين . . إلا تعرفون إسمه . . قالوا جميعاً . . لا . . وعدت أسألهم . . إلا تعرفون أوصافه ؟ . . قالوا أيضاً ليس على وجه التحديد !

وسألتهم اخيراً . . ألا تعرفون بلده ؟ . . وكانت أجابتهم أيضاً . . لا ؟

ونشرت هذه المعلومات ورصدت خمسين جنيها مكافأة لمن يدلى بمعلومات تمكن الارشاد عنه . . وتحملت المسئولية فى تلك الغرامة ، فقبلت أن تقطع من مرتبى . . ووافقنى على ذلك صديق رئيس التحرير الذى قلت أن دالزمالة والتدقيق » كانتا من أبرز ميزيه ، وأكبر ذنوبه !

ولما صدر العدد ، ومرت الايام دون أن يجد ندائنا صدى ، عقدت اجتماعا مكتبى من بعض المحررين ، وقلت لهم أن البوليس السياسى يسخر — ولاشك — منا الآن إذا كيف نزعم إننا وطنيون ، وفى نفس الوقت لا نستطيع أن نكشف سرا بسيطاً كهذا . . فى حين انهم يفخرون بأنهم يقدمون كل

يوم للمحاكمات عشرات من الشباب الوطنى . . وختمت كلامى بقولى :
فلنكشف عن البوليس الوطنى . . ولنكرس أنفسنا للبحث عن ذلك العسكرى الأسود ، ونعلن اسمه ، ونقدمه لمحكمة الجنايات التى ستنعقد فى اليوم التالى لنظر القضايا فى محكمة الإستئناف .

وأدليت لهم ببعض استنتاجاتى ، فقلت لهم ان العسكرى الأسود غالبا من « الرديف » الذى يعمل فى بلوكات النظام ، وعلينا ان نبحث عنه فى الدفاتر الخصصة لذلك الرديف وهم من جنود الأقاليم طبعا ، وبالنسبة على الأقل إلى لونه وشكله ، فهو لابد من اهل الصعيد ، ولكن فقط لا يجب علينا ان نسأل بطريقة رسمية عنه ، فالبوليس ان يسمح بكشفه بهذه السهولة ، وعادتنا نتعامل مع امثال وذئاب فلنرتدى جلودهم ، ولنمكن منهم .

وعلى ذلك اخترت اثنين من الزملاء المحررين هما الاستاذ يوسف فكرى — من أبرز محررى دار الهلال حاليا — والاستاذ سعد زغلول فؤاد . . وكلفتهما بأن يذهبا سرا إلى إدارة البوليس على أنهما من كتبة المحامين يريدان الاستدلال على شخصية عسكرى كان منتدبا للعمل فى القاهرة وارتكب أيامها حادث اعتداء على أحد الموظفين . . ثم يستمر البحث فى دفاتر بلوكات الأقاليم

وصح ما توقعته ، إذ حاول الموظفون تضليلهم فى أول يوم ، وفى اليوم الثانى أعطوهما الدفتر المطلوب ، ولما بحثا فيه وجدا صفحة منزوعة منه ، وكلفتهما فى اليوم الثالث بإعادة البحث فى الدفتر نفسه ، فوجدا بقية المعلومات وفيها الإسم « أمين . . . » وبلدة « نجع حمادى » وأنه وصل إلى بلده باستمارة رقم كذا . بتاريخ كذا . . وهو نفس التاريخ المصاحب لتلك القضايا ، وكان بعضها قضايا « الإخوان المسلمين » ! ورجع أحد الزميلين بالصورة ، وأخذ منها نسخة وأعادها إلى الدفتر ، وما أن عرضت على المتهمين حتى صاحوا جميعاً . . نعم . . هذا هو العسكرى الأسود !

وقام خلاف بينى وبين رئيس التحرير حول ضرورة سفرهما ، لاستدراجه إلى القاهرة ، بعد تصويره طبعا . . لتقديمه للمحكمة بعد أيام قلائل . . فهذا فى رأيى هو النصر الأكبر . . وسلم رئيس التحرير بوجهة نظرى ، وأمر لأحد الزميلين بالسفر إلى نجع حمادى ومعه سكرتير التحرير إذ ذاك الأخ والزميل الفاضل إبراهيم

البحر . وكان لا بد من أكذوبة بيضاء ، ومداعبة آمال الرجل ، «الكرباج» ! إذا ما كادا يوهمان له أن الباشا الحكمدار ، فلان ، لا يزال يذكره بالخير ولا ينسى له خدماته البوليس السياسي وإجباره للمتهمين السياسيين على الإعتراف ! حتى وقع أسير «العسكري الأسود» — في الفخ ، وأخذ يسرد الوقائع الخطيرة التي كان يرتكبها في ذلك الوقت ، ثم أخـذ يستعد الحضور إلى القاهرة إذا ما كان مطلوبا بالفعل .. فقال له الزميلان .. بالطبع .. ونحن مسئولون عن تكاليف انتقالاتك ، بل وإقامتك في اللوكاندة .. وجاء العسكري الأسود .. أداة التعذيب الجهنمية — كما كانت تسمية وكالة اليونايتد برس — وكذلك أكبر المجلات الأمريكية .. وسلطت عليه الأضواء من صحافة العالم أجمع .. وتكلفت هذه الخبطة الوطنية وهذه الدعاية الضخمة لجريدتنا حوالى ستين أو سبعين جنيهاً على الأكثر .. ألم أقل ان التدبير ليس هو الاقتصاد .. إنما هو الفقر الوفير ؟

الأقطاب الثلاثة

ومن الخبطات الصحفية العظيمة أيضاً ذلك الفخ الذي استدرجنا إليه ثلاثة من كبار أقطاب الأقلية ، وهم الأساتذة المرحومين على أيوب وإبراهيم دسوقي أباظة ، وعباس محمود العقاد .. وكان الأول سعديا ، والثاني دستورياً والثالث مستقلا لكنهم كانوا يشتركون في معاداة الشعب الوفدي ، مع ميل إلى الإنجليز يكاد يكون واضحاً .. ولكنه في حاجة أيضاً إلى إيضاح من حين لآخر حتى لا ينسى الشعب .. وقد أوفدت لهم اثنين من أكبر رجال الصحافة لتوريطهم ، أحدهما زعم أنه صحفي إنجليزي ، والثاني تظاهر بأنه صحفي فرنسي ، وأردت بهما أن يكونا شاهدين على عدائهم للشعب فلا يستطيعون تكذيبهما جملة أو تفصيلا .. وإلا فشاهدان فثلاثة كما يقول المثل

أضربنا عن الطعام !

كانت الحكومة قد بدأت تمنع الإجتماعات ، والمظاهرات ، .. والرقابة اشتد وتعسف على الصحف .. وفي يوم الأحد ٢٦ أغسطس ١٩٥١ ، اجتمعنا في نادى الكتلة الوفدية ، محمد درويش إشتراكي بيع المصنوعات فرع مصر الجديدة (عن العمال) ومحمد زغلول فؤاد .. صحفي عن الشباب .. وسعاد ملى صحفية الآن بجريدة الجمهورية عن المرأة .. ومحمد كامل عمر عن الفلاحين .. وفؤاد القصاص صحفي وعمرو وصفي عن الموظفين .

وقررنا أن نعتصم بنادى الكتلة وأن نبدأ إضراباً عن الطعام حتى تتكتل الشعب ضد معاهدة ١٩٣٦ .

وقامت قيامة الحكومة ، لقد أصبح الناس ولا حديث لهم إلا المضربين عن الطعام . الصحف اليومية تطبع نشرة يوميـة عن صحتهم .. والمجلات الأسبوعية تتنافس في عمل الريبورتاجات مع المضربين .. والزوار لا ينقطعون عن نادى الكتلة حيث اعتصمنا .. عزيز باشا المصرى .. فتحى رضوان .. ابراهيم شكرى .. السيد المهدى التعايشي على رأس وفد من السودانيين ..

عشرات وعشرات من الزوار .. والنادى لا يخلو إلا ليلا .. ومظاهرات الشباب لا تنقطع عن الإلتفاف حول النادى لتحيتنا .. وبرقيات التأييد تنهال علينا ، أذكر منها على سبيل المثال برقية البنداوى باشا كان نصها .. أقبلكم واحدا واحدا .. وثقوا أن الشعب لن ينساكم يا طليعة الأحرار !

ويبدو أن الباشا في حماسه نسي شيئاً هاما ، هو ضعف ذاكرة الشعوب !

كانت مصر قد تحولت من أقصاها إلى أقصاها إلى أتون يغلى خوفا على صحة المضربين وتقتنها وكراهية للحكومة التى تتباطأ في إعلان إلغاء المعاهدة التى لعنها كل مصرى ، وتعرض بهذا التباطؤ صحة المضربين للخطر !

وتحولت حركة الإضراب عن الطعام إلى حركة مقاومة شعبية ضد المستعمر الإنجليزى ، وضد الحكومة التى تتراخى معه !

ووزير الخارجية إذ ذاك ، محمد صلاح الدين باشا قد وقع فى حيرة . فهو لا يستطيع أن يتخذ قراراً خطيراً ، كهذا تحت الضغط الشعبى ، وإلا أحس الشعب بقوته ، وأصبحت هذه سابقة ، يلجأ إليها الشعب كلما أراد إملاء إرادته .

وفى نفس الوقت هو لا يستطيع أن يتجاهل هـــذا الغليان الشعبى الذى قد يتحول الى انفجار . . خصوصاً وقد تحولت الحركة الشعبية واتجهت إتجاهاً عالمياً ، فقد لجأت لجنة تأييد المضربين إلى السكرتير العام للأمم المتحدة فأرسلت إليه مستنجدة لإنقاذ حياة المضربين .

وكان لابد من حل سريع من الحكومة . .

وعندما انضم إلى المضربين المرحوم أحمد الوزان من تجار القاهرة ، وسيد عبد العظيم من عمال الخلينة ، وحلمى رجب المصرى من عمال وموظفى شركة قناة السويس . . لم يعد واحد منا شك ، فقد بدأنا الإضراب ونحن سبعة وبعد يومين انضم إلينا ثلاثة عشر ، وفى كل يوم كان يتردد علينا شباناً ، ورجالاً ، ونساءاً يعرضون الانضمام إلى حركتنا .

ولكن الحكومة ، فى اليوم الثانى عشر لبدء الإضراب ، كانت قد قررت ، تخريب الحركة من الداخل ، خصوصاً وقد ساءت صحة بعض المضربين ورغم ذلك أصروا على عدم الإفطار !

وكانت تتردد على النادى — ضمن مئات المترددين — فتاة صغيـــرة من الاسكندرية ، كانت تدرس الصحافة معى بالمراسلة ، ولم أكن أعرفها — فى ذلك الوقت — أكثر من غيرها . . ولكن يبدو أن حالة الإثارة التى أحاطت بالمضربين سحرتها ، فقد أكثرت من التردد على النادى للاطمئنان علينا . .

واتهزها عملاء الحكومة الذين اندسوا وسط الحركة فرصة ، وبدأوا فى اشعال الموقف بحجة أن فتحى الرملى تتردد عليه فتاة يحبها ، وأنه لا يعطى الحركة جديتها الواجبة !

وبدأ الموقف يشتعل ، ووصلتنى الإشاعة ، فاتخذت موقفــاً حازماً من الفتاة ، ورجوتها أن تكف عن زيارتنا ، وأن تطمئن علينا — إذا شاءت من الصحف !

ولكن امتناع الفتاة عن الزيارة لم يكن يكفى فقد كان لدى العملاء عشرات غيـــرها من القصص والإشاعات ، وعندما توسط لدينا الأستاذ مكرم أباظة — نقيب الصحفيين وقتها — فى اليوم الرابع عشر لبدء الإضراب لوقفه ، بعد أن أخذ وعداً من وزير الخارجية بإلغاء المعاهـــدة ، شريطة أن نفطر أولا . . رأيت إنه من اللائق — فى مثل الظروف التى شرحتها — أن نوافق !

وأفطرنا فعلا فى ٩ سبتمبر ١٩٥١ ، وأعلنت الحكومة إلغاء المعاهدة فى ١٩ أكتوبر من نفس العام ، أى بعد ما لا يزيد عن شهر !

وهناك إضافة صغيرة يحق أن أسجلها . . ألم أعد القارىء بكل الصدق ولا أخفى شيئاً ؟ . . لقد أصبحت الفتاة الصغيرة التى كانت تتردد علينا فى نادى الكتلة ، هى زوجتى الثانية فيما بعد !

والآن وأنا أسجل ذكرياتى ، فإننى أسائل نفسى فى حيرة . . هل هى طبيعتى العنيدة التى جعلتنى أتعلق بتلك الفتاة ، وأتحدى الشائعات التى ترددت عنى وعنها ، وأتزوجها . .

أم أنى وجدت فيها — فعلا — عذوبة أسرتنى ، وجعلتنى — أنا الذى أقدس الواجب — أنسى واجبى ، وزوجتى التى ظلت — حتى بعد إنفصالنا أعظم سيدة وأوفى صديقة ؟

وتعود إلى إلغاء المعاهدة . .

كان — بعد إعلان الغائها — لابد لنا أن نبدأ عملا جديا . .

وبدأت « حركة المقاومة الوطنية » التي كنا ألفناها منذ عام ١٩٤٥ مع حركة الجبهة الاشتراكية — ترسل متطوعيها إلى القنال لحرب العصابات ضد الانجليز !

وطبعت منشوراً باسمي بالإنجليزية كان فدائيو الحركة يتولون توزيعه بين جنود الإحتلال وكان نص المنشور : « من حركة المقاومة الوطنية . . إلى جنود الاحتلال بالقنال . . إنكم ضحايا . . تماماً مثلنا . . لقد ساقتكم حفنة من الإستعماريين والإمبرياليين إلى بلادنا وانتم أولاد الطبقة العاملة الشريفة وانتم لاتريدون اراقة دمائنا ولا تيتيم اطفالنا .

إننا نأسف لأننا مضطرون لقتالكم من أجل الحرية والسلام . . وسوف نظل نواجهكم حتى تحقق أهدافنا . . وكل ماتريده ان تسألوا انفسكم . . من اجل من تخسرون حياتكم . . . . أن الأموال التي تنفقها حكومتكم من اجل ان تظلوا تحت السلاح ، لتكفى حاجتكم إلى حد كبير من البطالة والتعطل .

لاتسيروا وراء تشرشل وعصابته مغمضى الأعين ، طالبوهم بأن يعيدوكم إلى امهاتكم . . وزوجاتكم ، وأطفالكم . . إلى احبائكم واصدقائكم . .

لهذا نرجوكم أن تذهبوا . .

وإلا فستضطرونا إلى ان نعمل . . واعلموا إننا نعرف جيداً كيف نجبركم على الرحيل !

وكان اول شهداء حركتنا ، الطفل نبيل منصور . . غلام لم يتجاوز الثانية

ATTENTION THEREFORE

Don't [illegible] Churchill and his gang blindly to your own [illegible], ask them to send you back to your mothers, wives and children, sweet hearts and friends

SO PLEASE GO AWAY...

OR you oblige us to take drastic measures to get our [illegible] freed from [illegible]

Bear it in mind, WE KNOW HOW TO DO IT !!

Fathi AL-Ramly

عشرة من عمره ، تسلل إلى محطة سكة حديد بورسعيد وخرج بعد دقائق وفى يده قطعة كبيرة من القماش المغموس فى الفحم والقار . . وذهب الفتى إلى خيام الأعداء وزحف بجسده على الأرض واخترق الأسلاك الشائكة ، ثم نشر القماش المبلل بالقار — بعد أن أشعله بالنار — على خيام الأعداء !

ثم خلع قميصه وألقاه مشتعلا بدوره على الخيام التي لم تكن النار قد وصلت إليها بعد وحاول بعد ذلك الفرار . . لكن رصاص الإنجليز منعه من العبور إلا جثة هامدة !

وكان استشهاد نبيل منصور أول ضحايا حركة المقاومة الوطنية فى معركة القنال ضد الإنجليز فى ٢٣ اكتوبر سنة ١٩٥١ !

BRITISH SOLDIER...

BRETHREN

We want you to ask ...

prosperity

صورة المنشور الذى كتبه المؤلف باللغة الانجليزية ليوزعه الفدائيون بين جنود الاحتلال .

حرق القاهرة !

وكانت لنا طريقتنا فى استقصاء الأخبار ورقابها عن حالة مواردنا المالية ، فقد كنت أعرف كيف أضع يدى على منابع الأخبار ، وأستكشف مصادرها ، عرفت ذات يوم أن الفريق فؤاد باشا صادق يتحفز للوثوب إلى الحكم فى حركة كالتى أطاح بها الجنرال زاهدى فى إيران بالزعيم الوطنى دكتور مصدق بعد أن تمكن عملاء أمريكا من تنظيم مساعدة الدكتور حسين فاطمى ، بطل التأميم لبترول إيران ، إذ استطاعوا تعريض جثة حسين فاطمى إربا إربا . بحسب ما جاء فى البرقيات !

وكان غرض الإستعمار البريطانى فى مصر فرض الدفاع المشترك علينـا ولم أكتف يومها بكتابة الخبر الخطير بجميع تفصيلاته ، بل عملت على توضيح الموقف كله فى مقال افتتاحى لجريدة « البعث » التى كنت أصدرها وأرأس تحريرها وقتذاك .. وصودر المقال ، وعجب الناس من المعلومات التى تضمنتها ، والحقائق التى بنى عليها ، ولاحظوا أنى أوردت تصريحات شفاهية للوزير حامد ذكى ، وعلى ماهر باشا ، وآخرين من « أبطال » الدفاع المشترك !

وكانت تصريحاتهم لأسباب « عليا » !

لقد تبنت أمريكا فكرة تفجير الثورة المكبوتة حتى ذلك الوقت فى احداث أخطر وأكمل ، وانفردت بالعمل بالعمل .. ولكن كيف ؟

بعد اشتداد حركة المقاومة الوطنية فى الداخل وفى القنال ، أصبح طرفا الصراع هو جمهرة الوطنيين ، والمظاهرات الوطنية واسعة تعم البلاد ، والسخط يتجمع حول الملك ، وعشيقاته ، وحاشيته وشقيقاته ، وأمه ، وعشاقهن .

أما الأمير محمد على والأمير يوسف كمال ، فيتجسد فيهما السخط على الاقطاع وتعذيب الفلاحين كما يتجسد فى الأمير عمر طوسون ، ومحمد طاهر باشا والبرنس عباس حليم كل معانى الإرتياب والشك ، فهم فى نظر الجماهير إركان حرب الملك وحماة حمى للملكية !

وبصرف النظر عن حقيقة هذا من عدمه فإن طاهر باشا كان يؤسس ماسماه « البوليس الخاص » من أبناء العائلات الكبيرة .. والأمير عمر طوسون كان يجمع فى سراياه بعض كبار الأدباء المصريين !

كما كان عباس حليم يزمع تأليف حزب عمال يعتمد على العمال ذوى الزى الأصفر، مما يجعل النظر إليهم يزداد حذراً وريبة. وقد نشرت إحدى الصحف الأمريكية ذات يوم — ونقلت عنها إحدى المجلات اللبنانية — مقالا أخباريا يؤكد أن الملك فاروق يفكر جديا فى ترك الحكم أو الملك، ليتفرغ لحياة اللهو والعبث وإن بعض رجال البلاط الأعلى وبعض كبار عائلته كولى العهد وغيره، قد قاوموا هذه الرغبة، ومنعوه من التنفيذ إلا إذا عين خليفته.. وحددوا له الأمير محمد على، وإن الملك رفضه، وقيل يومها أن الملك ترك هذه الفكرة أو أنه تظاهر بذلك وسكت الجميع عن الكلام فى هذا الموضوع!

وكانت البلاد تبعث وهى تستمع إلى الإشاعات المتتالية عن إسم المرشح للحكم بعد الوفد! فقيل أنه الأستاذ أحمد حسين المحامى.. وقيل لا.. بل أحمد حسين رئيس جمعية الفلاح مع خليط من رجال أمثال عباس عمار وغيره من الأصدقاء المعروفين لأمريكا.. بمجرد أصدقاء!

وكثرت الإشاعات، وأصبح الناس يصحون على إشاعات، ويمسون على إشاعات غيرها.. وفى كل ركن أو صالون أو مقهى.. يتهامسون عن إشاعة، وفى دكان من حوارى سليمان باشا، شوهد أحد الصحفيين الأمريكان وهو يسر بحديث إلى الأستاذ فريد شحاته سكرتير الدكتور طه حسين، لعله ينقله إليه، رحمه الله، ويقول له باختصار: إن الأيام القليلة القادمة ستفاجئ الناس بأحداث ضخمة، ربما تتغير بها الخريطة السياسية للشرق الأوسط، وسيظهر لاعبون جدد على المسرح السياسى، ويختفى اللاعبون الحاليون!

وكنت أسمع كثيراً من هذه المبالغات فى ذلك الوقت، ولذلك لم أهتم كثيراً.. ولكن، فى مساء اليوم نفسه، دخل على فى مكتبى شاب من شباب مصر الفتاة هو الأستاذ أنور عامر وصدمة إذا هو يحمل بهذه الأسرار أبوح بها الآن — ويفاجئنى بقوله: إن مصر الفتاة سوف تسقط وزارة النحاس باشا!

قلت وأنا لا أخفى تعاطفى إذا ذاك مع الوفد: وكيف تستطيعون إسقاط وزارة تحوز على ثقة الجماهير على هذا النحو.. إن الرأى العام الإنجليزى يسيطر عليه حزبان.. العمال والمحافظين!

والرأى العام الأمريكى يسيطر عليه حزبان أيضاً هما الديموقراطى والجمهورى،

والرأى العام الفرنسى يتقاسمه حزبان أو ثلاثة.. أما الرأى العام للمصرى فلا يسيطر عليه إلا حزب واحد هو الوفد.. فكيف يمكن الإطاحة بحزب هذا شأنه.. يحوز على أغلبية.. وأية أغلبية؟!

وأجاب الأستاذ أنور عامر بإيمانه العميق ضد الوفد وحماسته المتدفقة: بالعمل بالإيمان.. ستثبت بالأعمال التى ستفاجئ بها النحاس باشا أنه غير قادر على حكم البلاد.. وعندها سوف تسقط حكومته الضعيفة التى لا تحارب مع الشعب، ولا تعرف كيف تتقدمه!

وتذكرت أن بعض شباب مصر الفتاة، قد هاجموا كازينو كوباكابانا بشارع عماد الدين وحطموا بعض اللمبات الكهربائية وأن هذا الذى حدث قد لا يكون أكثر من «بروفة» للعمل الذى يخطط له الأستاذ أحمد حسين وجماعته النشطة، والذى وعد به فى مجلس جماعته المسمى مجلس «الجهاد»!

لكنى لم ألبث أن ابتسمت فى سرى.. فقد خطر لى أنه لن يحقق أكثر.. وأن هذا هو مدى ما يستطيع!

ولكن فى اليوم التالى — يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ — استيقظت الجماهير على أمر خطير.. فقد كانت القاهرة تحترق!

وهرع بعض الناس يشهدون الحرائق، بينما حبس الكثيرون أنفسهم داخل البيوت.. وكنت أحد الذين آثروا الحبس الاختيارى فى ذلك اليوم الذى كنت أراه مقدمة لاعتقال أكبر عدد من الوطنيين البعيدين عن مظلة الإنجليز.. ولكن صديقى المهندس حلمى لبيب ما لبث أن زارنى وألح على فى مصاحبته فى جولة لمشاهدة آثار الدمار.. وكان أول ما شهدناه.. منظر الحاج على القندور وهو يشرف على ما أصاب محلات «بوندى» تاجر السلاح بشارع رشدى، وكان أقرب المحلات إلينا.. وقد أصبح طعاما للنيران!

ثم ذهبنا إلى كازينو أوبرا.. وكانوا قد أشعلوا فيه النيران.. ولما جاءت المطافئ بعد نصف ساعة كاملة!

فطمروا خراطيمها بالمدى! ثم أحرق فندق الكونتننتال.. وشبرد.. ورأينا أحد الضحايا يهبط على ماسورة المياه لاستحالة خروجه وسط النيران.. ويستطيع — من يريد حكما صريحاً — أن يتهم مصر الفتاة من أول لحظة،

ما أغلب الذين كانوا يروحون ويغدون في الشوارع من شباب مصر الفتاة، بل وكان بعضهم يحمل صورة للملك فاروق!

ونستطيع أن نفهم المقصود من هذا الجو على سبيل التهويش، أو التعمية!

ولكن لا إعتقال أحمد حسين وشباب مصر الفتاة وإيداعهم المعتقلات والسجون، ولا تجمعات الصعوديين منهم في بعض الشوارع الجانبية يحرضون على تقديم الشعب بكتابات لها رنين الطبل الأجوف.. لا شيء من هذا كان يمكن أن يخدع للعين السليمة.. وربما اشترك بعض إخوان الحرية بقيادة الشيخ الزواوي في حرق القاهرة، وربما وضع أعضاء مصر الفتاة في مكان الصدارة، بل وربما اشترك بعض الضباط، ضباط البوليس وجنود الجيش (كالمظاهرة التي قام بها بعض الجنود الذين حلوا الصاغ عبد الخالق، ومن تساهم في الفتنة على غير وعي منها) وربما كان بعض المأجورين أو غيرهم من شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية، وشركة شل وغيرها قد نفذت ما عليها!

ولكن بقيت الأصابع الأكبر التي دبرت الجريمة، وكانت على رأسها.. وذلك فأنها باستمرار، وفي كل مكان.. إنه أسلوب «المـافيا» (١).. أسلوب العصابات الأمريكية، والتي لا نستبعد أن تكون قد استأجرتها المخابرات المركزية بنفسها!

لقد حاولت — وحاول غيري قطعا — أن نكشف.. من فعل حرق القاهرة ولكن الذين كانوا يخشون إثارة هذا الموضوع، كتفوا تماما أقـلام الرقباء، بل وقطعوا ألسنتهم بحيث لا ينطقون ولا يتكلمون!

المهم ان كل من اتهموا.. كأحمد حسين ومصر الفتاة، والأخوان المسلمين واخوان الحرية، حتى ولا المخابرات البريطانية، والسفير البولندي!!

كل هؤلاء، أريد باتهامهم التعمية عن القمة الحقيقيين أصحـاب «المافيا»، سواء كانوا بملابسهم الحقيقية.. أو بالأقنعة والأزياء التنكرية باعتبارهم، ومن السهل أن نعرف بعد ذلك عملاءهم من المصريين.. ومن إليهم!

(١) أحدى العصابات الأمريكية القاتلة في عالم الاجرام الامريكي.

وبات الوطنيون في تلك الليلة وهم يتوقعون القبض عليهم وترحيلهم إلى السجون قبل صباح اليوم التالي، كما جرت العادة عند كل حادث يمكن أن يلقى ظلا من الشك على الذين دبروا حادث الأمس!

وبدأ المجرمون يعملون على إشاعة الإتهام، فالاخوان يتهمون مصر الفتاة ومصر الفتاة تتهم الاخوان المسلمين، وفـؤاد سراج الدين يتهم السراي باستخدام بعض الضباط، أو الإنفاق منهم على التواطؤ، والضباط يؤكدون أن بعض اذناب الملك مثل حسين سري عامر وغيره قد قبضوا، فعلوا لتعمية الناس عن حقيقة تآمرهم على البلاد، والوطنيون يتهمون الجواسيس الإنجليز والجواسيس الإنجليز يتهمون الشيوعيين!

وكانت براعة التكتيك الإجرامي تحرص على أن يصبح المصريون وهم متهمون جميعا بحرق مدينتهم، ماعدا فئة واحدة لا تشير إليها أصابع الإتهام!

كلا، وحتى بعد أن هدأت موجة الإتهامات ضد المجرمين، ظـل الإتهام مركزا حول بعض الجهات، أذكر منها عن التخصيص.. السفارة الإنجليزية والمفوضية البولندية، فالوزير المفوض لبولندا — كما خرجت الإشاعة تقول — حرق وارسو، ومن المتخصصين في إشعال النيـران، والسفير الإنجليزي صاحب مصلحة، لأن الإنجليز كانوا منغاظين من الفدائيين ونشاطهم في القنال، وكانت هاتين الإشاعتين هما في الحقيقة أقوى ما تردد في ذلك الحين، ومنه يعلم الناس سر إنتشار الإشاعة، وبالتالي مصدرها، وكان هو بالتحديد.. الإستعمار الجديد!

وبالتحدى .. أصدرت المعارضة .

كان المرحوم أحمد عصفور شخصية عجيبة حقا .. تزوج أكثر من عشرين مرة ، وخاض أكثر من أربعين مغامرة ! واشتغل مع مئات الشخصيات من مختلف الألوان والجنسيات .. عربية وإنجليزية وفرنسية وألمانية .. ملوكا وأمراء ! .. خدم وصعاليك ! إعترف لى ذات مرة أنه كان ضحية مرة وشياطين من زبانية البوليس السياسى .. وما أدراك ! ولكنى لم أكن أصدقه فى هذه الإعترافات الغريبة التى وصلت إلى حد أن آخر ما رواه لى قبل أن يلفظ أنفاسه .. أن بعض أفراد البوليس المصرى قد ضربوه بالرصاص ! ثم عاد وزعم أنه كاد يذهب ضحية « المافيا » الذين اصطادوه قبل ركوبه الطائرة وطعنوه عدة طعنات فى جنبه ثم عاد يدوخنى بكلمات محمومة فزعم أن الخنجر الذى ضرب به كان مسموما !

.. رحم الله المغامر التعس .

وكان « عصفور » هذا قد عمل معى فى جريدة الجمهور المصرى مندوبا لمرافقاتها بقضية الأسلحة الفاسدة ، ولم يلبث أن وطد صلته بالنبيل السابق المرحوم عباس حليم الذى كان واحدا من الذين جاء ذكرهم فى تلك القضية ، وحاول « عصفور » والنبيل السابق .. حاولا أن يجعلانى أقبل منهما هدايا .. أو رشوة نقدية ، مقابل أن أنشر لهما ما يكتبانه دفاعا عن عباس حليم ، ولكنى أفهمتهما بأنى شخصيا لا أقبل على نفسى مثل هذه الأمور ولما أعيت « عصفور » الحيلة معى ، أراد أن يفعل شيئا يصطاد به عصفورين بنفس الحجر . فقد جاءنى يوما يسألنى ، وبلهجة من يرق لحالى : (كنت فى ذلك الوقت سنة ١٩٤٩ اتقاضى خمسين جنيها و ١٠ جنيهات بدلات ، كما جاء على لسان صاحب الجريدة نفسه فى القضية الجنائية) :

— لماذا لا تصدر جريدة خاصة ؟

قلت له : ومن اين لى بالمال .. انى لا أملك فيه التأمين اللازم لإصدار

هذه الجريدة . وكعادة « عصفور » فى تهوين الأمور .. اخرج من جيبه قلما وهو يسألنى عن الإسم الذى اريده لجريدتى . فقلت دون ان افكر طويلا .. الإسم .. ؟ الإسم .. ؟ سميها الشرارة .. ثم عدت لقول .. ما رأيك فى المعارضة ؟ .. قال وهو ينصحنى ضمنا .. ما تكن الشرارة .. لأن الحكومة .. حكومة السعديين وقتها على ما أذكر .. لن تعطيك ترخيصا بهذا الإسم .. اسم المعارضة .

وفكرت بسرعة ثم قلت له .. بل تسميها المعارضة .. فما دامت الحكومة ستعترض فسيكون اعتراضها على الجريدة .. أيا كان الإسم

وفى اليوم التالى كنت عائدا إلى بيتى فوجدت البواب ينتظرنى وفى يده خطاب مغلق سلمه لى وهو يقول « رسالة من صديقك الذى كان عندك بالأمس » .

ورفعت حاجبى دهشا متعجبا .. فقال موضحا : صديقك الذى يعرج قليلا وفهمت فى الحال انه يقصد عصفور .

ورحت اقرأ الخطاب متعجلا .. ثم اعيد قراءته مرات ومرات .. « لم اجدك بالأمس فى مسكنك وقد اعددت لك كل شىء بخصوص موضوع الجريدة .. ستجد فى البنك البلجيكى باسمك ضمان بمبلغ ١٥٠ جنيها باسم جريدة المعارضة لصاحبها فتحى الرملى اذهب غدا إلى البنك البلجيكى بشارع قصر النيل واسأل عن المدير ، وسيعطيك خطاب الضمان فى الحال » .. ولم يقل عصفور فى خطابه .. ضمنا من اى حساب ؟ .. وتركت الخطاب فى جيبى وانا متردد فى الذهاب .. موقنا ان القصة كلها ليست إلا كذبة خيالية من تدبير احلام عصفور وفى اليوم الرابع او الخامس . وجدت نفسى صدفة امام البنك ، فدخلت ، وسألت عن المدير .. وبعد أقل من دقيقة كان الرجل يستقبلنى وهو يعاتبنى لأنى تأخرت . ثم قال تفضل انتظر حتى تكتب لك السكرتيرة خطاب الضمان على الماكينة . ولكنى فضلت ان اجلس مع السكرتيرة لسبب لا يعنى المدير .. فقد خجلت ان اسأله شخصيا .. هذا الخطاب .. ضمنا من اى حساب ؟

وقالت لى الآنسة وهى تسلمنى الخطاب .. ألا تعرف الصادر ؟ .. أنه البرنس عباس حليم ! وكان الخبر مفاجأة غير متوقعة بالنسبة لى .. أنا الذى طالما هاجمت عباس حليم .. ربما فى جميع الصحف التى كنت أصدرها .. والذى طالما سخرت من زعامته للعمال .. كيف استطاع أحمد عصفور أن يقنعه بأن يؤدى لى هذه الخدمة الجليلة ؟ ! .. وخشيت أن يكون الأستاذ عصفور قد وصل إلى هذا عن طريق إيهامه بأنى سأقدم له ثمنا من أى نوع وضد أى وعد .. وفكرت فى الرجوع الى عباس حليم قبل أن أقبل هذه الهبة ، وسألت عنه فى نادى السيارات ، فلم أجده .. وقيل لى أنه فى أوروبا ، ولن يعود قبل الأسبوع الأول من يناير ١٩٥١ .

على أى حال كان « البرنس » قد أسرف بلطفه ، واستطاع بمهارة وده ، أن « يصطادنى » فى شبكته ، حتى لو كان شريراً .. فما بالك إذا كان قد فعل ما فعل بحسن نية ، وبلا غرض على الإطلاق ؟! وبدأت أحلم بالجريدة التى ستنافس أكبر الجرائد الأسبوعية فى ذلك الوقت ! ولم يكلفنى أكثر من ثلاثمائة وخمسين جنيهاً ماديء الأمر .. فاشتريت بعض الأثاث البسيط لمكتبى ومكاتب المحررين ، وقررت ألا أنفق إلا بقدر .. حتى الإعلانات عن الجريدة ، قررت ألا أسرف فيها من الناحية المادية ، فطبعت بطاقة وعليها استفتاء عن المصير الذى ينتظره القارىء لقنال السويس . هل هو تأميمها أم تمصيرها أم ردمها .. ؟ وفى نفس الوقت قامت حملة من صغار أصدقاء الجريدة تملأ الجدران والحوائط باسم « المعارضة » .. أسفرت فى اليوم التالى عن غرامات بمائتى جنيه حررها لنا البوليس وثلاثة خطابات مسجلة علم الوصول من ثلاثة تجار أنذرونا بالقاضى مقابل قضايا تتمسح بها أنشاط الجريدة فى ساحات المحاكم !

وإلى جانب هذا كانت هناك أمجاد أخرى .. مثلا .. بدأت مصلحة البريد توافينى بأجولة كاملة من بطاقات الاستفتاء كما طرحها عند أبواب الجريدة ،

يثير منظرها الرهيب أفكار الناس ، وجاءنى خطاب من عصفور يقول فيه .. (خلاص .. سأحضر لك مبلغا كبيراً من المال .. هل تكفيك عشرة آلاف جنيه .. دفعة أولى ؟! ..)

وقال بعد أن أشبعنى نصائح .. لا تتردد كما فعلت أول مرة .. أذهب هذه المرة حالا تجد عشرة آلاف جنيه رأسمالا للجريدة ، فهل تريد استلامها .. اذهب إلى شركة القنال بقصر الدوبارة واستلم المبلغ حالا ، وأعطنى علما بما تم ، لأفرح لك .. مجرد فرح ، فأنا لا أطمع فى أى مبلغ منك .. تكفينى فعلا هذه الأمجاد التى تحققها !!

قلت لنفسى وأنا أمط شفتى .. وأسف لهذه العقلية .. أى أمجاد يريدنى هذا المأفون أن أفرح بها ؟ .. وأى عار يلحق بنا إذا خطر لنا أن نفرح بهذا الانتصار الخزى .. الحقير ؟!

ذلك أننى لم أقف على بقية القصة التى أخفاها هذا الأفاق عنى ، فقد كان وبعد اليوم نفسه يتضمن بعض الكتب الأنيقة ، فى طبعة فاخرة ودعوة لزيارة الأستاذ يوسف عباس بمقر شركة القنال للتفاهم على النشر ، وموافقة مبدئية من المركز الرئيسى فى باريس على نشر ميزانيتهم السنوية فى « المعارضة » نظير عشرة آلاف جنيه !!

وظللت مصعوقا بالغضب فى ذلك اليوم .. وفيما بعد ، حدث أنى قابلت النبيل عباس حليم بعد عودته من أوروبا فى نادى السيارات لأشكره .. عصفور ، وأقول له أنى سأنفض يدى منه لما جلبه علينا من المتاعب .. وما كدت أذكر اسم عصفور حتى وجدت النبيل عباس حليم ينتفض من الغضب وهو يلقى بنار حممه على عصفور .. وحملت قدرها بهذا الكلام .. فقلت له بالنص .. يا أفندينا .. أفهم من كلامك أنك ساخط على هذا الشخص وأنك لا تطمئن إليه .. فلماذا إذن أراك تثق به وتعطيه كل أسرارك ! وقال عباس حليم بلكنته الغريبة : شوف يا أخى .. إذا أردت أن تصيد فأراً .. فلوح له

بعذوبة « الجن ! » ، ونطق البوليس كلمة « نفتوة » ، فلكت القرية ما جعلني أغرق في الضحك ، فقد فهمت ما يعنيه النبيل .

وبالمناسبة بهذه المناسبة واقعة طريفة حدثت لي مع عباس حليم بعد قيام الثورة ، فقد ذهبت أزوره وجلسنا نتحدث في الشئون الجارية ، وكان مطلوبا للمثول امام محكمة الثورة ، وسألني « البرنس » عما يعمل ، فقلت له : رأيي ان تصدر البيك بيانا تتنازل فيه عن اللقب فإن ألقابك الشعبية تكفي . اما تلك التي منحها اياك الوفد وفي عهد صدقي البغيض فيجب ان تتنازل عنها ، وترد اليهم اوسمة النبالة والأمارة ، وتعلن تنازلك عن املاكك . . وضحك وهو يقول : ليس عندي ما امتلكه سوى مسجد صغير ، فهل اعطيهم المسجد ؟

ثم إلتفت يسألني ، من هم الذين طلبوا محاكمتي . . ان بعض اعضاء مجلس القيادة . . وذكر اسماء منها اسم وجيه اباظة وعبد اللطيف البغدادي ، من الذين يعرفون انني تبرعت بأموال كثيرة لحركة الفدائيين في القنال ، ويعرفون انني شخصيا ، بل وبناتي . . المنية وليلي ، كنا نسرع دائما إلى تلبية اي نداء وطني . . ثم رأيته يمسح دمعة كادت تغرقه ، وتنزل من عينيه !

وقد اوصلني يومها إلى الباب وهو يطلب إلي ان ازوره غدا وبعد غد ، ثم يطلب إلي ان ابلغ سلامه وتحيته إلى « زملائي » اعضاء مجلس الثورة !

إذن فقد كان « البرنس » يظنني منهم . . !

وكان كل ما فعله إذ ذاك ، انني قدمت إليه آخر نسخة من جريدة « المعارضة » حيث كان اول ما لفت نظره فيها خبراً من املاكي وكتابة زميلي في ذلك الحين جلال كشك ، وكانت عناوين ذلك المقال — كما اذكر — هو « ستزيد هذه الوزارة دون ان نشترك فيها » . . والمرحوم علي « بالمعارضة اليسارية » بالذات ، إذ كان يحمل لواء الهجوم على قانون الأحزاب وغيره من القوانين التي صدرت لتسحق الديمقراطية لمدة ثلاث سنوات ليس إلا ثم طالت حتى اصبحت عشرين عاما او تزيد ! .

وكنت أعتصم بنادي المكتبة مضربا عن الطعام حتى ألغى معاهدة ١٩٣٦ ، حين جاءني ضابط بوليس يخطرني أن الوزارة تعترض على إصدار جريدة « المعارضة » مؤقتاً حتى تستكمل تحرياتها كما يقول نص التبليغ ! ولم أوقع هذا الإخطار إلا بعد إن كتبت بخط يدي أنني لا أعترف بهذا الإخطار للوقت فهو تحايل لإطالة المدة القانونية ، وأنني سأصدر الجريدة بعد انتهاء الثلاثين يوماً التي حددها قانون المطبوعات ، ما لم يصلني إخطارهم قبل هذا التاريخ !

ولما انتهى الإضراب نقلت إلى مستشفى الخازندارة لأعالج من بعض إثارة . . وهناك لاحقني ضابط البوليس مرة أخرى بالإخطار الثاني برفض التصريح لي بإصدار « المعارضة » . ورفضت — بعد إن سجلت أيضاً — أن هذا الإخطار قد وصلني متأخراً . . بعد الموعد القانوني !

واشتد بي المرض وطال . . وخرجت لأجد أن بيني وبين الفرصة الأخيرة لرفع قضية خاصة بالمعارضة أيام . . ووضعت يدي في جيبي أبحث عن رسوم القضية فلم أجدها . . وفي هذه المرة أيضا وجدت صديقاً يدفعها عني هو الزميل المهندس حلمي لبيب .

وعندما صدر الحكم لصالحي في ٢١ نوفمبر ١٩٥١ كان بيني وبين موعد النطق بالحكم في القضية التي رفعتها بطلب تعويض من حكومة الوفد التي كانت قد عطلت لي جريدة « البشير » . ثم عندما أردت أن أصدر بدلا منها جريدة « المستقبل » وقف فؤاد سراج الدين يتهمني بسرقة الصحف والجنون !

وهرع صبري « السجين المجنون — الذي هو أنا ! — إلى مجلس الدولة يحتكم إليه في أمر الوزير الطليق العاقل ! واستعرض حملة الاضطهاد التي كنت هدفا لها ، وكيف منعه من السفر ، وكيف حاربني البوليس السياسي في رزقي ، وحرمني من كل حق حتى أصبحت أزاول الكتابة سفية كما لو أنها نوعا من المحرمات !

وكانت قضية التعويض موعدها يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥١ ، ولم أشأ أن أضيع الوقت ، فأعلنت أن المعارضة ستصدر في ٩ يناير ١٩٥٢ ، ولم لا آخذ بالموعد وأنا اومن أن مجلس الدولة سيحكم لي بتعويض كبير يوم ١٨ ديسمبر لحقي ؟

ولكن يوم ١٨ ديسمبر جاء وجاء معه رفض مجلس الدولة الترخيص ، والحكم عقد السنهوري باشا نفسه . وأحسست أنني كنت خياليا عندما رتبت الأمور على أساس واه من الأمل .. ولكن ما العمل وقد قررت أن أعود إلى قرائي .. هل احتملت كل هذا الصراع الطويل .. ورفضت كل هذه القضايا .. وانتظرت كل هذا الوقت .. لأجد نفسي في نهاية الأمر عاجزاً عن إصدار الجريدة التي أعددتها التزاما من بين أنياب الطغيان الوفدي ؟ .

وانطلق أصدقائي يبحثون عن ممول ، ولكن ، أين هو هذا الشجاع الذي يعرض حفنة ألوف للضياع في مشروع يعرف أن صاحبه عاش هذه الحقبة الأخيرة من حياته أشبه بالمسوخ تحل اللعنة على كل من يقترب منه ؟

ولم أجد هذا الممول ، وبدأت أقترض ، وأقول لكل من يقرضني بكل وضوح وصراحة إنني لا أدري متى أستطيع أن أسدد هذا الدين بالضبط ، فصحافة الرأي تهددها أخطار شتى ، أقلها المصادرة ، وإضراب الشركات عن الإعلان فيها

وجمعت الزملاء الذين عصروا العمل معي بدون أجر بلا أي مقابل .. بعضهم لأنه ابن البشرى .. فقد وجدنا تكاليف العدد الأول ، وجزءاً بسيطاً من تكاليف العدد الثاني .

وسهرنا .. عباس الأسواني ، ومحمد جلال ، وجمال الحسيني ، وأنور عامر ، وأحمد أمين يونس ، ومصطفى محرم ، والرسام عبد العظيم وأنا .. سهرنا جميعا نعد الأصول . ونبحث عن صور ونفكر في رسوم .. وعندما دارت ماكينة الطباعة وقدم لي الأسطى عمني أول نسخة .. انقبضت وفكرت أن أوقف الطبع وأن أؤجل موعد صدور العدد الأول أسبوعا أو أسبوعين .. فقد خيل إلى أن السرعة ، والخوف الذي سيطر علينا من احتمال مصادرة العدد الأول وضياع المبلغ الذي اقترضناه . خيل إلى أن هذه العوامل المختلفة لم تساعدنا على إخراجه على النحو الذي نريده ، والذي ينتظره منا ملايين القراء ، لكن زملائي اقنعوني أن العدد عظيم .. وقد تلقيت بعد ذلك آلاف الرسائل التي تؤكد أصحابها هذا المعنى نفسه ، ومع ذلك فأنا مازلت مصراً .. على أن العدد الأول كان ضعيفا !

الحزب الديموقراطي

في يوم الخميس ٢١ أغسطس ١٩٥٢ ، صدرت جريدة « المعارضة » وهي تعلن تأليف الحزب الديموقراطي !

وكانت اللائحة الأساسية للحزب تتضمن بنوداً كثيرة ، لا أستطيع بالطبع نشرها كلها ، ولكني أذكر أنه جاء في المادة ١٢ من برنامج الحزب بأنه من الضروري أن تأخذ مصر .. جانب معسكر الشعوب التي تقاوم الإستعمار والفاشية والحرب

ثم أرادت الجريدة أن تعطي تفسيراً لهذا البند ، فاستغلت فرصة إصدار عدد خاص عن مفاوضي حروب كوريا ، وفلسطين ، والقنال .. وكتبت في عددي ٢٣ و ٣٠ أكتوبر ١٩٥٢ بأن الحرب في مصر لها وجهين .. حرب تشنها مصر ضد الإستعمار والرجعية وهذه حرب عادلة يحدونا القتال إستشهادا .. وحرب عدوانية تشن لصالح أعداء الشعب من الإستعماريين والرجعيين حيث تساق الشعوب للذبح !

واضافت الجريدة . وعندما كان كتاب الرجعية يجهدون أنفسهم في تمجيد وعود بريطانيا بالجلاء ، ولومها على عدم الوفاء ، كانت تأتينا أنباء المعارك الحقيقية في الملايو وبورما وفيتنام ، والتي كانت جميع الصحف الإستعمارية في مصر تصف الوطنيين فيها بالإرهابيين » !

ثم .. في المادة رقم ١٣ جاء في تعريف كلمة « الدولة » :

« إن الدولة ليست إلا من إختراع الجنس البشري ، وقد وضعها لتحقيق سعادته على النحو الذي يراه ، فهي إذن وسيلة لتحقيق صالح المجموع فلا قدسية لها وما دامت الدولة هي وسيلة المجموع ، فيجب أن تسيطر عليها فلسفة المجموع .. والطريق إلى ذلك هو سيطرة فلاسفة المجموع على الدولة وإدارتهم لشئونها بما يتفق ورغبة الشعب ، ولكن تبدأ هنا مشكلة التنفيذ ، فكيف نعرف رأى الشعب ؟ .. وكيف يسيطر هذا الرأي ؟ .. وكيف يعرف أن رأى الشعب قد تحول ، إذا ما تحول .. وما هي وسيلة التغيير عند حدوث التحول وما قدمته البشرية الجواب .. إنه حرية الرأي .. الحرية السياسية !

وفي عدد ٣٠ أكتوبر نشرت الجريدة صورة بلاغ تقدمت به إلى السيد / حافظ سابق النائب العام عندئذ .. الصحف الرجعية التي دأبت على التشكيك في صلاحية الشعب لحكم نفسه ، ومؤكدة أن الإصلاح لن يتم والاستعمار لن يخرج إلا على يد حاكم مستبد .. وعادل !

ثم أردفت : وحيث أن هذه الدعوة تقع تحت طائلة المادة ١٧٤ والتي تنص على معاقبة كل من يروج علنا لمبادئ من شأنها تغيير مبادئ الدستور الأساسية وحيث أن جيش الشعب قد أعلن من اللحظة الأولى أن أول أهداف الحركة هو حماية الدستور ورفع لوائه ، وأن فترة الإنتقـــال لن تتجاوز ستة شهور تستأنف بعدها البلاد حياتها الدستورية ..

لذلك فإني أتقدم بهذا البلاغ راجياً سماع أقوالي بشأن الصحف والكتاب الذين يرددون دعوة الحزب الواحد علنا .. وفي جرأة متناهية !

ولم يستمع النائب العام بالطبع لا في يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٢ ، ولا في أي يوم بعده فقد انتصرت الرجعية ، وانتصرت دعوة الحاكم المستبد ، والعادل في نفس الوقت !

وفي منتصف مارس العام ، بدأت « المعارضة » حملة الدعوة لإعلان الجمهورية وإلغاء النظام الملكي ، وكان علي ماهر « باشا » رئيس الوزراء في ذلك الحين ، يدعو إلى بقائه عشرين عاما ، على أن تنص في الدستور الجـــديد على تعديلات « تقلص » من سلطان ذلك الطفل الذي كان مازال أمامه كل ذلك الوقت حتى يصبح ملكا !

وحدث أن بدأ « فاروق » — بعد خلعه — ينشر مذكراته في أوروبا ، فترك جرائد « المصري » و « الأخبار » و « الأهـــرام » ، وعشرات الصحف المتحدة ، وذكر جريدة « المعارضة » ، وقال أنه لو كان في مصر لما سمح بقيامها !

لماذا ؟ .. كانت « المعارضة » قد هاجمته يوم كان في قبضته السجون والمشانق ! والمعتقلات ، والحرس الحـــديدي ، أما بعد أن طرد .. فلم يستحق من « المعارضة » كلمة واحـــدة ! كانت « المعارضة » عنده جريدة غير عادية ، فـ « المعارضة » التي صدرت يوم ٩ يناير ١٩٥٢ ، ولدت قبل هذا التاريخ بسنوات !

ولنعد بالذاكرة إلى عام ١٩٤٢ .. وكنت أشرف على تحرير إحدى المجلات الأسبوعية ، وحدث أن دق جرس التليفون ، وسأل المتكلم عن رئيس التحرير فقلت : إنه غائب وأنا هنا أنوب عنه !

قال المتكلم : كانت عندي فكرة لافتتاحية العدد القادم أردت أن أقترحها على الأستاذ .

قلت : ما هي ؟

قال : إذا كنت أنت الذي سيكتب الإفتتاحية فاسمع الفكرة .. إننا الآن في عصر لا مكان فيه للشعوب الصغيرة ويجب تجميع العرب تحت راية واحدة .. لماذا لا يكون لمصر وسوريا وفلسطين عرشا واحداً ؟ .. هذه هي فكرة المقال !

قلت ساخراً : أهذا هو مشروع مصر الكبرى ؟ .. إن المشكلة ليست مشكلة تجميع العرب تحت عرش واحد ، بل هي مشكلة تجميع العرب لمحاربة عدو واحد .. لتحطيم إستعمار واحد !

قال المتكلم : مه .. وحضرتك .. لم نتشرف باسم حضرتك !

قلت : أنا فلان !

وخرجت من المتكلم المجهول شهقة عبرت عن دهشته من المفاجأة ، وقال في فمي الرجل .. هه .. فهمت !

قلت : وحضرتك .. إسم حضرتك ..

أجاب وهو يضغط المقاطع : أحمد حسنين !

وبعد أيام عاد بعدها صاحب المجلة ورئيس تحريرها من بلدته ورويت له القصة ، فتجهم وجهه وقال : وقعتنا سودة .. وكيف تحدثت معه بهذه اللهجة ؟!

ثم ارتدى طربوشه وخرج مهرولا إلى قصر عابدين وعاد بعد ساعتين ، عاد وهو يتصبب عرقا وقال : كنت أظنه سيطلب فصلك ، لكنه على العكس ، كان يضحك وهو يسألني عن حالتك المالية ، ثم طلب أن يراك دون أن تعرف أنه هو الذي يريد مقابلتك !

قلت : وماذا يريد مني ؟

قال : يريد أن « يتفرج » عليك .. أنه — كما فهمت — يريد مناقشتك

ليعرف من أنت .. ويمكنك أن تذهب إليه غداً بحجة عمل حديث معه !

قلت بعد تفكير : كلا .. لن أذهب ، ولا أريد أن أراه !

وضرب صاحب الجريدة كفا على كف وقال متعجبا : كيف ترفض مقابلة أحمد حسنين ؟ .. إن كبار الصحفيين يتقاتلون على الوصول إليه !

ومضت أيام فوجئت بعدها بأول رد على موقفى ، إذ جاء الرقيب الخاص بمراجعة بروفات المجلة قبل طبعها ، وجاء يقول لى متهكما : تصور .. من بين التعليمات الجديدة اليوم عدم نشر أى شىء لك ، ولو كان مديحا فى الملك ، ومن الآن سوف أشطب توقيعك مضطراً عن أى مقال تكتبه !

وهززت كتفى ، ورضيت أن أزاول الصحافة كما لو كانت نوعاً من الفدائية وبقيت أزاولها فى السر أكثر من عام !

وبدا لى يوما أن أتحدى الجميع بإصدار كتاب يحمل إسمى رغم وجود الرقابة ، فسافرت إلى المنيا سراً وتوجهت إلى « المطبعة الخيرية » هناك ، وكنت أعرف صاحبها لكنى خشيت أن أقول له أنى هارب من رقابة فاروق التى حرمت ظهور إسمى على أى مقال أو كتاب .. فيرفض طبع كتابى ، وفى نفس الوقت لم أدر كيف أبرر له إختيار مطبعة فى المنيا لطبع كتاب رجل يعيش فى القاهرة؟

لكن حجتى لم تكن مستحيلة على كل حال .. فقد أقنعته بأنى فى أجازة ، وأنى أريد إستغلال فراغى فى إخراج هذا الكتاب !

وجمعت المطبعة حروف الملزمة الأولى .. والثانية .. والثالثة .. وشرعت فى الرابعة .. عندما تلقيت فجأة رسالة مستعجلة من القاهرة يقول فيها صديقى الوحيد الذى كان يعرف مكانى .. أن البوليس السياسى فتش منزلى بالقاهرة وإنه يبحث عنى فى كل مكان ، وإنه قد يبرق إلى مديرية المنيا بالقبض على ، إذ أن البوليس يعرف أنها مسقط رأسى وأن من المحتمل أن أختفى فيها !!

ولم يكن الوقت يسمح بالتسكع فتركت بقية الأصول للمطبعة بعد أن طلبت أن يذكر على الغلاف أنها « الطبعة الأولى سنة ١٩٣٨ » ، وذلك حتى أستطيع إيهام السلطات — فيما بعد — بأن الكتاب طبع قبل إعلان الرقابة على الصحف!

ولم أقل لصاحب المطبعة أن البوليس يبحث عنى ، بل تركته فى هدوء وعدت إلى القاهرة حيث الإختفاء عن عيون البوليس السياسى أسهل وأضمن ، وعند

من المنيا فى نفس اليوم وأطلقت شاربى وارتديت « جلبابا » من الصوف على طريقة أعيان الصعيد ، ووضعت على عينى نظارة طبية ، وأخفيت ذقنى بكوفية من الصوف أيضا كنت ألفها حول عنقى إذ كان الوقت شتاء ! واستأجرت شقة صغيرة فى منزل قديم بشارع أميرة حيث حررت عقد الإيجار باسم : « محمود المنياوى تاجر غلال » !

واستطاع « محمود المنياوى » أن يقضى شهرين ونصف متنقلا بكامل حريته فى كل أنحاء القاهرة ، حتى ظن أنه فى مأمن من عيون البوليس السرى ، فخلع الجلباب البلدى وارتدى بذلة عادية ، وفى هذا اليوم بالذات ألقى القبض عليه بالقرب من ميدان عابدين ، وكانت فى جيبه بروفات الكتاب وخطاب إلى المطبعة يوصيه فيه بأن يطبعه بأقصى سرعة !

وفى قسم عابدين ، تركنى كونستابل البوليس السياسى فى حراسة أحد العساكر ريثما يتحدث إلى رئيسه تليفونيا ويخبره بأن الصيد قد وقع فى الشباك !

وما كاد الكونستابل يتجه إلى التليفون حتى تظاهرت بأننى فى حاجة ماسة إلى دخول دورة المياه ، فسمح لى العسكرى بدخولها تحت حراسته ، وهناك .. مزقت الخطاب وألقيته فى البالوعة ، وما كدت أشرع فى تمزيق بروفات الكتاب حتى وجدت الكونستابل يقتحم الباب فى حركة عنيفة وهو يلعن العسكرى ، ويصف « غباوته » بألفاظ تعبر عن هياجه وثورته !

واقتادنى الكونستابل إلى دار المحافظة ، وكان وكيل البوليس السياسى قد حضر من منزله على أثر الاتصال به ، وحضر للتحقيق مع المتهم الهارب !

وسألنى : أين كنت ؟

قلت : فى منزل أحد أصدقائى .

ولاحظ عنادى فى الجواب ، فلم يبذل محاولة جديدة لمعرفة المكان الذى كنت اختفى فيه ، ولكنه سألنى وهو يقلب بروفات الكتاب : فى أى مطبعة تطبع هذا الكتاب ؟

أجبت : لا أعرفها .. إن صديقى الذى كنت اختفى عنده هو الذى كان يتولى عنى هذه المهمة ! ونظر إلى وكيل البوليس السياسى فى غيظ وحنق وقال : ها .. وهل تعرف لماذا قبض عليك ؟

قلت : بالطبع لا . .

قال : إذن لماذا هربت ؟ . ومن الذى أخبرك بأنه مطلوب القبض عليك ؟

قلت فى تحد : هذا ما سوف أجيب عليه عند التحقيق معى فى النيابة !

قال والشرر يتطاير من عينيه : آه . . النيابة العسكرية !

وصدر الأمر باعتقالى ، وكانت التهمة هى الاشتراك فى تدبير مؤامرة لإغتيال رئيس الحكومة ، النحاس باشا وقتذاك !

وساقونا إلى سجن التخشيبة ، وخيل إلى كل من دخل هذا السجن لم ينس أن يودع جدرانه ولو كلمة مختصرة يسجل بها تاريخ حبسه ، أما الكتاب والشعراء الذين اتيح لهم أن ينزلوا ضيوفاً عليه فقد أبوا إلا أن يخصوه ببعض إنتاجهم !

وكانت هذه الكتابات هى أول ما شغلنا به فى حبسنا ، فقـــد إنفرد كل منا بجانب حائط من حوائط السجن وأخذ يقرأ ما سجل عليها !

وكان طريفاً أن أقرأ قصيدة طريفة بتوقيع « العندليب » ! جاء فى مطلعها . .

لا السجن يرهبنا ولا السجان   أبداً ولا يمسك بنا الحرمان

والحق أن الغيرة دبت إلى نفسى فرأيت بدورى أن أقتنص هذه الفرصة قبل افلاتها ! وهكذا سجلت على حائط السجن زجلا طويلا بدأته هكذا . .

السجن للأحرار تكريم   وفخر مش محتاج برهان
يعرف كدا حتى المأمور   حتى اللى جوه السجان !

وقلت فى ختامه :

أدى احنـــا بنجاهد ونفوز   والجهد ظاهر مش خافى
وحبها خطرا جديد وتبوز   يامصر بحبك أرضى تخاف !

وترامت إلينا الأنباء أن كاتباً عملاقاً يدعى عباس العقاد قد ألقى القبض عليه وأنه فى طريقه إلى السجن معنا !

والحق أنى فرحت كثيراً لهذا النبأ ، لا لأننى أكره الرجل ، بالعكس ، فقد كنت لا أزال إحترامه وقتذاك وكثيراً ما سمعت أنه شديد البأس ، جبار !

ورأيت هذه المناسبة فرصة لأعرفه عن قريب فلعل أقتبس منه بعض جبره وشدة بأسه !

وجاء الكاتب العملاق ! من بعيد أصفر اللون ، مقوس الظهر ، مكتئباً ، مهموما . . يرتدى فوق سترته معطفاً رغـــم أن الوقت كان صيفاً ! وبادرنا فصافحناه ، واجتمعنا حوله نحاول التخفيف عنه دون جدوى !

أجل . . ظل ذلك « الجبار » حزيناً متألماً لسجنه ، ولم أعش عليه سوى دقائق وأنصاف الحقيقة ، وليس رغبة فى التشهير . . أقول أن ارتعاد العقاد وأسفه الذى لم يملك القدرة على إخفائه ، كان أول ما صدم آرائى فى العقاد كرجل ، فضلا عنه كاتباً جباراً !

وأعود إلى « المعارضة » . . لقد بذلت وأصدقائى جهوداً جبارة لاستمرار صدورها رغم المصادرات المستمرة ، والاضطهادات والتحقيقات المتلاحقة . ولكن للقدرة البشرية بالطبع حدوداً . .

وهكذا ، فقد صدر العدد الأخير من « المعارضة » فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ، واحتجبت بعدها !

الخاتمة

وقد توقفت حبيبي فى كتابك عند يوم ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ ، عندما صدر آخر عدد من أعداد جريدتك « المعارضة » !

ولم تمهلك الظروف السياسية — التى كانت سائدة — تستطيع أن تكمل ، ثم لم يمهلك المرض ، والقدر ، حتى تكمل !

فهل أكمل أنا كتابك ؟ . . هل أسرد باقى ما أصابك ؟

لقد قامت ثورة يوليو ، ومنذ البداية تولى أمرها أناس قرروا أن يمحوا تاريخ ما قبل الثورة ، وكل من ساهم فى صنع تاريخ ما قبل الثورة .

فى ٥ أبريل ١٩٥٤ ، أصـــدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل مجلس نقابة الصحفيين ، وتعيين لجنة مؤقته لإدارة شئون النقابة ريثما يصدر قانون جديد ينظمها على أساس استبعاد أصحاب الصحف من عضويتها . .

وصدر فعلا هذا القانون الجديد فى ٣١ مارس ١٩٥٥ (قانون رقم ١٨٥ لسنة ١٩٥٥) ، وبناءاً على هذا القانون الجديد ، أصدر وزير الإرشاد القومى — إذ ذاك — قراراً بتأليف لجنة مؤقتة تراجع جدول النقابة لتستبعد منه الذين لا تتوفر فيهم شروط العضوية .

وفى ٢٢ يوليو من نفس العام شطبت هذه اللجنة إسمك يا حبيبى من عضوية النقابة أنت الذى كنت عضواً بها منذ ١٦ مارس ١٩٤٢ .

وانتهزت « دار الهلال » — وكنت تعمل بها حينذاك — الفرصة ، وأبلغتك بالإستغناء من خدماتك من أول أغسطس ١٩٥٥ ، بحجة أن مجلس النقابة الجديدة الذى انتخب فى أول يوليو ١٩٥٥ ، قد حذرها فى كتاب رسمى من التعاون مع غير أعضاء النقابة ؟ .

وعبثاً حاولت يا حبيبى إقناع المسئولين فى الدار المذكورة بأن من حقك الاستمرار فى عملك لحين الفصل نهائياً فى التظلم الذى تقدمت به — وكان نفس القانون قد أعطى لمن يشطب اسمه حق التظلم أمام رئيس محكمة استئناف القاهرة — وأخيراً . . اشترطت الدار عليك ان تقدم لها خطابا من مجلس النقابة

النفسير حتى لا يعود هـذا المجلس نفسه إلى إبلاغ النيابة ضدها بتهمة مخالفة القانون ، وهكذا تقدمت يا حبيبى إلى مجلس النقابة فى ٢٤/٧/٥٥ بخطاب مسجل برقم (٧٠) بالتماس إعطائك هذا الترخيص لتتمكن من الإستمرار فى عملك الصحفى لحين البت فى تظلمك .. ولكن المجلس « الموقر » . وكان المجلس الأول بعد صدور القانون المذكور برئاسة الأستاذ حسين فهمى — نقيباً — وأحمد قاسم جوده — وكيلا — وصبرى أبو المجد — سكرتيراً عاماً ، والبيرعون — أمينا للصندوق ، والأساتذة والسيدات . أمينة السعيد وحافظ محمود ، وجلال الحمامصى ومحمد نجيب وعلى حمدى الجمال وعبد الوهاب على ومحمد وجدى والأمير المليجى أعضاء ، رفض مجرد الرد على خطابك . وهكذا بدأت رحلة تعطلك يا حبيبى . والتى استمرت حتى آخر العمر ..

فعندما قبلت اللجنة الإستئنافية تظلمك فى جلسة ١٩ نوفمبر ١٩٥٥ ، وقررت إعادة قيدك فى جدول النقابة ، لم تستطع العودة إلى عملك فى دار الهلال ، فقد ابلغتك الدار ان مكانك قد شغل وتقدمت إلى مجلس النقابة تطلب توسطه — وهو السبب فى هذا البلاء — لإعادتك إلى عملك ، او لأى عمل آخر ، وبالطبع ، كانت النية قد اتجهت إلى سياسة واضحة بالنسبة لك ، وهى ألا تعمل ! فى عام ١٩٥٨ ، تمكنت من العمل بجريدة الجمهورية ، وبعد أسبوعين بالضبط ، استدعاك المرحوم صلاح سالم ، وأبلغك وعيناه تدمعان ، انه مضطر إلى فصلك بناء على تدخل من صلاح نصر ، ولجأت إلى تدريس الصحافة بالمراسلة لمن يرغب ، وهو العمل الذى كنت تلجأ إليه كلما سدوا امامك ابواب الرزق ، وتنبهت الحكومة فى اول ابريل من عام ١٩٦٣ إلى انك مازلت تعيش ، فقامت بتفتيش منزلنا بواسطة ضابط يدعى السيد / محمود سويلم ، كان يعمل وقتها رئيساً لقسم مكافحة النشل بمحافظة القاهرة !!

واخذوك ياحبيبى إلى قسم السيدة زينب ، حيث حجزت مع اللصوص والنشالين فى القسم .

ورجوتنى ان الجأ للصديق الأستاذ إبراهيم البعثى — شفاه الله وعوضه بقدر ما نحن مدينين له — وهكذا استنجدت به ، وامكن الصديق أن يعمل على الإفراج عنك فى نفس الليلة .. ولكن هذا الحادث احزنك الى حد جعلك تزرف

دما .. وعندما سألنى الدكتور امين الصيرفى ــ عندما لجأنا إليه لإسعافك ــ هل حدث ما احزنه ؟

لم نقل شيئا ، لا انا ، ولا انت ، وماذا كنا نستطيع ان نقول ، بل وما فائدة اى شىء يقال ؟ ! ثم اصبت بجلطة فى المخ ، تكررت مرة بعد مرة فقد حظر علينا العمل الذى نعيش منه ــ دراسة الصحافة بالمراسلة وبعنا « فيلا » كانت تحت التشطيب بمدينة الصحفيين ، ابتعنا بمساعدة الأخ الأستاذ إبراهيم البعثى ، فلم يكن قد انتهى بناءها بعد ، وكان من الممكن ان تبخس تماما على اعتبار ان من يبيع على هذه الصورة هو إنسان لا يملك طعام يومه وحقا كنا ــ بالمعنى الحقيقى للكلمة ــ انت وأنا والاثنة اطفال ، لا نجد طعام يومنا .

ولجأت يا حبيبى للأستاذ محمد صبيح ، وكان يتولى تحرير صحف « دار التعاون » ، فأصبح يشركك مقالا كل اسبوع ، تحدد الدار موضوعه ، وعدد سطوره ، مقابل خمسة جنيهات . اى عشرون جنيها شهريا .

ومن عام ١٩٦٣ حتى ديسمبر ١٩٦٧ ، كانت ايامنا صعبة الغاية . وكان حزنك يا حبيبى عظيما . . فقد اصبحت بدون قلم تجد نفسك فيه . . وبدون مال تهرب من نفسك إليه .

وفى عام ١٩٦٧ . وبعد الهزيمة . اصـــدر الرئيس عبد الناصر امرا بـ « تعيين » . جميع الصحفيين الذين لا يعملون ، ضمن محاولة لترميم هيكل الدولة المتداعى والذى ادى إلى الكارثة ، وعينت فعلا مع غيرك بنفس دار التعاون التى كنت تنشر بها مقالاتك الأسبوعيـــة ، وبنفس المرتب الموحد الذى تقرر للجميع ، اربعون جنيها شهرياً ، وأنت الذى عندما التحقت بالعمل عام ١٩٥٨ بجريدة الجمهورية ، قرروا لك ــ مبدئياً ــ مرتباً ثمانون جنيهاً ، أى نصف مرتب ، مع التجاوز عن فرق زمنى مدته عشرة أعوام ؟ !

وأردت انت أن ترفض فقد كان تمطلك أكرم ــ عندك ــ من هذا الوضع المهين ، ولكنى أنا توسلت إليك أن تقبل ، فقد كانت حياتنا صعبة الغاية ، وكان الأطفال بحاجـــة إلى مال ، وفى طفولتهم قد لا يفهمون ، أو قد يعدون كل تقصير من ناحيتنا هو نوع من ضراوة « زوجة الأب » !

وقبلت يا حبيبى من أجلى ، ومن أجل الاطفال ، ولكن ذلك كله كان على

حساب صحتك ، وصار المرض يفاودك ، خصوصاً بعد أن تولى الرئيس أنور السادات السلطة ، فقد كان يعرفك كمكافح صلب ، وكان اعتقادك وفرحتك الكبيرة أن يوم تحرر الوطن قد حل ، ودور الصحفيين الوطنيين قد جاء . .

ولكن ياحبيبي طال أيضاً إنتظارنا . . وعندما صدر القرار الجمهوري ٣٨٠ لعام ١٩٧٣ بإعادة كل صحفي إلى الدار التي كان يعمل بها وعندما جاء اسمك بالجريدة الرسمية بإعادتك إلى جريدة الجمهورية .

وعندما رفض السيد / مصطفى بهجت بدوى ، رئيس مجلس ادارة دار التحرير للطبع والنشر — وقتذاك — أعادتك ، واصر على الرفض رغم القرار الجمهوري الواضح ، وبدون سبب مفهوم . .

وعندما جاءك خطاب فصل من « دار التعاون » بإمضاء الاستاذ محمد صبيح على اعتبار إنك عينت بجريدة الجمهورية وإنه من غير المعقول أن تعمل فى دارى نشر فى وقت واحد ، هذا رغم أن الاستاذ صبيح كان يعلم تماماً أن جريدة الجمهورية كانت — بالفعل — مازالت ترفض عودتك للعمل بها . .

وعندما ثقل لسانك وأنت بنقابة الصحفيين تتحدث مع الاستاذ مصطفى نبيل وكنت معك — وتشكو له موقف الاستاذين مصطفى بهجت بدوى ومحمد صبيح منك . .

عندها . . كانت النهاية قد حانت ياحبيبي . .

لكنك رفضت أن تستسلم ، وكأنك وجدت فى المرض خصما تتحداه ، فاستيقظت فيك « الروح » التى حاولوا طويلا طمسها دون جدوى . .

وصرت تتعامل مع المرض ، وتتحداه ، بنفس الروح التى عجز « القهر » عن التغلب عليها . وكنت فى عذابى من أجلك ، لا أملك إلا ان احنى رأسى اجلالا لقوتك ، كنت اصر على أن أصحبك إلى محاميك لتتابع قضاياك . . وتصر على أن آخذك إلى النقابة لتعطى صوتك للدكتور يوسف ادريس نقيباً . . كنت تزاول — رغم مرضك — حياتك وتتابع شئون وطنك وأوطان الآخرين . .

ومنحتنى قوتك قوة ! وتفاؤلا . . وصرت أستعجل اليوم الذى ينسحب فيه المرض مقهوراً معترفا بهزيمته ، لكنك ياحبيبى لم تكن فى النهاية سوى بشر . وهكذا لم يلبث ان غلبك المرض ، و « القرف » ، فلزمت المنزل لاتخرج إلا للضرورة !

وكففت عن الاهتمام بكل شيء .. كنت ياحبيبي قد تعبت ..

وعندما صدرت لائحة أجور الصحفيين، وتضاعف مرتبك إلى أربعة أو خمسة أضعاف، ومن قبل لائحة الأجور وعندما تدخل — جازاه الله كل خير الدكتور حافظ غانم وكان مسئولا على ما اذكر — عن الصحف المملوكة للاتحاد الاشتراكي عند الأستاذ صبيح، وطلب منه تليفونيا — أمامك — رفع مرتبك، وهو يسأله مندهشا : فتحي الرملي يقبض أربعين جنيها ؟

وفعلا، لم يجئ الشهر التالي إلى وقد تضاعف مرتبك ولكن بشرط واحد، هو أن تقبض ولكن لا تكتب إلا في ما يقرره لك رئيس التحرير، ويكون من الأفضل لك، وللجريدة، إلا تكتب على الإطلاق !

لم تعد إذن تشكو لحاجة إلى المال، لكنك كنت ياحبيبي قد أصبحت في غير حاجة إليه . فقد صرت تمشي وتتكلم بصعوبة، ولا تخرج إلا بمساعدتي .. وإذا أردت شيئاً، ترجمت، أنا ما تريد قوله إلى الناس حتى يفهموك !

لم تعد إذن ياحبيبي بحاجة إلى المال .. ولم أعد أنا أيضاً في حاجة إليه بعد أن صارت حياتي عذابا متصلا من أجلك ياحبيبي . أنت الذي كنت لي، ولعمري كله منه بدء شبابي، الأب والصديق، والأخ، والزوج والحبيب .. والحياة كلها .. ولم يعد أولادك بدورهم في حاجة إلى المال، فقد كبروا واستقل كل منهم بحياته ..

وبعد يا حبيبي ..

فمسئولية من هي، أو جريمة من هي هذا الذي أصابك ؟ أنني أترك هذا السؤال معلقاً — الآن على الأقل — وأكتفي بأن اقدم هذا الكتاب وثيقة إدانة ضد ظالميك، وهم كثيرون، قام كل منهم بدوره، حتى وصلوا بك في ٢ يونيو ١٩٧٧ إلى حفرة في جوف الأرض .. وقد كانت بداية تعذيبك عندما أشعلتها ثورة فكرية بكلمة « الإشتراكية » التي أدخلتها إلى قاموس هذا الشعب عام ١٩٤٥ ولم يكن أحد، لا حكومة ولا شعبا، يعرف بعد ما هي الإشتراكية فلما بدأت الحكومات الرأسمالية تنتبه إلى معنى الكلمة، أعلنوها حربا عليك وكانت حربا غير متكافئة، فقد كانوا يملكون السجون، والمعتقلات، والتشريد

والتجويع . . نعم ياحبيبى . . التجويع بالمعنى الحقيقى المؤلم للكلمة ، تجويع ، ولم تكن تملك أزاء كل ذلك الا صلابتك وقلمك ، وقد أخذوه منك ، وفرضوا عليك الصمت قبل أن يفرضه على لسانك المرض ، وكانت هذه هى عدد التهم !

وبعد ياحبيبى فماذا أقول ؟. . لم يعد لدى ما يقال ، أو لعل الذى لدى كثير جدا بحيث يزاحم بعضه بعضا . . ولذلك ، فأننى اختم كتابك بصورة لخطابين، احداهما للسيد اللواء / محمود السباعى مدير الأمن العام ، فى عام ١٩٦٦ .

وفيه تقول بعد أن تشكر على انهائه مهزلة حجزك بقسم السيدة زينب :

أما العناصر التى تتجاهل تاريخ الرواد الأول للإشتراكية فى بلادنا ، وما قدموه فى هذا السبيل ، وهو ما يساوى العمر كله . . فإننى على ثقة أنها لن تكف عن مطاردتى . . ثم تستطرد : وأرجو أن تتكرموا بحفظ هذا الخطاب فى اى ملف لإدارة الأمن العام ، لكى يكون شاهداً إذا مت أو دفعت للموت كمداً ، أو جنوناً ، أو انتحاراً . .

والثانى مسودة خطاب كتبته بخطك — فى مرضك الأخير — للسيد خالد محيى الدين ، تشكو فيه من المرض الذى هو وأثر من آثار الإعتداء على . . ثم تستدرك فتضيف . . فى العهود السابقة !

* * *

وبعـــد . .

نم ياحبيبى فى سلام . .

فلم يعد فى مقدور بشر أن يؤذيك !

٢/٦/١٩٧٩ عبلة فهمى

أما العناصر التي [illegible] تاريخ [illegible] الأول [illegible]

وما ندعوه في هذا [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] وإذا [illegible] وكان من [illegible] التي لم [illegible]

[illegible] ، فأنا على [illegible] أن [illegible] عن [illegible]

[illegible] أن يكونوا [illegible] هذا الخطاب في أي [illegible] لإدارة الأمن العام ، فأنا واثق من [illegible]

[illegible] إذا [illegible] أو [illegible] أو [illegible]

على [illegible] في [illegible]

وهذه العناصر التي [illegible] من هذا العمل [illegible] التي [illegible] من

[illegible] الأسعار [illegible] الخ ....

وأشكرك إذ [illegible]

[illegible] في [illegible] .

والسلام عليكم ورحمة الله ...

١٩٦٦/٥/٢٩

[illegible]

١٨ شارع صفية زغلول

القاهرة

عزيزي الأستاذ الكبير خالد محيي الدين

رئيس التجمع الوطني [illegible]

أرجو قبول عضوية [illegible]

[illegible] في هذا التجمع اليساري [illegible]

الديمقراطية [illegible]

[illegible] الله [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

٢ / ٢ / ٩٧٧

[illegible]

١٨ ش صفية زغلول

[illegible]

مؤلف الكتاب

● كان شعار جريدته البشير « . . الإنسان أعظم رأس مال فى الوجود » .

● فى ٢٩/٨/١٩٥٠ ا نظم حملة لدفع الحكومة المصرية إلى الاعتراف بالصين الشعبية!

● كانت دعوته الخالصة « الشعوب لا تريد الحرب » مبينا الفرق بين الحرب العدوانية، و الحرب التى يقوم بها الشعب لتحرير نفسه مؤكدا أن هذه الأخيرة حرب مقدسة !

● اضرب عن الطعام مرتين من أجل وطنه: الأولى احتجاجاً على قانون الاشتباه السياسى الذى كان يضيف إلى المتشردين ، المحكوم عليهم فى جرائم الرأى والثانية لتجنيد الشعب ضد معاهدة ١٩٣٦ ، وقد انتهى الإضراب فى ٩ سبتمبر ١٩٥١ وألغت حكومة الوفد المعاهدة فى ٦ أكتوبر من نفس العام !

● ألف عام ١٩٥٠ ، جماعة الدعوة لتأميم القنال ولكن الحكومة القائمة إذ ذاك حاربتها وحلتها .

● دعا إلى تأليف لجان وطنية فى كل حى وقرية لتنظيم حركة وطنية تقف فى وجه المحاولات التى كانت تريد ربط مصر بالمعسكر الاستعمارى .

● الصوت الوحيد الذى ارتفع يدعو إلى التحقيق فى كارثة فلسطين كلها ـ وليس الأسلحه الفاسدة فقط ـ مناديا بأن الحرب الفاجعة العربية التى دفعت اليها مصر تكشف بأن الحدود بين الصهوصية ، والاحتلال ، والخيانة ، معدومة!

● عاش مضروبا عليه من جميع العهود، مطاردا فى رزقه وحريته ، منذ ألف عام ١٩٥٦ كتابه الخطير ، الصهيونية أعلى مراحل الاستعمار .

● لم يضعف كل هذا القهرمن صلابته ، أو إيمانه العظيم برسالته ، وبالشعب ، وإن كان أثره قد ظهر واضحا على صحته فأصيب بالجلطة ، المرة تلو المرة ، حتى استشهد فجر ٢ يونيو ١٩٧٧ ولم يكمل ٥٨ عام !

مطابع الناشر العربي
شارع الصحافة - القاهرة